

أحباب النساء

في أبحر أهلية والإسلام

تأليف

دكتور / محمد بدز مقبدي

الغتر

منتزه الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعها بالجاميزة ٩١٩٢٧٧

٤٩ ميلان الأوبرا - شب ٩٩٠٨٦٨

المطبعة السعيدة جميعها

٦٠ مكتبة الشاويك بالعلمية الجديدة



أحباب النساء

في أجسا أهلية والإسلام

تأليف

دكتور / محمد بدو معبدني

القسم الأول

النشر

مستزاد الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعتها بالجامعيات ٩١٩٣٧٧

٤٢ ميلان الأوبلا - ت. ٩٢٠٨٦٨

المطبعة النعمية ج. ١٠٠

٦ شبكة الشاويك بالعلمية الجديدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

مكانة المرأة في القديم والحديث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله .

وبعد :

كان للمرأة في الجاهلية مكانة مرموقة ، ومنزلة عالية لا تدانى ، والدليل على هذا ما توارثناه من شعر الشعراء ونثر الأدباء الذى ، يتغنى بالمرأة ولا يفتر عن ذكرها والإشادة بها فى غدوه ورواحه ، وعساه ومصبحه ، وذكرها يصاحبه حيثما حلّ وأينما ذهب ، ونراه حتى فى أشد ويلات الحرب ، ومنازلة الأعداء يذكرها ولا ينساها :

ولقد ذكرتكم والرماح نواهل منى ويبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقييل الرماح لأنها لمعت ككبارق ثغرك المتبسّم

وبما يدل على عظم منزلتها أنها رقت حتى تسنمت عرش المملكة ، فقد روى التاريخ أن كثيرات منهن وصلن إلى الملك والرئاسة ومنهن (زنوبيا) ملكة (تدمر) التى كانت تنادى بـ (جان دارك) الصحراء ، والتى يقول فيها المستشرق « وادنسكتون » أنها من أصل عربى من بنى السعيدع ، وقد خضعت لها القبائل ، وضرب بها المثل فى العزة والكبرياء ؛ فقبيل أعر من « الزباء » .

ونقرأ فى القرآن الكريم سيرة « بلقيس » العظيمة وما كان لها من التجربة وحكمة الرأي والمنزلة الديموقراطية فى قومها إذ كانت تستشيرهم فى كل معضلة وتأخذ رأيهم فى كل أمر (أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) (١)

إننا نقرأ هذه الآيات فنزداد إكباراً وإجلالاً وتقديراً للمرأة وما وصلت إليه من مركز مرموق لدرجة أنها كانت تستشار في الرأي ، ويرجع إليها إذا حزب القوم أمر ؛ فقد روى أن عمرة ابنة عامر الظرب كانت تقوم بالنيابة عن أبيها في أمور الفتاوى ، وكانت تفرع العصا إذا رأتها سها ، وفي هذا يقول قائلهم :

لدى الحكم قبل اليوم ما تفرع العصا

وما علم الإنسان إلا ليعلمها^(١)

وإن المرأة منذ فجر التاريخ حتى اليوم قد برهنت على ذكاء عظيم ، ودقة إحساس تستثير الإعجاب ، ولقد ظهرت - كما أسلفنا - في ميادين النشاط الفكري شاعرة فياضة بالوحى الإلهى ، وناثرة قدرة على إيقاظ أنبل عواطفنا الإنسانية ، واستطاعت أن تكون رئيسة وحاكمة وقائدة جيوش وسياسية محنكة ... كل شيء قد برزت فيه وساوت فيه الرجل ، وفائقه أحياناً وتركت للناس فيه أحداثاً باقية وذكرأ خالداً^(٢) . ويروى التاريخ أن النساء قد اشتركن فعلا في حومة الوغى بعزيمة نادرة وشجاعة فائقة في بعض الغزوات ، كغزوة أحد ، بل كن يلقين بفلذات أكبادهن في المعركة ، وخير شاهد على هذا الخنساء ؛ فقد ضمت بأولادها الأربعة في سبيل نصرة الإسلام .

وإذا لم تشترك النساء بالأعمال الفعلية في الحرب فقد كن يقمن بالأعمال الهامة للمحاربين ، فيقدمن للمحاربين الماء والزاد والسلاح ، ويجندن من أنفسهن عيوناً للجيش فيرقن المؤخرة والجوانب لئلا يباغتهم العدو ، ومن أهم أعمالهن تضميد الجراح ، فهن الطبيبات بالورادة ، والأوصى اللاتى يعالجن المرضى ، ويرفعن الروح المعنوية في القتال بما يؤدين من خدمات جليلة وتضحيات نبيلة - ويرجع سر مهارة المرأة العربية في الطب إلى تنقلهن مع

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٢٩

(٢) تحت المصباح الأخضر : ص ٦٥ توفيق الحكيم (مكتبة الآداب)

الرجال في الحروب ، وبين المتخاصمين ، وعنايتهم بشؤون الأطفال ؛ الأمر الذي جعلهم يعرفن الحالات المرضية ، وفقههم في طبيعة الظواهر والتغيرات التي تصيب الإنسان ، وعلى العموم فإن جميع الأفعال والأعمال الخاصة بحياة السلم ورفاء الإنسانية كانت حيناً من الدهر وفي جذور التاريخ الإنساني من أعمال الحقل النسائي (١) .

كما سبق يتضح دور المرأة في الحياة الجاهلية ومدى ما كان لها من الحقوق فلقد صورتها الشعراء في صورة كريمة تليق بمكانتها ، وكانت أول شيء يبادون به قصائدهم ، وبراعة استهلال يزينون بها أدبهم وشعرهم ، ومن الذين تغنوا بالمرأة (طرفة بن العبد) فلقد قدمها على أنها مناظرة للرجل (٢) ، وتحدث إليها الشعراء في إكبار وإجلال وتقدير ، يسبقون عليها حمل النبل والفضل ، ويضنفون عليها سمات الذكاء والنجابة . وكان لها حقوق ، وعليها واجبات ؛ ومن أم حقوقها على الرجل أن يحميها ويمنع عنها الضيم ويشمرها بأنها تعيش في حمى حقيق فتجد فيه كفايتها وترى فيه ما جأها وحماها الحصين ، ولم يكن الرجل ليحمي أهله فقط ؛ فالبيت عند العربي يتسع حتى يشمل القبيلة ، ومن هنا افتخر الشعراء بأنهم يشركون جاراتهم في طعامهم وما يذبحون أو يأكلون ، يقول حاتم :

وإني لأخزي أن ترى لي بطنة وجارات يتي طاويات ونحف

فهو يشرك جاراته في زاده ، ويعطيهم من الحقوق ما يعطيها أهله ، وهو يحميهم ضد المغيرين ، كما يدفع عنهم الجوع والمسغبة ، وكانت هذه الحماية تتضاعف إذا انقطع عنها المعين أو لم يكن لها بعل :

(١) د / على الهاشمي ، المرأة في الشعر الجاهلي : ص ٧٥ .

(٢)راجع ديوان طرفة : ص ١٤ .

وما تشكك في جادة غير أني إذا غاب عنى بعلمها لا أזורها
 سيلفها خيري ويرجع بعلمها إليها ولم يقصد على ستورها^(١)
 كما يفض طرفه ويمتنع من النظر إلى النساء الأجنبية عنه وبخاصة
 الجارات :

وأغض طرفي إن بدت لي جادة حتى يوارى جادتي مشاها
 وأما واجبات المرأة ؛ فلم يسكن العرب يرهقون نساءهم وفتياتهم بالأعمال
 والواجبات كما يفعل غيرهم من الشعوب الأخرى كالليونان والفرس ،
 وكانت تختلف حالة المرأة باختلاف الأسرة التي تعيش فيها ، فنساء الأسرة
 الراقية قل أن يقمن بالأعمال المنزلية وغيرها ، وكن يعتمدن على الإماء
 والخدم والحشم ، أما في الطبقات الوسطى والدنيا فكان يقمن بأنفسهن
 بالأعمال المنزلية . وفي جميع الأسر (عالية ومتوسطة ودنيا) كانت أعمال
 البيت كلها مسئولة مسئولية كاملة من المرأة .

ولما جاء الإسلام الحنيف ارتقى بالمرأة وبلغ بها أوج السكال ، ورفع
 من شأنها حتى تسنمت ذروة العلا ، ونظم حقوق المرأة وواجباتها وجعل لها
 دستوراً تلزم به ولا تحيد عنه ، ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال
 عليهن درجة والله عزيز حكيم^(٢) ، والدرجة هذه هي ما عناه القرآن الكريم
 بقوله : الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما
 أنفقوا من أموالهم ،^(٣) .

ووصى الرسول ﷺ بالمرأة خيراً وكرر التوصية بها في غير حديث ،

(١) شعراء النصرانية ص ١٣٠ .

(٢) سورة النساء : ٣٤ .

(٣) سورة البقرة : ٢٢٤ .

وقرر الإسلام لها نصيباً مفروضاً : « وللنساء نصيب مما ترك الوالدون والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً » (١)

وإذا قارنا بين المرأة العربية وأختها في الأمم الأخرى رأينا البون شاسعاً بينهما ؛ ففي ظلال التظم اليهودية التي قامت على ما يقتضيه نظام الأمة الحربية من خضوع المرأة للرجل والرغبة في الذسل ، نرى المرأة تسبي وتباع ، وتورث ، والآباء أن يؤجروا أبناءهم لموعد ، وأن يبيعوا بناتهم القاصرات بيع الرقيق وأن يقتلوهن (٢) .

وبعض الأديان ترى أن المرأة هابطة المسكنة ، وأنها خلقت للرجل ، ففي رسالة (بولس) إلى أهل (كورنثوس) : « أريد أن تعملوا أن رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، (٣) » .

وقد أثار المجتمعون في مجمع (ماكون ٥٨١ م) قضية ما إذا كان للمرأة نفس ، وهل تعدّ من البشر ، وبعد جدال طويل كان الجواب : أن لها نفساً وأنها بشر ، ولكنه كان بأكثرية قليلة وإن كانت الفسكرة الغالبة عليهم أن المرأة خالية من الروح الناجية ما عدا السيدة مريم (٤) .

وفي الفرس لم تنل المرأة حظاً عالياً من الاحترام والتقدير ، فللفارس أن يتصرف في المرأة كما يتصرف في السلعة ، بل لقد كان له أن يحكم عليها بالموت (٥) ، وكان قدماء الفرس يبيعون للرجل أن يتزوج بنته ، وأخته

(١) سورة النساء الآية :

(٢) حضارة العرب ٤٩٢ جستاف لويون

(٣) الإصحاح ١١ : ٢ (٤) المرأة في الشعر الجاهلي

(٥) تحرير المرأة : ٢٣ صبح الأعشى ١٣ - ٢٩٥ وقصة الحضارة الفارسية ٦١

الشقيقة أو غير الشقيقة - كما كانوا يبيعون الأمهات ويعتبرون ولادة الذكور ثروة ثمينة ، ويرون ولادة البنات عاراً يجلب اللوعة والحسرة ^(١) .

أما المرأة في نظر اليونان والرومان ، فقد انحطت مكانتها حتى بلغت الحضيض الأوهى ، والدرك الأسفل ، فكانوا يعدونها للبتة ، وعليها أن تطأ طيء رأسها في ذلة وخشوع للرجل ، وكان زوجها يملك مالها ويقيم عليها وصياً قبل موته ، وأبوها هو الذي يختار لها زوجها ، فإذا تزوجت ملكها زوجها ^(٢) .

ومن هنا كان الفرق شاسعاً بين المراتين ، وكبيراً ما بين المتزلتين ، فبينما رأينا المرأة العربية تبلغ السماكين ^(٣) وتهز الخافقين ^(٤) ، إذا بأختها في الأمم الأخرى ترسف في أغلال القيود ، وتهوى إلى قاع الحضيض : هذى مشرقة وذاك مغرب شتان بين مشرق ومغرب

ولو أطلقنا ألقابنا العنان في هذه المقارنة بينهما اضناقت علينا صفحات هذا الكتاب ، ولما اتسع المقام لإلقاء الأضواء على هذا الموضوع ، واطلعت مقدمة الكتاب على جوهر البحث ... فلندع هذا إلى مقامه ، ولكل مقام مقال .

والله ولي التوفيق .

د . محمد بدر معبدى

(١) انظر المرأة في الشعر الجاهلى ٥٧ .

(٢) انظر حضارة العرب لجوستاف : ٤٩٤ .

(٣) السماكن : نجمان معروفان .

(٤) الخافقان : الشرق والغرب .

تمهيد

لا أدري لماذا غفل علماء الأدب والشعر عن تسجيل تراث المرأة الأدبي والشعري ، وقصّر المفكرون والمؤرخون في إبرازه إلى حين الوجود ، المسد فراغاً كبيراً في المكتبة الأدبية ، ونضيف إلى التراث الإنساني تراثاً تليداً وطريقاً ما أخرجنا إليهما في حياتنا الأدبية والشعرية .

إن في المرأة قدرات خلاقة وحيوية ربما لا نجدها في الرجل ؛ فقد منحها قدرة الله الرقة والعذوبة ، وقد اقتضت وظيفة الأمومة أن تكون المرأة أكثر حساسية من الرجل وأسرع استجابة للتأثرات العاطفية والوجدانية . وكثيراً ما تهتدى عن طريق شعورها وبصيرتها إلى حقائق قد لا يستطيع الرجل أن يهتدى إليها بعقله وتفكيره المجرد ، فالمرأة هي الواحة الخضراء في صحراء الحياة ، والمرأة قصيدة الدهر ، وأخرودة الأبد .

والناظر فيما ترمى إلينا من الأدب على بعد الزمن سواء في الجاهلية أو الإسلام وما بعدهما ، يرى عقداً نظيماً يتلألأ في جبين الأدب والشعر دلالة وروعة وبهاء ، فالمرأة هي الوحي الذي يلقي في خلد الأدباء والشعراء صوراً متنزعة من رؤى الأحلام ، يبعثها في أفئدتهم نسيماً عليلاً وفكراً رائعاً يتهادى على أسلالت اللسان برداً وسلاماً ، يطمئن إليه القلب ويرتاح الخاطر . فالمرأة خمرة الأدب ، ورحيقه يرشقه الأديب والشاعر نشوة غامرة ، وما يقتبها منها إلا وفي فيه لحن سماوي يتذوقه القارئ . وكل أن تجد أدباً رفيعاً مجرداً عن ذكرها . ففيه من روحها حلاوة ، ومن دلالتها نغمة ، ومن سحرها رقة ،

ومن فتور عيניה هينمة . ولقد سجل التاريخ لبعض النساء العربيات ما رُوِي
ونبوغاً في فترات زمنية متقطعة في العقل والعلم والأدب ، لحقّت كتب التاريخ
والأدب بالأدبيات والشاعرات العربيات في شتى العصور والأزمنة .

ولم تقتصر العناية بالأدب على الرجال وحدهم فقد نبغ من النساء عدد كبير
ضربن بسهم وافر في الأدب ، وكنّ أمثلة تحتذى في قوة البيان وفصاحة
اللسان ، وقوة المعارضة . ومنهن — على سبيل المثال لا الحصر — الناقدة
الأدبية أم جندب امرأة إمام الشعراء دأمرى القيس بن حجر ، فلقد كانت
أدبية نابهة يفد إليها الشعراء والأدباء ، فتدلى برأيها السديد ونظرها الناقد
في شعرهم . ومنهن الحنفاء فقد كانت خطيبة مؤثرة ، وشاعرة بارعة ولعل سبب
قوتها الأدبية وتأثيرها يرجع إلى أنها مرّت بتجارب وبأحداث كثيرة مختلفة ،
انعكس أثرها على نفسها فصقل أسلوبها وأضاف إليه الحسنة والتجربة
والصلابة وشدة الأسر .

وقد كانت السيدة عائشة زوج الرسول ﷺ من أفصح أهل زمانها
وأحفظهم للحديث ، فقد روت عن الرسول الكريم ألفين ومائتين وعشرة
من الأحاديث ، ودوى عنها الرواة من الرجال والنساء ، ولها خطب حماسية
رائعة ، كما كانت من أفقه الناس وأكثرهم حفظاً للشعر والأدب حتى قيل إنه
لم يوجد أحد أعلم منها في فقه أو شعر .

أما السيدة عائشة بنت عثمان بن عفان ، فقد رثت والدها بعد استشهاد
رثاء بليغاً مؤثراً ، يدل على تضلعها في الأدب وتمسكها ناصية الفصاحة والبلاغة .

ولا ينسى الأدب عائشة بنت طلحة ، فقد كانت مضرب الأمثال في النبوغ
في الأدب والحسنة وعلم النجوم ، وقد دخلت على هشام ذات يوم ، فقال لها :
ما أوفدك؟ فقالت : حبست السماء المطر ومنع السلطان الحق ، فقال لها :

سأعرفك حَقَّك ، ثم بعث إلى مشايخ بني أمية فقال: إن عائشة عندي فاسمروا معي الليلة ، فحضرُوا فما تذكروا شيئاً في أخبار العرب وأشعارهم وأيامهم إلا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا أنار إلا سمعته ، فقال لها هشام : أما الأول فلا أنسكروه ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت : أخذتها عن خالتي عائشة ، فأمر لها بمائة ألف درهم وردّها إلى المدينة .

ومن شهيرات النساء في العصر الأموي : أم البنين زوجة الخليفة الوليد ابن عبد الملك ، وقد عرفت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجّة وبعد النظر ، وكانت لها مكانة ملحوظة في قصر الخليفة الوليد يستشيرها في مهام الدولة .

ومن شهيرات النساء في العصر العباسي والأندلسي : أم جعفر زبيدة بنت جعفر المنصور العباسي ، وعلية بنت المهدي ، والعباسة ، وولادة بنت المستكفي ، وحمنة بنت زياد ، ولبنى كاتبة المستنصر ، والأديبة الأشبيلية الفذة مريم بنت أبي يعقوب التي اتخذت من بيتها محفلاً لمداسة الأدب ، وندوة للأدباء حتى غدت موضع الأنظار وموضع التجارة والاحترام ، وتسابق الأمراء والوزراء إلى تكريمها ونيل مودتها .

أما الشعر فحدث عنه ولا حرج ... فقد كان للنساء ميدان واسع في الشعر البليغ الرصين الذي يختلف عن شعر الرجال في ابتعاده عن الغزل المكشوف والمجون والخمر والهجاء ، والمدح الرخيص . وكان وحيه عندهن ما عرفت به المرأة من عاطفة صادقة . وأروع ذلك الشعر في الرثاء ، فلنهن وإن كن قد شاركن في جميع أبواب الشعر إلا أن باب الرثاء قد حلقن فيه لانه هو المجال الفسيح الذي تنطلق فيه عواطف المرأة لانه نوع من النواح والبكاء ، وسلاح المرأة دائماً دموعها ، وهي أول شيء تلجأ إليه إذا حز بها أمر أو ألم بها مكروه ...

— ١٢ —

هذا ما أردت أن أقدمه لكتباتي د أدب النساء في الجاهلية والإسلام ،
وقد قسمت هذا القسم إلى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : ويشمل الأدب في العصر الجاهلي .

والثاني : يشمل الأدب في عصر صدر الإسلام وبنى أمية .

والثالث : ويشمل الأدب المولود أو المحدث . ويدخل تحته الأدب
في العصر العباسي والأندلسي . ونأمل أن نكون وفقنا فيما هدفنا إليه من
إظهار أدب المرأة ، إلى حين الوجود حتى يذنبع الناس بهذا الكنز الثمين ،
والدر الدفين الذي اختفى عن الأنظار حقبة من الزمان .

وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د . محمد بدر معبدى

أولا - في العصر الجاهلي

لقد عرفت المرأة في شتى عصور الأدب العربي أدبية وناقدة وشاعرة ، وأن هناك درراً غوالى للمرأة العربية ما زالت ولا تزال وستظل تزهى بها مدى الأيام والشهور والحقب والدهور ، يضاف إلى ذلك ما اختبأ في بطون الكتب المجهولة ، وما خفي في خزائن الكتب التي عفا عليها الزمن وامتدت إليها يد التدمير والإفناء في عهد محاكم التفتيش - وأيام التتر والمغول وغيرها من الحقب المختلفة .

لقد كانت المرأة العربية وما تسكاد نسامى في ارتياد شعاب القول ، وعجم أعواده وكشف فنونه وشؤونه ، ودرك مواطن القوة والضعف فيه فاغتمرت حومة البيان قائلة ناقدة : فإن نقدت فنقد القائل الحكيم ، أو قالت فقول البليغ العليم ، واشدد ما أخذت على لحول الرجال مواطن الزلل فيما ابتدعه وتأنقوا فيه ، ولها من دقة النقد ولطف المأخذ ، ونفاذ الإدراك ، وحسن البديهة ما جعل لها في شتات مواقعها الرأي القاطع والسكلمة الفاصلة^(١) .

وقد روى أن امرأ القيس نازع علقمة بن عبدة الفحل الشعر فقال علقمة : والملك الضليل^(٢) : قد حاكت بيني وبينك امرأتك ، أم جندب ، قال امرؤ القيس : قد رضيت - فقالت لها : قولاً شعراً على روى واحد وقافية واحدة صفا فيه الخيل ، فقال امرؤ القيس :

خليلي ممرّاً بي على أم جندب لننقض لبانات الفؤاد المعذب

(١) المرأة العربية ج ١ : دار الكتب المصرية ١٧٢ الطبعة الأولى ١٩٢١ .

(٢) المراد بالملك الضليل : امرؤ القيس .

وقال علقمة :

ذهبت من الهجران في غير مذهب . ولم يك حقاً كل هذا التجنب
وأشدها فغلّبت علقمة ، فقال لها زوجها : بأى شيء غلبتيه ؟
قالت لأنك قلت :

فلمسوط ألحوب وللحاق درة . ولأزجر منه وقع أهوج متعب^(١)
فلمدت فرسك بسوطك ومريته بساقك وزجرك وأتعبته بجهدك وقال
علقمة :

فوالى على آثارهن بحاصب . وعيبة شؤبوب من الشد مله
فأدركن ثانياً من عنانه يمر كمر السرائح المتحلب
فلم يضرب فرسه بسوط ولم يمره ولم يتعبه بزجر ، وفي رواية أن
امراً القيس قال لأم جندب : بم فضلك على قالت : فرس ابن عبدة أجود من
فرسك زجرت وضربت وحركت ساقيك ، وابن عبدة لم يصنع ما فعلت ،
فغضب من قولها وطلقها وخلف عليها علقمة^(٢) .

وكذلك فعلت الخنساء في نقدتها لشعر حسان كما سنشير إليه في ترجمتها.
وقد نبغ من النساء في العصر الجاهلي نساء كثيرات ، وكن أمثلة تحتذى في قوة
البيان وفصاحة اللسان ، وشاركت المرأة الجاهلية في جميع ضروب القول
فإذا تحدثت فإنما تنثر الدر من فيها ، حكيمة - وناقدة وخطيبة وموجهة
فلمسكت شغاف الأفئدة واستولت على الوجدان والقلوب .

ولقد وصفت النبي ﷺ رجالاً هم أمس الناس به ، وأطولهم لازماً له

(١) ذكر صاحب كتاب المرأة العربية (مذهب) بدلاً من (متعب)
وكلاهما بمعنى واحد .

(٢) كتاب الأغاني ج ٧ : ١٢١ : ١٢٢ (سأسى) .

وأماؤهم قلباً منه ، وهم ملوك القول وفرسان البيان فلم يبلغ واحد من وصفه ما بلغته امرأة أعرابية مثل (أم معبد) .

ولئن اهتز رجال العرب بقوم منهم ، ضربوا الأمثال ونشروا مطارف الحكمة وكشفوا قناع الحقيقة فإن لنسائهم أن يعتززن بفريق ممن لا يقل عن أولئك شأنًا ، ومن هؤلاء أمامة بنت الحارث ، وهند بنت الحس الأيادية ، والشمشاء السكاهنة ، والزبراء ، والمجفاء بنت علقمة ، والجمانة بنت قيس ، وعصام السكندية ، وحذام بنت الريان وغيرهن من الأدبيات والنائرات ، ولو تتبعنا ذكرهن وأخبارهن لضاق بهن هذا السكتيب الضئيل ، والأمل إن شاء الله أن نفرّد لأدبيات وخطيبات العرب وناقداًهن سفرًا خاصاً مطولاً لو امتدت بنا الأيام ، وصدقت الأحلام .

الفصل الأول

الوصايا

أسلوب الوصية

أسلوب الوصية في هذه الحقبة كان ينجح إلى السجع تارة وإلى الازدواج تارة أخرى ، وكان السجع محبباً إليهم ، وذلك للاستعانة به على التأثير في الوصية ، ولما يقتضيه المقام من تألق في القول ، وربما كان شيوع السجع راجعاً إلى ما فيه من نغم متعادل ، وردة موسيقية ، فهو أعمق أثراً في النفس ، وأحلى إيقاعاً في الأذن ، والأذن أحد طريقين تنفذ فيها الوصية إلى نفوس سامعيها ، وربما لأن السجع أشد مقاومة لعوامل الضياع من غيره لقربه من الشعر : فهو أسهل حفظاً ، وأكثر بالذهن لصوقاً . ومع السجع نرى تقصير الجمل والفصل بينها ، حتى تبدو كأنها فقرات أو جمل منفصلة ، وربما كان للارتجال أثره في هذا ، على أن تقصير الجمل في المواعظ والوصية شيء تستدعيه طبيعة الموضوع حتى يتاح الموصي أن يتنفس وأن يستريح وأن يتدبر ما يقول ، وحتى يتيسر للسامع أن يتابعه ويفهم عنه ؛ إذ لو جاءت الجمل مفرطة الطول لضاق بها السامع وتخلّف عنها وجهه في تتبعها ولو جاءت بالغة القصر لوقفت به فجأة دون ما يتوقع كأنما تعثر فسكّره وزل^(١) .

كما نلاحظ الترادف أحياناً والتنوع في العبارات المعنى الواحد . وفي الترادف والتنويع تغيير يبعث على نشاط السامع ولذته . ونلاحظ قلة تعميقهم في استخراج

(١) الخطابة لأرسطو . وراجع الخطابة في صدر الإسلام ج ١ ٧٧

المعاني البعيدة ، وفي استقصاء الأفكار العويصة التي تحتاج كد خاطر ودرس علم ، وأنهن كثيراً ما يستخدمن السكنايات القريبة المنال ، وميلن في الوصايا إلى سوق الحكم والأمثلة الحكيمة ليكون ذلك أدعى إلى قبول الوصية والإسراع إلى تطبيقها .

* * *

وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس (١) :

أى بنية ، إنك فارقت الجو الذي منه خرجت ، وخلعت العش الذي فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكك عليك رقيباً ومليكاً ، فكوني له أمة يكن لك عبداً وشيكاً (٢) ، يا بنية احمل عني عشر خصال تكن لك ذخراً وذكراً : الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه . فلا تقع عينه فيك على قببح ، ولا يشم منك إلا أطيّب ريح ، والسكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدو عنه عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتغيص النوم مغضبة ، والاحتفاظ ببيتته وماله ، والإرءاء على نفسه وحشمه وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرءاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تفشي له سرّاً ، ولا تعصى له أمراً ، فإنك إن أفشيت سره ،

(١) من ربّات الفصاحة والبلاغة والرأى والعقل خطب الحارث بن عمرو ملك كندة ابنتها أم إياس بنت عوف بن علم الشيباني فزوجها أبوها منه فقالت أمامة لابنتها «إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للعاقل ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبيها ، وشدة حاجتهما إليها كنشغ أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال ، (بجمع الأمثال ٢ : ١٤٢ والعقد الفريد ٣ : ٢٢٣ .

(٢) وشيكا : أى سريع الإجابة .

لم تأمنى غدوره ، وإن عصيت أمره أو غرت صدره ، ثم اتقى من ذلك الفرح إن كان فرحاً ، والا ككتاب عنده إن كان فرحاً ، فإن الخصلة الأولى من التقصير والثانية من التكدير ، وكوفى أشد ما تكونين له إعظاماً ، يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقة ، يكن أطول ما تكونين له مرافقة ، وأعلى أنك لن تصلى إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت ، والله بخير لك . . .

والوصية المذكورة دستور للمرأة العاقلة التى تحرص على سعادة عشتا وبيتها ، وقد صدرت من أم مجرّبة عنك حلبت الدهر أشطره ، وحرصت كل الحرص ، على أن تحقق السعادة - والرفاه لابنتها ، وتبين لها ما يجب عليها نحو زوجها لتدوم السعادة الزوجية ، وتحقق السكينة والطمأنينة .

وقد جاءت الوصية مسجوعة إذ هو الطابع الذى كان يسود ذلك العصر . والوصية قلائد من الذهب جاءت عفو الخاطر ودون تكلف أو صناعة متعمدة ، كما زخرت الوصية بالتشبيهات والاستعارات بما أكسب النص روعة وجمالاً ، كما عمدت أم إياس إلى التنويع فى الأسلوب والخطاب فرة تجد النداء فى قولها : أى بنية ، يتبعه الخبر المؤكد فى قولها : إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، ، وأحياناً تجد الأمر فى قولها : فسكونى له أمة يكن لك عبداً ، واحفظى له خصالاً عشرأ يكن لك ذخراً ، كما نجد الخبر يتبعه النهى المؤكد فى نحو قولها : فلا تفشى له سرأ ، ولا تعصى له أمراً ، كما نجد أسلوب الشرط فى قولها : فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدوره ، وما أحسن أسلوب التحذير فى قولها : ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً ، والا ككتاب إن كان فرحاً ، وهذا التنويع فى الأسلوب والخطاب له أثره فى التشويق واستثارة العواطف ولفت الأذهان ، وتنبيه المخاطب إلى ما يقال ، وما يجب أن يأخذ أو يعمل به .

وحبذا لو حفظت فتياتنا هذه الوصية وطبقنها في بيوتهن دون حساسية ،
إذا لرأينا السعد يرفرف على بيوتهن ، فهو نص حيك من أم أفنتها تجارب السنين
أرادت أن تضمن لابلتها الهناء في بيتها الجديد ، فوضح لها الحياة التي لم تألفها
من قبل ، ثم انتقل إلى سرد ما يتوجب على المرأة نحو زوجها فتوصيها بعشر
خصال جامعة ، خلاصتها : القناعة ، والطاعة ، والاعتناء بالمظهر اعتناء لا يخرج
عن الحد المطلوب المعتدل ، والنظافة ، وحسن التدبير ، والمحافظة على السر ،
ومراعاة حالة الزوج النفسية توفيراً لكرامتها واجتلاباً لهنائهما^(١) .

ووصفت أعرابية كرم الأخلاق عند أمها فقالت :

« يا أمه ، من نشر ثوب الثناء فقد أدى واجب الجراء ، وفي كتمان الشكر
جحود لما وجب من الحق ، ودخول في كفر النعم » ، فقالت لها أمها :

« أي بنية : أطبت الثناء وقت الجراء ولم تهدي للذم موضعاً ، إنى وجدت
من عقل لم يجعل بزم ولا ثناء إلا بعد اختبار ، فقالت : يا أمه : ما مدحت حتى
اختبرت ، ولا وصفت حتى عرفت . قال الزوج : « ما وفيك حقك ،
ولا شكرتك إلا بفضلك ، ولا أتيت إلا بطيب حسبك وكريم نسبك ،
والله أسأل أن يمتحنى بما وهب منك » .

وهذا حديث امرأة عاتلة تعترف بفضل بعلها ، وتشيد بخلاله الكريم ،
بعد أن عجمت عوده ، وسبرت غوره ، كما يدل حديثها على الاحترام المتبادل
بينها وبين زوجها ، وما أخرى فتياتنا أن يسلكن هذا السبيل ، ويمعن
وجوهن شطر هذا الدرب ، حتى يسعد الزوجان ، ويعيشا عيشة راضية .

(١) انظر الأدب الجاهلي من تأليف بالاشتراك مع الدكتور عبد الله العشري ،

وما أروع نصيحة الجمانة^(١) بنت قيس بن زهير لجدها الربيع :
كان قيس بن زهير العبسي قد اشترى من مكة درعاً حسنة ، قسمي ذات
الفضول وورد بها إلى قومه فرآها همه الربيع بن زياد ، وكان سيد بني زياد
فأخذها منه غصباً ، فقالت الجمانة بنت قيس لأبيها دعني أنظر جدي فإن صلح
الامر بينكما ، وإلا كنت من وراء رأيك ، فأذن لها فأتت الربيع فقالت :

«إذا كان قيس أبي ، فإنك يا ربيع جدي ، وما يجب له من حق الأبوة
عليّ إلا كالذي يجب عليك من حق البنوة لي ، والرأي الصحيح تبعه العناية ،
ويتجلى عن محضه النصيحة ، إنك قد ظلمت قيساً بأخذ درعه ، وأجد مكافأته
إياك سوء عزمه ، والمعاضد منتصر ، والباديء أظلم ، وليس قيس بمن يخوف
بالوعيد ، ولا يردعه التهديد ، فلا تركنن إلى منابذته ، فالحزم في متاركة ،
والحرب متلفة للعباد ، كذهابة بالطارف والتلاد^(٢) والسلم أرخى للبال وأبقى
لأنفس الرجال ، وبحق أقول لقد صدعت بحكم ، وما يدنع قولي إلا غير
ذي فهم ، ثم أنشدت تقول :

أبي لا يرى أن يترك الدهر درعه وجدى يرى أن يأخذ الدرع من أبي
فراىُ أبي رأى البخیل بماله وشيمة جدى شيمة الخائف الأبى

وقد لاحظنا في أسلوب الجمانة الأدبية أنها حساسة في استخدام الألفاظ
فاستلهمت حديثها باستعطاف جدها ، واستدرا حنانها ، فأثارت في جدها حنان
الأب الكبير الحاني على بنيه وبناته ، وقد كانت مقدمة وصيتها براءة استهلال
وصلت بها إلى أعلى سويدها قلبه ، وكانت منطقية بارعة في مناظرتها لجدها

(١) الجمانة بنت قيس بن زهير العبسي ، شاعرة من شواعر العرب فضلاً عن
أنها خطيبة لماحة وأدبية من أدبيات العرب راجع بلاغات النساء لطيفور ص ١٢٩ .
(٢) الطارف والتلاد : الحديث والتقديم .

- ٢١ -

لخبرته من الظلم وعاقبته ، وأن المعارض منتصر والبادئ أظلم ، وتستطيع أن تقول إن مناظرتها كانت عبارة عن مقدمات ونتائج ، أفحمت بها جدها ودفعته إلى الرضوخ إلى منطق الحق والإصاخة إلى صوت العدل .

ونلاحظ أن مناصحتها ومناظرتها خلت من السجع خروجاً على القاعدة المألوفة والعادة المتبعة في ذلك العصر ، وذلك أن الموقف موقف مناظرة ومجادلة ، والوقت ليس وقت صنعة أو زخرفة ، وإنما يحتاج إلى إبراز حقائق ناصعة تقنع الخصم بالبرهان والدليل .

الفصل الثاني

الوصف

الوصف عند العرب أكبر الفنون والأغراض التي تكلموا فيها ، وتفنونوا في الإبداع في وصف كل ما يقع تحت حسهم ، ويراه ناظرهم ، وتزخر به بيئتهم ، فوصفوا من الحيوان الإبل واقتنوا في ذلك بما لم تفقههم فيه أمة في وصف نفيس لديها ، ومن أبلغ وصاف الإبل : طرفة بن العبد .

كما وصفوا الخيل في ضروب خلقها وأحوال سيرها . ومن أشهرهم في ذلك امرؤ القيس وأبو دؤاد الإيادي ، ووصفوا منه أيضاً كواسر السباع ، وأوابد الوحوش ، وجوارح الطيور وصوادحها ، وخشاش الأرض وهوامها ، ووصفوا من النبات ضروريه وشيائها ، ومن السماء نجومها وكواكبها ، وسحابها ، وبروقها وأنواءها وأمطارها ، ومن الأرض سهلها وجبلها ، ومرابعها ومصايفها ، وخاصة الأطلال والديار والدمن ، وتعفية الرياح والأمطار لأثارها ، وشبهوها أحيانا برقم الكتب وصحائف الرهبان ، وبالوشم على ظاهر اليد ، وبالثوب الخلق أو المرقم ونحو ذلك .

ووصفوا أحوال الإنسان من ظعن وإقامة ، وقتال ونزال ومبارزة . كما وصفوا جماء المرأة وأخلاقها وطباعها ، والبارحات في هذا الفن : عصام الكندية وهند وجمعة بنتا الخس ، ونلاحظ أن وصفهن مستمد من البيئة وتشديدها من مستوحاة مما يقع تحت ناظرهن ، وتدركه حواسهن فجاء وصفاً طبعياً غير متكلف ، وكما يلمح الخاطر بلا مبالغة ولا إغراق ، ويتجلى ذلك كما سيأتي في قول (عصام) تصف جمال أم لياس « رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعر حالك

كأذئاب الخيل المضفورة ، فالتشبيهات مأخوذة من بيئتهم وما يشاهدونه في الصحراء من خيل ، ولابل ، وديار وأطلال ، وغناء الخائم ، ولمع البروق ، وهبوب النسيم إلى غير ذلك ، وقد جاء وصفهم فطرياً — كما قدمنا — غالباً من المبالغة المتعمدة التي تخرجه عن حد المألوف والمعقول ، فلم يتعمدن في وصفهم جناساً ، ولم يتكلفن طباقاً ، ولم يقصدن إلى تورية ، وما وقع ذلك من المحسنات ، على قلته ؛ فإنما كان عفواً لا نعهد فيه ، خلا بعضاً من سجع السكمان^(١) .

كما نلاحظ أن أسلوب الوصف عند المرأة ينجح إلى التفصيل ، والتحليل الذي قد يخفى على العين العابرة ، والإسهاب في ذكر أوصاف الموصوف كلما سنحت لها الفرصة ، وفي هذا الميدان استطاعت المرأة أن تظهر من الإبداع في الوصف والقدرة على تفصيل أوصاف الموصوف بما قصر عنه باع الأديب الوصاف في بعض الأحيان ؛ وحينما نقرأ وصف المرأة ندرك مدى دقة وصفها ؛ وبلوغها أوج البلاغة التي يعجز عن بلوغها الواصفون ؛ ويقف دون إدراكها المترسلون .

* * *

وصف عصام الكندية لأم إياد بنت عوف بن علف الشيباني :

لما بلغ الحارث بن عمرو ملك كندة جمال أم إياد بنت عوف بن علف الشيباني وكألفا وقوة عقلها ، أراد أن يتزوجها فدعا امرأة من كندة يقال لها عصام ذات عقل ولسان وأدب وبيان وقال لها : اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف ، فحضت حتى انتهت إلى أمها أمانة بنت الحارث فأعلمتها ما قدمت له فأرسلت أمانة إلى ابنتها وقالت : أي بنية ، هذه خالتك أتت إليك لتنظر بعض شأنك ، فلا تستري عنها شيئاً أرادت أن تنظر إليه ، من وجهه وخلق ، وناطقها فيما استتظنتك فيه . فدخلت عصام عليها فنظرت إلى ما لم تر عينها مثله قط ، بهجة وحسناً وجمالاً ، فإذا هي أكل الناس عقلاً وأفصحهم لساناً . فخرجت من عندها

وهي تقول : « ترك الخداع من كشف القناع ، فذهبت مثلاً » ، ثم أقبلت إلى الحارث فقال لها : « ما وراءك يا عصام ؟ » فذهبت مثلاً ، قالت : « صرح المخض عن الزبد » فذهبت مثلاً ، قال : أخبريني ، قالت : أخبرك حقاً وصدقاً : رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة ، يزينها شعر حالك ، كأذناب الخيل المضفورة ، إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته قلت عنقايد كرم سجلاها الواابل^(١) وحاجبين كأنهما مخطا بقلم ، أو سودا بحمم^(٢) قد تقوسا على عين الظبية العنبر^(٣) التي لم يرمعها فائض^(٤) ، ولم يذرها قسورة^(٥) ، بينهما أنف كحد السيف لاهة قول ، لم يخنيس به قصر^(٦) ولم يعض به طول ، حفت به وجنتان كالأرجوان^(٧) . في بياض محض كالجمان^(٨) مشق^(٩) فيه فم كالخاتم : لذيد المبتسم ، فيه ثنايا غر ذوات أشر^(١٠) ، وأسنان تبدو كالدرر ، وريق كالنسر له نشر الروض بالسحر يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان ، يحركه عقل وافر وجواب حاضر ، تلتقي دونه شفتان حراوان كالورد ، يجلبان ريقا كالشهد ، تحت ذلك عنق كإبريق الفضة ، ركب في صدر كصدر تمثال دمية^(١١) ، يتصل بها عضدان مثلثان لحماً ، مكتئزان شحماً ، وذراطان ليس فيهما عظم يُحس ، ولا عرق يُحس ، ركبت فيهما كفان ، دقيق قصبهما ، تعقد إن شئت منهما الأنامل وتركب الفصوص في حفر المفاصل ، وقد تربع في صدرها حقان ، كأنهما رماتنان ، يخرقان عليها ثيابها ، تحت ذلك بطن طوى كطى القباطى^(١٢) المدججة ،

-
- | | |
|---|---------------------------------|
| (١) المطر الشديد الضخم العطر . | (٢) اللحم : الفهم . |
| (٣) المبرة : الرقيقة البشرة الناعمة البياض . | (٤) لم يخنيس : لم يتأخر . |
| (٥) تقصد الرماة من الصيادين . | (٦) الأرجوان : صبغ أحمر . |
| (٧) الأنامل : الأصابع . | (٨) الجمان : اللؤلؤ . |
| (٩) التحزيز الذي فيها . | (١٠) الدمية : الصورة المزخرفة . |
| (١١) القباطى : ثياب كتان بيض كانت تعمل في مصر . | |

كسى عكناً^(١) كالقراطيس المدرجة^(٢) تحيط تلك العُكَن بِسُرَّة كسدهن^(٣) العاج المجلو ، خلف ذلك ظهر كالجدول ينتهى إلى خصر لولاحمة الله لا نبت ، تحتها كفل^(٤) يقعدها إذا نهضت وينهضها إذا قعدت كأنه دعص^(٥) رمل لبده سقوط الطل ، يحمله فخذان لفساوان^(٦) كأنهما نصيد الجبان ، تحتها ساقان خدلتان كالبردى^(٧) وشديماً بشعر أسود كأنه حلق الزرد ، يحمل ذلك قدمان كذو اللسان ، فتبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما ، فأما سوى ذلك فتركت أن أصفه غير أنه أحسن ما وصف واصف بنظم أو نثر . فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجه إياها^(٨) .

فأبدع وصف عصام الكندية ، وما أرق حديثها ، وما أجمل التشبيهات الجمانية التى تتخلل القطعة ، إن القطعة كما وصفتها عصام أبلغ ما وصفه واصف بنظم أو نثر ، وقد حشدت عصام فى هذه الخطبة حشداً من العبارات القوية الرنانة ، والألفاظ الضخمة والتشبيهات والاستعارات ، والتمثيل والصور ، فجاءت قطعة أدبية رائعة محكمة الصلابة والأسر .

وقد جرت كمعادة عصرها فى استخدام صنعة السجع فى غير ما تكلف ولا تطبع أو تصنع ، وأضفت على العروس أبهى آيات الصفات الخلقية والخلقية التى يندبها الرجل فى المرأة ، من جهة كالمراة الصقيلة وشعر حال كالكليل ، وحاجب كأنما خط بقلم ، وعين كعين الظبية الرقيقة ، وأنف كد

(١) العكن جمع عكنة (كفرصة) وهى ما انطوى ونثنى من لحم البطن سمنا .

(٢) المدرجة : المطوية . (٣) المدهن : قارورة الدهن .

(٤) كفل : عجز . (٥) الدعص : الكثيب من الرمل المجتمع .

(٦) اللفاء : الضخمة الفخذين . (٧) خدلة : ضخمة ، البردى : ورق البردى .

(٨) القند الفريد ٣-٢٣٥ ، وجمع الأمثال ٣-١٤٣ ، وجمهرة الأمثال .

٢-٢٧ ، نقلا عن كتاب جمهرة خطب العرب ج ١ : ١٤٤ .

السيف الصقيل ، ووجنات حمراء كالأرجوان ، وفم كالخاتم ، لذيذ الأقسام ،
وأسنان كاللؤلؤ وريق كالخمر ، نشره يملأ الدنيا مسكاً ووطراً إلى غير ذلك من
الصفات الخلقية ، وقد بلغت الغاية ، وأدبت على النهاية ، في وصفها خصر المرأة
بالضمور والنحول لدرجة أنه من شدة نحوله وضوره يكاد يبتتر ، وما أجمل
الاستعارة في قولها : يخرقان عليهما ثيابها ، وقولها : تحت كفله بقعدها إذا نهضت ،
وينهضها إذا قعدت ، ثم تتمجج في آخر القطعة كيف تطبق قدمها اللتان كخدو
اللسان حمل هذا الشيء الثقيل وتسير به ، وأظن أن هذه الصفات التي ساقها
عصام ، ربما تنطبق على ما كان مألوفاً ومرغوباً من المرأة في عصرها (من
غاظ الفخذين وامتلاء الذراعين والساقين ، وبطن مليء كسي ممكناً وتثنى من
لحم البطن سمناً) .

أما في عصرنا الحالي فالمرغوب في الفتاة ، القد الرشيق الذي يشبه القبطاى
المدججة والقرطيس المدرجة (كما حكى ذلك عصام) والبطن الذي تبرأ من
الشحم ، وليس الذي يتثنى من لحم البطن سمناً وقد وفقت عصام إلى حد ما في
وصف أوصاف المرأة الجسدية والخلقية ، أما الصفات الخلقية والنفسية
فأوجزتها في كلمات معدودات : لسان ذو فصاحة ، وبيان يحركه عقل وافر
وجواب حاضر ، وكأنما تشير إلى قول الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وبهذا اكتملت الصورة الخلقية والخلقية التي رسمتها عصام لأم إيأس
(العروس) فجاء لوحة فنية رائعة تخلب العقول وتأسر القلوب ، فلا غرو إذا
سارع الحارث بن عمرو إلى أبيها لخطبها فزوجه إياها (١) .

(١) في مجمع الأمثال وجمهرة الأمثال أن الذي تزوج أم إيأس هو الحارث
ابن عمرو والحارث هذا هو جد امرئ القيس وذكر صاحب العقد الفريد أن الذي

ومن حديث وصف المرأة أيضاً :

أن جمعة^(١) وهند^(٢) ابنتا الخس وافتا سوق عكاظ فاجتمعتا بين يدي القليس السكتاني . فقال لهما : إني سائلكما لأعم أيكما أبسط لساناً وأظهر بياناً وأحسن للصفة إقتاناً ، قالتا سلنا عما بدا لك ، فستجد عندنا عقولا زكية وألسنة قوية وصفة جليلة ، قال القليس : أي ذكور الخيل أحب إليك يا جمعة ؟

== تزوجها هو عمرو بن حجر . وأنها ولدت له الحارث بن عمرو جد امرئ القليس غير أننا نلاحظ أنه قال في مقدمة هذا الوصف : « ثم أقبلت عصام إلى الحارث فقال لها : ما وراءك يا عصام ؟ » ، فيفهم منه أن الذي تزوجها هو الحارث بن عمرو . يرجع إلى كتاب العقد الفريد ٦ / ٨٣ ، كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن .

(١) جمعة شاعرة من شواعر العرب وأديبة من أديبات العصر الجاهلي وكانت تتردد دائماً على سوق عكاظ فتعرض شعرها ونثرها على القليس السكتاني .

(٢) كما كانت أختها هند شاعرة وخطيبة ذات فصاحة وبلاغة وحكمة ، (راجع أعلام النساء ج ١ : ٢٠٦ و ج ٢ : ٢٣١ ، طبعة بيروت مؤسسة الرسالة) . وقد اختلف العلماء والمؤرخون في نسب هند وجمعة ، فمن قائل إنهما أختان وإنهما ابنتا الخس الإيادي ، ومن قائل إن هنداً هي ابنة الخس ، وأما جمعة فابنة حابس ، وهما جميعاً حكيمتان يضرب بهما المثل في جلال الحكمة وحسن البيان وفيهما يقول الجاحظ : من أهل الدهاء ومن أهل اللسن واللقن ، والجواب العجيب والكلام الصحيح والأمثال السائرة والمخارج العجيبة هند بنت الخس وهي الزرقاء وجمعة بنت حابس والقليس سيد من سادات كنانة ، وحكيم من حكائمه وكاهن من كهان العرب ، وبما عرف عنه أنه كان ينسأ الشهور فيحل حرامها ويحرم حلالها وفيه تقول هند بنت الخس :

إذا الله جازى منما بوفائه لجازاك عني يا قليس بالكرم

المرأة العربية ج ١ : ١٧٨ .

انظر البيان والتبيين — نسخة خطية من ٨٨ — ٩٠

قالت أحب المنسوب جدّه^(١) ، الأسيل خده^(٢) ، السريع شده^(٣) ، الطويل مدّه^(٤) ، الشديد هدّه^(٥) ، الجميل قده .

ثم قالت هند : هذا فرس خليك إن طاب لم يلاحق ، وإن جوردى لم يسبق ، وإن بوهى لم ينفق ، وغيره أحب إلىّ منه . قال القلس . فقولى :
قالت : أحب الوثيق الخلق^(٦) الكريم العرق ، الكثير السبق ، الشديد الذاق^(٧) ، يمر من البرق .
قال القلس :

فأى إناث الخيل أحب إليك يا جمعة ؟ قالت : أحب كل حيية الفؤاد ، سموح جواد ، سلسلة القياد ، شديدة الاعتدال ، فى الدفع والاشتداد ، ذات هباب وثماد^(٨) .

قال القلس كيف تسمعين يا هند ؟

قالت : هذه فرس صاحبها خليك ألاّ يفوته أمر ، ولا يهوله ذعر ، إذا شاء كرك ، وإذا هاب فر ، وغيرها أحب إلىّ منها .
قال : فقولى : أحب الشديد أسرها^(٩) ، البعيد صبرها ، القليل

(١) أى الذى ينهى نسبه إلى جواد كريم وكانت العرب تعزى بأنساب خيلها وتحفظها كما تحفظ أنساب الرجل ، راجع أنساب الخيل .

(٢) الأسيل خده أى أنه يطويل مسترسل .

(٣) شده : أى سريع عذره . (٤) مدّه ، المد : بسط الجسم وارتفاعه .

(٥) هدّه : هد الفرس يضرب الأرض بحوافره .

(٦) الكريم العرق ، المحكم التكوين .

(٧) الذلق : ذلق كل شيء سدة ومضاؤه .

(٨) الهباب : النشاط فى الأرض ، والثماد الحفر فى الأرض .

(٩) الأسر : قوة الجسم وإحكام الخلق .

فترها ، الجليل قدرها ، السريع مرها ، المخوف كرها .
قال القلمس : كلتا كما محسنة . فأى ذكور الخيل أبغض إليك يا جمعة ؟
قالت : أبغض كل بليد ، وادم الوريد^(١) ذا ركال شديد^(٢) لا ينجيك
هارباً ، ولا تظفر به طالباً ، ولا يترك شاهداً ولا غائباً .

قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟
قالت : هذا فرس إمساكه بلاء ، وعلاجه عناء ، وركوبه شقاء ، وغيره
أبغض إليّ منه .

قال فقولى : قالت هند : أبغض السريع البُسر^(٣) ، البطيء الحصر^(٤)
السكيت الطفر^(٥) . قال القلمس : كلتا كما محسنة .

فأى النساء أحب إليك يا جمعة : قالت أحب الغريرة^(٦) العذراء الرعوبة
العيطاء^(٧) المسكورة ، اللفاء^(٨) ، ذات الجبال والبهاء ، والستر والحياء ، البضنة^(٩)
الرخصة كأنه فضة بيضاء .

قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟
قالت : وصفت جارية ، هى حاجة الفتى ، ونهية الرضا ، وغيرها أحب
إلى منها ، قال فقولى : قالت أحب كل مشبعة الخلخال ، ذات شكل ودلال ،
وظرف وبهاء وجمال .

-
- (١) الوريد : عرق فى العنق . (٢) الركال : ضربك الفرس برجلك ليعدو .
(٣) البسر : انقطاع النفس . (٤) الحصر : الانحباس عن السير .
(٥) السكيت الطفر : الفرس العاشر من خيل السباق وهو آخر خيل الحلبة .
(٦) الغريرة : الطيبة القلب .
(٧) الرعوبة : الفتاة البيضاء الحلوة العيطاء : طويلة العنق .
(٨) المسكورة : الممتلئة الساقين فى بياض ولين ، واللفاء السميكة الطويلة .
(٩) البضنة الرخصة ، المرأة اللينة الممتلئة .

قال القلمس : كلنا كما محسنة فأى النساء أبغض إليك يا جمعة ؟

قالت أبغض كل سافع بذية ^(١) جاهلة غبية حريصة دنية ، غير كريمة ولا سرية ^(٢) ، ولا ستيرة ولا حبية ، قال : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : وصفت امرأة صاحبها خليق ألا تصالح له حال ، ولا ينعم له بال ولا يثمر له مال وغيرها أبغض إلى منها ، قال فقولى : قالت أبغض المتجرفة الشوها ^(٣) ، المنفوخة الكبداء ^(٤) المنفص الوقصاء ^(٥) الحشمة الزلاء ^(٦) التى إن ولدت لم تنجب ، وإن زجرت لم تعتب ، وإن تركت طفقت تصخب .

قال القلمس : كلنا كما محسنة ، فأى الرجال أحب إليك يا جمعة ؟

قالت : الحر النجيب ، السرى القريب ، السمع الحسيب ، الفطن الأريب ، المصقع الخطيب ، الشجاع المهيب .

قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟

قالت : وصفت رجلاً شجاعاً ، سيّداً جواداً ينهض إلى الخير مساعداً ، ويسرك غائباً وشاهداً ، وغيره أحب إلى منه ، قال فقولى : قالت أحب الرحب الذراع ، الطويل الباع ، السخى النفّاع ، المنيع الدفاع ، الدهمى ^(٧) المطاع ، البطل الشجاع الذى يحمل باليفاع ^(٨) ويهين فى الحمد المتاع .

(١) السّلفَع من النساء : الشديدة الصخب السيئة الخلق .

(٢) السرية : الشريفة . (٣) المتجرفة : الشديدة الهوال .

(٤) المنفوخة : المقتسمة البطن ، والكبداء المرأة الضخمة الوسط البهيمية المشى .

(٥) المنفص : المرأة البذيئة القليلة الحياء ، القليلة الجسم الكثيرة الحركة ، والكثيرة الاختيال والمنفص والوقصاء : القصيرة العنق .

(٦) الحشمة : القليلة اللحم ، الدقيقة الساق والزلاء : الخفيفة الوركين .

(٧) الدهمى : الكريم .

(٨) اليفاع : المرتفع من الأرض وإنما يحمل بها حتى يرى السائرون ناره فيسرعون

إليه لكرمه ونجدته .

قال : كلتا كما محسنة ، فأى الرجال أبغض إليك يا جمعة ؟ قالت :
أبغض السائلة اللثيم ، البغيض الزنيم^(١) الأشوه الدميم ، الظاهر المصوم^(٢)
الضعيف الحيزوم^(٣) قال : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : ذكرت رجلاً
خطره صغير ، وخطبه يسير ؛ وعيبه كثير وأنت ببغضه جدير ؛ وغيره
أبغض إلى منه .

قال فقولي : قالت : أبغض الضعيف النخاع^(٤) ، القصير الباع ، اللاحق
المضياع الذى لا يكرم ولا يطاع ، فقال أحسنهما ، وأجملهما فبارك الله فيكما ،
ووصلهما وحباهما^(٥) .

وقد وفقت الأدببتان أيما توفيق في وصف الخيل ذكورها وإناثها ،
وأحبها وأبغضها وصفاً يقصر عنه الخيال معددتين مآثر ومكارم الخيل
في غدواته وروحاته وكيف أنه في سبقه كأنه يمر من البرق في خفة ونشاط
وحدة ومضاء ، كما حذرا من الفرس المتبذل ، المنتفخ الوريد الذى لا يسير
إلا بعد ركل شديد ، كما أنه لا يسر صاحباً ، ولا ينحى هارباً ، ولا يترك
شاهداً ولا غائباً .

كما وفقت الأدببتان في وصف النساء أحسن وأبغضهن إلى القلوب في لوحة
فنية بادرة ترسم صورة ناطقة لما يجب أن تكون عليه المرأة خالقاً وخلقاً ،

(١) والزنيم : الشرير .

(٢) المصوم : بقايا الخضاب .

(٣) الحيزوم : الصدر أو وسطه وضعفه كناية عن الحق وضيق الأفق .

(٤) تريد بالضعيف النخاع : العاجز الذى لا يستطيع حولا ولا طولا .

(٥) راجع كتاب بلاغات النساء ص ٥٨ : ٦٢ ، بغداد ١٣٦١ هـ ، وانظر

المرأة العربية ج ١ ص ١٧٨ : ١٨١ الطبعة الأولى ١٩٢١ م .

وقد قدمت لنا في باب وصف النساء طاقة موفقة فيمنانة في رياض الأدب ،
وشجرة مودقة في حدائق البيان ، وجدولا فياضاً في بحار الحكمة المادفة في
طراز جزل متين وأسلوب خلاب رصين يعجز عن وصفه المنشئون ويقصر
عن بلوغه السكتاب والمنرسلون .

* * *

وفي رواية أخرى ذكر صاحب كتاب الأمالى أن رجلاً أتى هند بنت
النخس^(١) الإيادية يستشيرها في امرأة يتزوجها ، فقالت :

انظر رمكاه جسيمه^(٢) أو بيضاء وسيمه في بيت جد ، أو بيت حد ، أو بيت
عز ، قال : ما تركت من النساء شيئاً ؟ قالت بلى : « شر النساء تركت : السويداء
المعراض^(٣) والخيراء المحياض^(٤) ، الكثيرة المظاظ^(٥) وقيل لها أى النساء أسوأ ؟
قالت : « التى تقعد بالفناء وتملأ الإناء وتمذق^(٦) ما فى السقاء ، قيل : فأى النساء
أفضل ؟ قالت : التى إذا مشيت أغشيت^(٧) وإذا نطقت صرصرت^(٨) متوركة
جارية فى بطنها جارية تتبعها جارية ، قيل : فأى الغلمان أفضل ؟ قالت : الأسوق
الاعنق^(٩) الذى إن شبَّ كأنه أحرق ، قيل فأى الغلمان أفسل ؟^(١٠) قالت :
الأويقص القصير العنق^(١١) العظيم الخاوية^(١٢) ، الأغير العشاء الذى يطابع
أمه ، ويعصى عمه ،^(١٣) .

(١) انظر ترجمتها السابقة ص ٢٠ .

(٢) الرمكاه : السمراء والرمكة كحمرة لون الرماد .

(٣) المعراض التى تمراض كثيراً . (٤) الكثيرة الحيض .

(٥) المظاظ ، منازعتها ومشادتها زوجها . (٦) تمذق : تخرج .

(٧) أغشيت : أثار الغبار فى مشيتها . (٨) صرصرت : أحدثت صوتها .

(٩) الأسوق : الطويل الساق ، والاعنق الطويل العنق . (١٠) الأفسل : الأرض .

(١١) الأويقص : تصغير أو قص وهو من يدنو رأسه من صدره .

(١٢) الخاوية : المعدة . (١٣) انظر الأمالى ج ٢ : ٢٦٠ .

وقيل لها أى الرجال أحب إليك ؟ قالت : السهل النجيب ، السمع الحسيب
الندب الأريب^(١) السيد المهيّب ، قيل لها : فهل بقي من الرجال أفضل من هذا ؟
قالت بلى الأهيّف الهفوف^(٢) الأنف العياف ، المفيد المتلاف ، الذى يخيف
ولا يخاف ، قيل لها فأى الرجال أبغض إليك ؟ قالت الأورده الشوم^(٣) الوكل
الستوم ، الضعيف الحيزوم اللثيم الملوم ، قيل لها فهل بقي أحد شر من هذا ؟
قالت نعم : الأحق النزاع الضائع المضاع الذى لا يهاب ولا يطاع . قالوا :
فأى النساء أحب إليك ؟ قالت : البيضاء العطرة ، كأنها ليلة قرة . قيل :
فأى النساء أبغض إليك ؟ قالت : المنفص القصيرة التى إن استنطقها سكنت
وإن سكنت عنها نطقت^(٤) .

وقال لها أبوها يوماً : أى المال خير ؟ قالت : النخل الراسخات فى الوحل ،
المطعمات فى الحبل . قال وأى شيء ؟ قالت : العنّان قرية لا وهاب بها ، تلتجها
رجالاً^(٥) وتعلمها عللاً^(٦) وتجزّأها جُفلاً^(٧) ولا أرى مثلها مالا ،
قال : فالإبل مالك تؤخر عنها ؟ قالت : هى أذكّار الرجال ، وإدقاء الدماء ،
ومهور النساء ، قال : فأى الرجال خير ؟ قالت :

خير الرجال المرحقون كما خير تلاع البلاد أو طوها^(٨)

(١) الندب : الخفيف فى الحاجة والظريف والتجيب .

(٢) المراد به رقة الخاصرة ونحوها . (٣) الأورده : الأحمر .

(٤) ذيل الأمالى : ١٢٠ .

(٥) الرجال : جمع رخل كحمل وكنف وهو الأنثى من أولاد العنّان .

(٦) عللاً يقال عالت الناقة وهى أن تملب أول النهار ووسطه وآخره ، والاسم
علال ككتاب .

(٧) الجفّال : الكثير من الصوف .

(٨) المرحق : الرجل الذى يغشاه الناس .

قال أيهم ؟ قالت : الذى يُسأل ولا يسأل ، ويضيف ولا يضاف ، ويصلح ولا يصلح ، قال : فأى الرجال شر ؟ قالت : د الثطيط النطيط^(١) الذى معه سُوَيْط^(٢) الذى يقول أدركونى من عبد بنى فلان فأنى قاتله أو قاتلى ، قال فأى النساء خير ؟ قالت التى فى بطنها غلام ، ويجلس على وركها غلام ، ويمشى وراءها غلام ، قال فأى الجمال خير ؟ قالت السَّبَّحَل الرَّجَل^(٣) الراحلة الفحل قال : أرأيتك الجذع^(٤) ، قالت : لا يضرب ، ولا يدع ، قال : أرأيتك الثنى^(٥) قالت : يضرب وضرا به أنى^(٦) قال أرأيتك السَّدَس^(٧) قالت : ذاك العرس^(٨) .

(راجع ذيل الأمالى)

وقيل لها أى الخيل أحب إليك ؟ قالت : ذو الميعة الصنيع^(٩) ، السايط التسليع^(١٠) الأيْد الضليع^(١١) الملهب السريع . فقيـل لها أى الغيوث أحب إليك ؟ قالت ذو الهيدب المنبعق^(١٢) ، الأضخم المؤتلق^(١٣) ، الصنخب المنبثق^(١٤) ، وقيل لها ما مائة من المعز ؟ قالت : مويل يشف الفقر من ورائه ،

(١) الثطيط الذى لا حية له ، والنطيط كثير الكلام يأتى بالخطأ والصواب من غير معرفة .

(٢) سويط : تصغير سوط . (٣) السَّبَّحَلُ الرَّجَل : البعير الضخم .

(٤) أرأيتك : أخبرنى ، الجذع : البعير يكون فى السنة الخامسة .

(٥) الثنى : البعير يكون فى السادسة وألقى ثنيته . (٦) والصواب أنى : أى بلى .

(٧) السدس : البعير إذا كان فى الثامنة . (٨) العرس : الأسد .

(٩) تقول ماع الفرس يبيع إذا جرى ، وصنعة الفرس : حسن القيام عليه

والصنيع ذلك الفرس . (١٠) السليط : الشديد ، والتليع : الطويل العنق .

(١١) الأيد : القوى ، والضليع وصف من ضلع كفضع ضلالة ، وهى القوة

وشدة الأضلاع . (١٢) الهيدب : السحاب المتدلى والمنبعق : الملى بالمطر .

(١٣) المؤتلق من أثلق البرق إذا لمع .

(١٤) والصنخب : شدة الصوت ، المنبثق : المتفجر

مال الضعيف ، وحرقة العاجز ، قيل فما مائة من الضأن ؟ قالت : « قرية لا حمى بها ، قيل : فمسا مائة من الإبل ؟ قالت : بنخ^(١) جمال ومال ، ومنى الرجال ، قيل : فما مائة من الخيل ؟ قالت : طغى من كانت له ولا يوجد ، قيل فما مائة من الخمر ؟ قالت طازبة الليل^(٢) لا ابن فيحلب ولا صوف فيجز ، إن ربط (غيرها) أدل^(٣) وإن ترك ولى ، وقيل لها : من أعظم الناس في دينك ؟ قالت : من كانت لى إليه حاجة . (سرح العيون ١٨٤)

وقالت هند : « أخبث الذئاب ذئب الغضا^(٤) وأخبث الأفاعى أفعى الجذب ، وأسرع الطباء طباء الحلب^(٥) وأشد الرجال الأعرج^(٦) ، وأجل النساء الفخمة الأسيلة^(٧) ، وأقبح النساء الجمجمة القفيرة^(٨) وآكل الدواب

(١) بنخ كقند أى عظم الأمر ، وبختم يقال وحدها وتكرر بنخ بنخ الأول منون مكسور ، والثانى مسكن ، ويقال فى الافراد بنخ ساكنة الخاء وبنخ مكسورة وبنخ منونة مضمومة ، ويقال بنخ بنخ مسكنين وبنخ بنخ منونين مكسورين وبنخ بنخ مكسورين مشددين منونين وهى يقال عند الرضا والإعجاب بالشئ .

(٢) يقال حمل طازب أى لا يروح على الحمى من الغروب وهو الغيبة والذهاب وقولها (خرى المجلس أى بما تحدثه من التهيق المزعج) .

(٣) الإدلاء : أى أخرج قضيبه ليبول ، العير : الحمار .

(٤) الغضا : شجر له جمر يبق طويلا .

(٥) الحلب : نبت ، قال حمزة : العرب تسمى ضروبا من البهايم بضروب من المراعى تنسبها إليها فيقولون : ظبي الحلب وتيس الرّيلة (نبات شديد الخضرة) وشيطان الخاططة (والخطاطة كسحابة . شجر شبيهة بالتين وهو أحب شجر لى الحيات) .

(٦) العجف بالتحريك ذهاب السمن . (٧) الطويلة المسترسلة .

(٨) الجمجمة مؤنث الجمهم : الوجه الغليظ المجتمع السمع والقفرة : القليلة القفصر وهو الشعر .

الرغوب^(١) وأطيب اللحم عوذه^(٢)، وأغلظ المواطيء الحصى على الصفا،
وشر المال ما لا يذكر ولا يزكسى^(٣) وخير المال سكة مأبورة^(٤) أو مبرة
مأمورة^(٥). (راجع مجمع الأمثال : ١٧٤)

وقد جاءت لغة « هند » مسجوعة بحكمة الصنعة في السجع وهي تشبه أسلوب
السكاهيات إلى حد بعيد ، ولعل هند تعلمت السجع في هذا المقام إذ رأته
ضرورياً يساعدها على تحقيق غرضها المنشود وهو إعجاب السامعين بها ، لأن
للسجع رنيناً موسيقياً ، ووقفاً جميلاً مؤثراً في النفس ، تجذب موسيقاه قلوب
السامعين ، وتملك عواطفهم وتغدر وعيهم ، وتهدئهم بما تزعم أنها طالمة به
ومحيطة بمعرفته إحاطة السوار بالمعصم ، فيسمع الناس قولها ويذعنون لإياه
مصدقين بما يقول غير متبصرين في نقد ما يسمعون وتقصى معانيه .

كما نلاحظ أنها تميل إلى الغموض والغرابة ، ولعلها تعلمت في ذلك أيضاً
ليذهب الناس في كلامها مذاهب متشعبة ، وطرائق مختلفة ، وفي هذا ما يضفي
على مكانتها الاجتماعية الاحترام والتقدير والإكبار والإجلال ، وهذا ما يهر
المرأة ويرضى غرورها :

خـدعوها بقولهم حسناء والغواني يفرهن الثناء
والنقد الذي يوجه إلى هند أنها ركزت على الماديات أكثر من المعنويات

(١) الرغوب : كل مرضعة . (٢) العوذ ما عاز باللحم من العظم .

(٣) زكى كرضى نا وزاد كركا يزكو . وذكى تذكية : سمين

(٤) المأبورة : المستصلحة من أبرت النخل إذا لقحته وأصلحته .

(٥) مأمورة : أى كثيرة الولد .

والرواية هنا (في معرض حديث هند وجمعة ابنتي الخس غير الرواية التي
أوردنا فيما مضى عن كتاب بلاغات النساء ، وأثبتناها إتماماً للفائدة) .

وأهتمت بالمظهر دون الجوهر لأن المرأة بطبيعتها مواءمة بالزينة وبالمظهر الخلاب وتغرها الظواهر وإن ساء المخبر فالجواهر الزائفة الحسنة الشكل المنسجمة ؛ ففي وصفها المرأة مثلاً ركزت على ما تتمتع به المرأة من محاسن جسدية ، وصفات أنثوية كأن تكون بيضاء أو سمراء ومن بيت مشهود له بالمجد ، وأسوأ امرأة عندها هي السويداء الممراض ، والحجيرات المحياض الخ .

وكنا نتوقع أن تهتم بالمعنويات أكثر من هذا كأن تكون المرأة المختارة محنكة واعية ، وعلى قدر كبير من الدراية والمعرفة كفاطمة بنت مر الخثعمية ، والشفاء بنت عبد الله ابن عبد شمس القرشية العدوية وغيرهما ، واسكن يبدو أن طبيعة البيئة وطبيعة العصر كانت تقتضي ذلك ، فلم تكن هناك مدارس يتردد عليها الناس ليتعلموا ولم تكن ثمة حاجة تستدعي أن يتعلم النساء وأن تثقف الفتيات لأن الحكم الغالب على الناس شيوع الأمية .

ومثل هذا يقال في وصفها للبال والجمال والخيل والذئاب والظباء ، فكلها أوصاف مستوحاة من البيئة العربية ، وهي وإن كانت بارعة إلا أنها لم تكن تبلغ دقة الوصافين الحضريين فضلاً عن الأدباء الذين عاشوا معهن في البيئة نفسها فإنهم حلقوا في هذا الفن وجالوا في الوصف جولات فوصفوا الطبيعة الناطقة والطبيعة الصامتة ، والطبيعة الحية والمتحركة ، (١) .

* * *

وبما يجرى مجرى هذا الوصف قول ماوية امرأة حاتم :
أصابتنا سنة أقشعرت^(٢) لها الأرض ، واغبر^(٣) أفق السماء ، وراحت
الإبل حـدباً حدابير^(٤) ، وضلت المراضع على أولادها فسا تبض^(٥)

(١) المرأة في الشعر : ١٦٤ . (٢) أقشعرت الأرض : أقحلت .

(٣) الحدب : جمع أحذب ، وهو ما دخل صدره وخرج ظهره ، ولما تظهر الإبل كذلك إذا اشتد بها الجوع لا يحال المراضع . والحدابير : جمع حدبار — بكسر الحاء — وهي الناقة الضامرة أو التي ذهب سنامها . (٤) تبض : تسيل .

ببطرة ، وحلقت السنة^(١) المال ، وأيقنا بالهلاك . فوالله إنا لنى ليلة صنب^(٢) بعيدة ما بين الطرفين ، إذ تضاعى^(٣) صبيتنا جوعاً ، عبد الله وعدى وسفانة . فقام حاتم إلى الصبيين ، وقت أنا إلى الصبية . وأقبل يملأنى بالحديث ؛ فعرفت ما يريد ، فتناومت ، فلما تهورت^(٤) النجوم ، إذا شيء قد رفع كسر البيت^(٥) ثم عاد . فقال حاتم : من هذا ؟ قالت : جارتك فلانة ، أتيتك من عند صبية يتعاونن عواء الذئاب ، فما وجدت معولاً إلا عليك يا أبا عدى . فقال : أعجلهم فقد أشبعك الله وإياهم ! فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى جنابها أربعة ، كأنها نعمة حولها رمالها^(٦) . فقام حاتم إلى فرسه فوجأ^(٧) لبسته بمدية نحر . ثم كشطه عن جلده ، ودفع المدية إلى المرأة ، فقال لها : شأنك ! فاجتمعنا على اللحم المشوى نأكل . ثم جعل يمشى فى الحى يأتهم يبتأ يبتأ فيقول هبوا أيها القوم ، عليكم بالنار ، فاجتمعوا . والتفّع فى ناحية ينظر إلينا . فوالله ان ذاق منه منعة^(٨) وأنه لأحوج إليه منا . فأصبحنا وما على ظهر الأرض من الفرس إلا عظم وحافر . فأنشأ حاتم يقول :

مهلاً نوارِ أفلسى اللوم والمذلاً ولا تقولى لشيء فات ما فعلاً
ولا تقولى لمال كنت مهلاً مهلاً وإن كنت أعطى السهل والجبل
يرى البخيل سبيل المال واحدة إن الجواد يرى فى ماله سبلاً^(٩)

-
- (١) التحليق : وجع يصيب الخلق وتلك كناية بديعة عن الفقر والمسغبة ، تقول : أن المال من إبل وخيل ومال انقطع صوته .
(٢) ليلة صنب : باردة شديدة الريح .
(٣) تضاعوا : تصايحوا .
(٤) تهورت : انحدرت إلى المغرب .
(٥) السكسر : الشقة السفلى من الخباء .
(٦) الرئال — جمع رال — أولاد النعام . (٧) وجأ : قطع .
(٨) ان نافية بمعنى ما والمزعة القطعة من اللحم .
(٩) العقد الفريد ج ١ ص ١٠٨ والميلدانى .

وأمرأة حاتم تصور لنا في هذه الباقية الثرية كرم هذه العائلة الحاتمية فقد ضربت المثل الأعلى في الجود والكرم (لأن الكرم وإن اشتهر به العربي إلا أنه في رأي كان كرمًا محدوداً بدليل أنه لم يشتهر به في الجزيرة العربية كلها إلا حاتم وعائلته) .

فلقد كانت غنية بنت عفيف أم حاتم الطائي من أسخى النساء وأقراهن للضيف وكانت لا تمسك شيئاً تملكه ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ومنعوها مالها ، ومكثت دهرًا لا تنال شيئاً مما تملكه ، حتى إذا ظن إخوتها أنها قد وجدت ألم الحاجة وارعوت أعطوها صرمة من إبلها فجاءتها امرأة من هوازن تسألها ، فقالت لها دونك هذه الصرمة تخفيها فقد والله مسنى من ألم الجوع ما آليت معه ألا أمنع الدهر سائلاً شيئاً ثم أنشدت :

لعمري إني عضنى الجوع عضه	فما آليت إلا أمنع الدهر جائعاً
فقلوا لهذا اللاتمى اليوم اعفى	فإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا
فإذا عسيتم أن تقولوا لاختمكم	سوى عدلكم أو عدل من كان صانعا
وماذا ترون اليوم إلا طبيعة	فكيف بتركي يا ابن أم الطبايعا

وكانت سفانة بنت ابنها حاتم بكبتها وأبها في الجود ، وكان أبوها يعطيها الصرمة من الإبل فتحبها كلها ؛ فقال لها أبوها ، يا بنية : إن الغويين إذا اجتمعوا في المال أنلفاه فإما أن أعطى وتمسكى ، وإما أن أمسك وتعطى ، فقالت : والله لا أمسك أبداً ، فقال : وأنا والله ما أمسك أبداً ، قالت : فلا نتجاوز فقاسمها ماله وتباينا^(٢) .

(١) ذيل الأمالى ٢٣ وانظر المرأة العربية والمرأة في الشعر الجاهلى ٣٦٢ .

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة .

— ٤ —

ونأخذ من الآيات التي تمثل بها حاتم :

مهلاً نوار أفل اللوم والعدلا (الآيات)

أن المرأة العربية كانت ضنيئة بمال زوجها حريصة عليه وليس من الصواب أن يدعى الرجل أنها لامته على الكرم وأنه خالفها . ليتخذ من ذلك ذريعة إلى تعظيم نفسه ، لأن هذا التخيل منقصة له ، إذا كان الشعراء صادقين في تصويرهم للوم النساء على الجود ، وربما كان هذا ممن حرصاً على مال الزوج وربما كان بخلاً ، وهذا لا ينفي أن بعضهن كريمات وإن كن قليلات .

ولعل السر في تفوق الرجال على النساء في الكرم أن الرجل أكثر اختلاطاً بالمجتمع من المرأة ، وأكثر تعارفاً بالناس منها ، وتضطرها الظروف في بعض الأحيان إلى السفر والترحال — بحكم عمله — وقد تهره بعض أهاده يقوم بها نحوه بعض الناس لتكريمه ، وهذا لا بد أن يشكر هذه الأيادي بضرب أمثلة أكثر كرمياً وأريحية ، أما المرأة فهي قليلة الاحتكاك إذ هي متفرغة لبيتها الذي تود أن تدعمه بكل ما أوتيت من ثروة وترى إنفاق شيء منها في الكرم يهدد بيتها ويفلس ميزانيتها ، كما عرفت المرأة بحسن التدبير ورعاية المال من قديم الزمان ، والرجل قد يغفل عن كل هذه الأمور أحياناً فلا يهتم إلا لإرضاء إخوانه والظهور أمامهم بمظهر حاتم الطائي .

* * *

ولما فارق رسول الله ﷺ مكة مهاجراً إلى المدينة ، وخرج معه صاحبه أبو بكر ورائده عبيد الله بن أبي قحط ، فمروا على خيمة أم معبد — وكانت امرأة برزة جلدة تحبتي بفناء السكبة ، ثم تسقى وتطعم — فسألوها لحماً وتمراً ليشتروهن ، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك . وكان القوم من ملين مسنتين^(١)

(١) مسنتين : أي أصحابهم القحط .

فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى شَاةٍ فِي كَسْرِ الْحَيْمَةِ ، فَقَالَ : مَا هَذَا يَا أُمَّ مَعْبُدٍ ؟
 قَالَتْ : شَاةٌ خَلَقَهَا الْجَهْدُ عَنِ الْغَنَمِ . قَالَ : هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ ؟ قَالَتْ : هِيَ أَجْمَدُ
 مِنْ ذَلِكَ . قَالَ : أَتَأْذِنِينَ لِي أَنْ أَحْلِبُهَا . قَالَتْ : بَابِي وَأُمِّي أَنْتَ نَعَمْ ، إِنْ رَأَيْتَ
 بِهَا مِنْ حَلَبٍ فَاحْلِبْهَا . فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالشَّاةِ فَسَحَّ ضَرْعَهَا وَسَمَّى اللَّهَ وَدَعَا
 لَهَا فِي شَاتِهَا . فَتَنَاجَسَتْ ^(١) عَلَيْهِ وَدَرَّتْ وَاجْتَرَّتْ ، وَدَعَا بِإِنَاءٍ يَرَبُّهُ ^(٢)
 الرَّهْطُ ، فَحَلَبَ فِيهِ ثَمَجًا حَتَّى غَلِبَهُ الثَّمَالُ ^(٣) ثُمَّ سَقَاهَا حَتَّى رَوَيْتَ وَسَقَى
 أَصْحَابَهُ حَتَّى رَوَوْا . ثُمَّ شَرَبَ آخِرَهُمْ . وَقَالَ : سَاقَى الْقَوْمِ آخِرَهُمْ ، فَشَرَبُوا
 جَمِيعًا عِلَاقًا ^(٤) بَعْدَ نَهْلٍ . ثُمَّ أَرَاضُوا ^(٥) . ثُمَّ حَلَبَ فِيهِ ثَانِيًا عَوْدًا عَلَى بَدَنِ
 حَتَّى مَلَأَ الْإِنَاءَ . ثُمَّ غَادَرَهُ عِنْدَهَا وَبَايَعَهَا وَارْتَحَلُوا عَنْهَا فَقُلَّ مَا لَبِثَتْ حَتَّى جَاءَ
 زَوْجُهَا أَبُو مَعْبُدٍ يَسُوقُ أُعْزَأَ حُسَيْلًا عَجَافًا ^(٦) هَذَا لَمْ يَخْشَنَ قَلِيلٌ ^(٧)
 وَلَا نُسْقًا ^(٨) بِهِمْ . فَلَمَّا رَأَى أَبُو مَعْبُدٍ اللَّبَنَ عَجِبَ وَقَالَ : مَنْ أَيْنَ هَذَا يَا أُمَّ مَعْبُدٍ ،
 وَالشَّاةُ عَازِبَةٌ حَيْيَالٌ ، وَلَا حَلُوبَةَ فِي الْبَيْتِ ؟ فَقَالَتْ : لَا وَاللَّهِ ، إِنَّهُ (مَرْبُوءٌ) رَجُلٌ
 مُبَارَكٌ كَانَ مِنْ حَدِيثِهِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ قَالَ : صَفِيهِ لِي يَا أُمَّ مَعْبُدٍ . فَقَالَتْ :

رَأَيْتَ رَجُلًا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ ، أَبْلَجَ ^(٩) الْوَجْهَ ، حَسَنَ الْخَلْقِ ، لَمْ تَعْسِبْهُ

-
- (١) تَنَاجَسَتْ : سَالَتْ .
 (٢) يَرَبُّهُ الرِّهْطُ : يَكْفِيهِمْ أَمْدًا
 (٣) الثَّمَالُ — بِكَسْرِ التَّاءِ — جَمْعُ ثَمَالَةٍ — بَضْمُهَا — مَا يَعْلُو اللَّبَنَ مِنَ الرِّغْوَةِ
 (٤) إِذَا اسْتَقَى الْإِنْسَانُ مَرَّتَيْنِ فَالْأُولَى النَّهْلُ وَالثَّانِيَةُ الْعَلْلُ .
 (٥) أَرَاضُوا أَيْ شَرَبُوا مَرَّةً أُخْرَى .
 (٦) حَيْيَالٌ : جَمْعُ حَائِلٍ وَهِيَ الَّتِي انْقَطَعَتْ عَنِ الْحَمْلِ ، وَعَجَافٌ : جَمْعُ عَجْفَةٍ
 — بِكَسْرِ الْجِيمِ — وَهِيَ الْمَهْزُولَةُ .
 (٧) قَلَّةُ الْمَخِّ كُنْيَاةٌ عَنِ الضَّعْفِ وَالْهَزَالِ .
 (٨) النُّسْقَا : جَمْعُ نَقَاوَةٍ — بَضْمُ النُّونِ — وَهِيَ الْخِتَارُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .
 (٩) وَجْهٌ أَبْلَجٌ وَضَاءٌ آخَرٌ .

٤٢ -

شَجَلَةٌ^(١) ولم تَزُرْ به صُفْقَةٌ^(٢) ، وسِجَا قَسِيماً ، في غَيْلِيهِ كَدَحَجٍ^(٣) ، وفي
أَشْفَادِهِ وَطَفٍ^(٤) ، وفي صَوْتِهِ صَحْلٍ^(٥) ، وفي عُنُقِهِ سَطْعٍ^(٦) ، وفي لَحْيَتِهِ
كَثَاثَةٌ . أَحْوَرٌ^(٧) ، أَكَلٌ ، أَزَجٌّ ، أَقْرَنٌ^(٨) . إن صَمَتَ فَعَلِيهِ الْوَقَارُ ، وإن
تَسْكَمَ سَمَاءَ وَعِلَاهُ الْبَهَاءُ ، فهو أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَامُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَأَحْلَامُ وَأَحْسَنُهُمْ
مِنْ قَرِيبٍ ، حَلَوُ الْمُنْطَقِ ، فَصْلٌ ، لَا نَزْرٌ وَلَا هَذَرٌ^(٩) ، كَانَ مِنْطَقُهُ خَرَزَاتٍ
نَظْمٌ يَتَحَدَّرْنَ ، رُبْعَةٌ ، لَا تُشْنَأُ مِنْ طَوْلٍ ، وَلَا تَقْتَحِمُهُ الْعَيْنُ مِنْ قَصَرٍ ،
غَصَنٌ بَيْنَ غَصْنَيْنِ ، فهو أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا ، وَأَحْسَنُهُمْ قَدًّا . لَهُ رَفَقَاءُ يَحْفُونَ
بِهِ ، إِنْ قَالَ أَنْصَتُوا لِقَوْلِهِ ، وَإِنْ أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ ، مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ^(١٠) ،
لَا عَابِسٌ وَلَا مَفْنَسٌ وَاللَّهُ .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قریش الذي ذكر لنا من أمره بمكة
ما ذكر ، ولو كنت وافقته لالتصت صحبته ؛ ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً .
والمفطوعة النثرية السابقة تعد وثيقة أدبية وتاريخية ، صورت لنا صفة

(١) الشجلة : ضخامة في البطن .

(٢) الصفقة : دقة الجسم وشدة نحوه .

(٣) الدحج : شدة سواد العين في شدة بياضها .

(٤) الوطف : غزارة أشفار العين وطولها .

(٥) الصحل : شبيهه بالبحر في الصوت وألا يكون حاداً .

(٦) سطلع العنق طولها في جمال .

(٧) أصل الحور أن تسود العين كلها ولا يكون ذلك إلا في البقر والظباء

ثم استعير لعين الإنسان إذا غلب سوادها على بياضها .

(٨) الأقرن : المقرون الحاجبين .

(٩) الزر : القليل الذي لا يعبا به من القول .

(١٠) المحفود الذي يخدمه أصحابه ويعظمونه ويبادرون إلى طاعته والمحشود

الذي يحف به من معه .

— ٣٤ —

الرسول ﷺ الخلقية والخلقية كأننا نراه ونشاهده ، كما تروى لنا حدثاً بارزاً مهماً من أحداث الهجرة النبوية المباركة ، وتنقل إلينا عبر الأيام والقرون — معجزة خارقة من المعجزات العظيمة التي اختص الله بها نبيه محمداً ﷺ وأيده بها ، كما تقدم لنا جانباً مضيئاً من أخلاق الرسول الكريم ومعاملته لأصحابه والناس ، بدت لنا واضحة جليلة . فيما ضربه — في المقطوعة — من أمثلة رائعة وإيثار جم وكرم في العطاء ، وكيف أنه ﷺ أثر أم معبد وقدمها على نفسه وصحابته ، رغم جهدهم واحتياجهم للسقاء والغذاء وما يروى عطشهم ، وبيل أوامهم ، ويسد رمقهم — وكيف أنه لم يفكر في نفسه أولاً — كما يفعل القادة الأنانيون ، بل فكر في المرأة المضيئة أولاً . إذ أنها صاحبة البيت ، وصاحبة الشاة ، ثم فكر في صحابته ، وأخيراً سقى نفسه ، وساق لنا أدباً رفيعاً نموذجاً في الإيثار وهو قوله : « ساقى القوم آخرهم شرباً ،

كما نلاحظ جانباً اجتماعياً هاماً في آخر القطعة ، فلم يرد الإناء فارغاً — كما يفعل بعض البخلاء حينما يأكلون ويشربون ثم يتركون أو يردون الإناء خاوي الوفاض — بل ضرب مثلاً أعلى في الكرم والسماحة ، فدعا بالإناء ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بدء ليغادر المنزل وقد امتلأت رحباته بالخير العميم ، والفيض الكثير ، ثم اكتملت جوانب الخبير بمبايعته التاريخية لأم معبد وإسلامها ، وهذا الجانب يبين مدى أهمية المرأة في المجتمع ومشاركتها في أمر حيوى يحمله القرآن .

* * *

ووجه رسول الله ﷺ إلى طييء فريقتاً من جنده يقدمهم على عليه السلام . ففرع عدى بن حاتم الطائي . وكان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ — إلى الشام ، فصباح على القوم ، واستاق خيلهم ونعمتهم ورجلهم ونساءهم إلى رسول الله . فلما عرض عليه الأسرى نهضت من بين القوم سيدة بنت حاتم فقالت :

يا محمد ، ملك الوالد ، وغاب الوافد . فإن رأيت أن تسخلى عني ولا تشمت بي
أحياء العرب ! فإن أبي سيد قومه ، يفك العاني ، ويقتل الجاني ، ويحفظ الجار
ويحمي الذمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشئ السلام ،
ويحمل السكل^(١) ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد في حاجة فردة
خائباً . أنا بنت حاتم الطائي . فقال النبي ﷺ : يا جارية ، هذه صفات المؤمنين
حقاً ، لو كان أبوك مسلماً أترحمنا عليه . خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم
الآخلاق . وقال فيها : ارحموا عزيزاً ذل ، وغنياً افتقر ، وعالمأ ضاع بين جمال .
وامتن عليهما رسول الله بقومها فأطلقهم تسكريماً لها ولا يها . فاستأذنته في الداء له .
فأذن لها . وقال لأصحابه : اسمعوا وعوا . فقالت : أصاب الله ببرك موافقه ،
ولا جعل لك إلى لثيم حاجة ، ولا سلب نعمة عن كريم قوم ، إلا وجعلك سبباً
في رد ما عليه ، فلما أطلقها رجعت إلى أخيها عدي وهو بدومة الجندل .
فقالت له : يا أخي انت هذا الرجل قبل أن تعلقك حباله ، فإني قد رأيت
هدياً ورأياً سيغلب أهل الغلبة ، ورأيت خصلاً تعجبنى : رأيت به يحب الفقير ،
ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجود
ولا أكرم منه . فإن يكن نبياً فليسابق فضله ؛ وإن يكن ملكاً فلن تزال في
عز الدين . فقدم عدي إلى رسول الله ﷺ ؛ وأسلمت سفانة^(٢) .

وكانت جرة سفانة وشجاعتها سبباً لنجاتها ونجاة قومها ، كما أن جرأتها
كانت سبباً في استدرا عطف الرسول الأمر الذي ساقها وأخاها إلى نور
الإسلام الوضاء ، ولو أنها جبنتم ولم تنطق ببنت شفة لعمركم لهلك هي
وقومها ولما حظيت بشرف الإسلام .

كما تبين لنا هذه اللوحة الأدبية صفات العربي الكريم متجلية في شخصية
حاتم الطائي ، وكيف أنه يتصف بسمات كريمة يدعو إليها الإسلام كما أخبر

(١) السكل العائل واليتيم (٢) الأثافي ج ١٦ ص ٩٣ وإنسان العيون ج ٢ ص ٢٨٥

ذلك الرسول الكريم ﷺ فهو : « يفك الأسير ، ويقتل الجاني ، ويحفظ الجار ويحمي الذمار ويفرج عن المسكروب ويطعم الطعام ويحمل الضعيف ويعين على مصائب الدهر » .

كما تعبر المقطوعة عن شخصية سفانة الاجتماعية وما تتميز به من نظرات ثاقبة ، ولحات نفاذة ، وقدرة أدبية على صوغ أسلوب الاستعطاف الذي ملك قلب الرسول ، واستولى على وجدانه .

ولا تقل هذه المقطوعة عن سابقتها في الأهمية الأدبية التاريخية فهي تصور شجاعة المرأة العربية في العصر الجاهلي وتقدم مثلاً رائعاً لمساقتها وجرائها فهي تقتحم معضلات الأمور في إقدام فريد ، وعزم وطيد ولا غرو في ذلك ولا عجب فهي ابنة حاتم الطائي .

ويروى لنا الأغاني موقفاً تاريخياً يدل على شجاعة المرأة العربية ومدى قوتها وصبرها .

« كان عمرو بن هند قد أقسم ليحرقن من بنى حنظلة مائة فأحرق ثمانية وتسعين ثم أقبل وافد من البراجم فأكل به تسعة وتسعين ، ثم قدمت عليه امرأة من بنى حنظلة ، فقال لها من أنت ؟ فقالت : ما أنا بأجمية ، ولا ولدتي العجم ، قال فمن زوجك ؟ قالت هوذة بن جروول قال أين هو ؟ قالت : هذه كلبة أحمق ، لو كنت أعرف مكانه حال بيني وبينك ، فقال أما والله لولا مخافة أن تلدى مثلك لضرفتك عن النار ، فقالت : أما والله الذي أسأله أن يضع سادك ، ويخفض مهالك ، ويسلبك ملسكك ، ما قتلت إلا نساء أعاليها ثدى ، وأسافلها حلى ، قال : اقدفوها في النار ، فالتفتت فقالت : ألا فتي يكون مكان عجوز ، فلما أبطئوا عليها قالت : « صارت الفتيان حمماً فأحرقن^(١) » .

(١) الأغاني ١٩ / ١٢٩ وراجع مجمع الأمثال ١ — ٢٦٠ .

ولما قتل جساس بن مرة كليب بن ربيعة ، وقفت جليلة بذت مرة في المناحة
وقفة تذيب الصخر — وكانت أخت القاتل وزوج القاتل — فقال نساء
الحى لأخت كليب : أخرجى جليلة عن مأتمك ، فإن في قيامها شماتة وعاراً
علينا عند العرب . فقالت لها : يا هذه ، اخرجى من مأتمنا ، فأنت أخت
واترنا ، وشقيقة قاتلتنا . فخرجت وهي تجر أعطافها . فلقبها أبوها 'مرّة' ،
فقال لها : ما ورايك يا جليلة ؟ فقالت : تُكَلِّدُ العدد ، وحزن الأبد ، وفقد
حليل ، وقتل أخ عن قليل . وبين ذلك غرس الأحقاد وتفتت الأكباد .
فيقال لها : أو يكف ذلك كرم الصفع ، وإغلاء الديات ؟ فقالت : أمنية مخدوع
ورب السكبة : أيا البُدن^(١) تدع لك تغلب دم ربها ؟

قالوا : ولما رحلت جليلة البكرية الشيبانية قالت أخت كليب : رحلة المعتدى ،
وفراق الشامات ! ويل خدأ لآل مرة ، من السكرّة بعد السكرّة ! فباغ جليلة قولها
فقالت : وكيف تشمت الحرة بهتك سترها ، وترقّب وترها . أسعد الله جدّ
أختي ، أفلا قالت نفرة الحياء ، وخوف الأعداء ؟ ثم أنشأت تقول :

يا ابنة الأقوام إن لميت فلا	تعجلى باللوم حتى تسألى
فإذا أنت تبينى الذى	يوجب اللوم فلومى واعذلى
إن تسكن أخت امرئ لميت على	شفق منها عايه فافعللى
جلّ عندى فعل جساس فيا	حسرتى عما انجلى أو ينجللى
لو بعين فُديت عيني سوى	أختها فانفقات لم أحفل

(١) البدن : جمع بدنة — بفتح الباء والهمزة — الناقة أو البقرة تهدي إلى مكة
ثم أطلقت على كل عظيم جسم من الإبل والبقر .

تحمل العين أذى العين كما	تحمل الأم أذى ما تعلى ^(١)
يا قتيلاً قوض الدهر به	سقف بيتي جميعاً من عل ^(٢)
هدم البيت الذي استحدثته	وانثنى في هدم بيتي الأول
ورماني قتله من كذب	رماية المصمى به المستأصل ^(٣)
يا نسائي دونكن اليوم قد	خصني الدهر برؤى ممضيل
خصني قتل كليب بلطى	من ورأى ولطى مستقبلي
ليس من يبكي ليوميه كن	إنما يبكي ليوم ينجلي
يشتفي المدرك بالثأر وفي	دركي ثأري ثكل المشكل
ليتـه كان دمي فاحتلبوا	درداً منه دمي من أكل ^(٤)
فأنا قاتلة مقتولة	والله أن يرتاح لي

وحديث جلييلة يصور لنا نظام المجتمع الجاهلي وما كان يسوده من عداة وضغائن وئذارات ، وأنه كان مجتمعاً يشور لأتفه الأسباب ، ويغضب لأدنى الأسباب ، ويغضب لأدنى الأشياء ، كما تصور لنا قوة شخصية المرأة العربية ومدى تأثيرها في قومها ، فهي تستطيع أن تعلن الحرب بكلمة واحدة ، وأن تنهيا بإيماءة موحية .

فإن إشارة واحدة قدقت بها امرأة فأصابت موطن الحس من الرجال ،

(٢١) يقال اعتلت الأم أى نهضت بحملها تقول إن العين تحمل أذى اختها كما تحمل الأم راضية أذى حملها ، أما هي فاعساها تعمل وقد أصيب عيناها معاً .
 وروى في هذا البيت : أذى ما تعلى وما بين يديك أوجه وأمثل
 (٣) السكشب : القرب ، وأصمى الرمية إذا أنفذها .
 (٤) الأكل : عرق في الدراع إذا نزع لا يرقأ .

فهاجت لها الحرب أربعين عاماً لم يدر فيها ضرع ، ولم يكتهل بين أثنائها فتى ،
وقد حدث : أن البسوس ابنة منقذ — خالة جساس بن مرة سيد بنى بكر —
نزل بها ضيف من ذوبها يدعى سعداً ، فأفسحت دارها له ، وأناخت بمظيرتها
ناقته ، فما كاد يطمئن بالرجل مقامه حتى انطلقت ناقته ترعى ، وقادها حينها
إلى حمى لكليب بن ربيعة صهر جساس وفتى العرب وسيد تغلب ، ولم يكن
لأحد غير جساس أن يرعى لإبله حمى كليب ، فلما بصر بها كليب غريبة بين إبله ،
أنفذ سهمه في ضرعها ، فانطلقت تعدو وهي تشخب دماً وليناً حتى نزلت بفناء
البسوس ، فلما استبان ما بها صاحت وأعولت واندفعت تقول :

لمعرك لو أصبحت في دار منقذ لما ضم سعد وهو جار لأبياتي
ولكني أصبحت في دار غربة متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي
فيا سعد لا تغرب بنفسك وارتحل فإنك في قوم عن الجار أموات
ودونك أذوادى فإنى عنهم لراحلة لا يفقدون بنياتي

وقد سمع جساس تلك الكلمة الأخيرة فأصابته الوتر الحساس من قلبه ،
وقال : « اسكني أيتها المرأة فليقتلن غداً جمل هو أعظم عقراً من ناقة جارك ،
وما زال يتوقع غرة من كليب حتى أنقذ بانفراده فاعتقل رجمه وخرج للقائه ،
فلما أبصره طعنه ودق صلبه وأنى عليه المساء أن يباخه ، ومن أجل ذلك قامت
حرب البسوس وفيها استمر القتل أربعين طامأ حتى كاد يلحقهما الدثور في أثرها
وما عصفت بها إلا حكمة واحدة كانت خليقاً بها أن تذهب لحينها لولا أن
نسجت امرأة وحأكتها على امرأة ، كما يتبين منها الظلم الصارخ الذى يوقعه
المجتمع الجاهلى على امرأة مثل جلييلة البكرية ؛ فما ذنبها ، وماذا جنته حتى ينبذها
المجتمع الجاهلى ويناصبها العداء ؟ إن مثل هذه المرأة كانت جديرة بالإشفاق
والرعاية بدلا من الزايرة والاحتقار ، واسكنه المجتمع الجاهلى .

ولما صدع سعد بن أبي وقاص جيش الفرس بالقادسية ، أنه
حرقة بذت النعمان بن المنذر في حفدة من قومها وجواريهما - وهن
في زيها ، عليهن المسوح والمقطعات السود مترهبات - تطلب صلة ،
فلما وقفن بين يديه أنكرهن سعد . فقال : أيسكن حرقة ؟ قالت : هأنذا .
قال : أنت حرقة ؟ قالت : نعم ، فما تكرارك في استفهامي ؟ ثم قالت : إن
الدنيا دار زوال لا تدوم على أهلها انتقالا ، وتعقبهم بعد حال حالا ؛
كنا ملوك هذا المصر ، يحى لنا خراجهم ، ويطيعنا أهلهم مدى الإمرة ،
وزمان الدولة ، فلما أدبر الأمر وانقضى ، صاح بنا صائح الدهر فشق
عصانا ، وشدت شملنا . وكذلك الدهر يا سعد ، إنه ليس يأتي قوماً بمسرة ،
إلا ويعقبهم بحسرة . ثم أنشأت تقول :

فبينما نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سهوة نتخصفُ
فأفَّ لدنيا لا يدوم نعيمها تقلبُ تارات بنا وتصرف

فقال سعد : قائل الله عدى بن زيد كأنه ينظر إليها حيث يقول :

إن للدهر صولة فاحذرنا لا تبين قد أمنت الدهورا
قد يبيت الفتى معافى فيردى واتقد كان آمناً مسروراً

وحدثوا أن عمرو بن معد يكرب - وكان من قصاد النعمان وزواره -
دخل عليها وهي بين يدي سعد . فلما نظر إليها قال : أنت حرقة ؟ قالت :
نعم . قال : فما دهمك ، فذهب بجودات شيمك ؟ أين تتابع نعمك ، وسطوات
نعمك ؟ فقالت : يا عمرو ، إن للدهر عثرات وعبرات تعثر بالملوك وأبنائهم
فتخفضهم بعد رفعة ، وتفردهم بعد منعة ، وتذلهم بعد عز . إن هذا الأمر كنا
ننتظره ، فلما حل بنا لم ننكره . قالوا : فاما انصرفت من لدن سعد لقيها نساء

القادسية ، فقلن لها : ما فعل بك الأمير ؟ قالت : أكرم وجهي ، وإنما يكرم
الكريم الكريم^(١) .

وحرقة في درتها الأدبية الحكيمة بدت حكيمة لامعة من حكيما العرب
اللائي حلبن الدهر أشطره ، فألقت علينا أمثلة رائعة من الحكمة لا يقدر على
حسن صوغها إلا البليغ ، يتجلى ذلك في عبارات رائعة ، وأسلوب سهل
كقوله : الزمان لا يأتي بمسرة إلا ويعقبها بمسرة ، إن للدهر لعثرات ، تعثر
بالموك .

وقد جاءت هذه الحكم صدى لصفاء فطرتها ، وكثرة تجاربها ، وقدرتها على
استخلاص العبرة ، كما تدلنا على وافر عقلها ، وتوقد ذكائها ، وثاقب فكرها .
ونلاحظ أن حرقة تبدو وكأنها فيلسوفة أخلاقية في حكمها ، فقد مزجت
الحكمة بالفلسفة ، وربطت بينها وبين الروح والأخلاق مما يعطى الحكمها
قيمة فلسفية ، وقيمة روحية وخلقية ، كما أعطى محاورتها مع عمرو قيمة
تاريخية ، وقيمة اجتماعية فضلا عن القيم الأدبية والبيانية التي انتشرت بين
غضون كلماتها .

* * *

ولما قتل الحارث بن ظالم المرثى خالد بن جعفر العامري ، لحق بحاجب بن
زردة التميمي يعصم به من بني عامر ، فاتبعه رجال منهم ، حتى إذا كانوا ببعض
الطريق ، عثروا بامرأة تميمية تحفي السكأة ؛ فتعرفوا منها أمر الحارث ، ومكانه
من حاجب ؛ ثم احتجزوها عندهم . فترقت حتى أنست غرة من القوم فأفلتت .
وانطلقت تعدو إلى حاجب . فأخذت تهديه حديث القوم . فقال لها : أخبريني
أي قوم أخذك ؟ قالت : أخذني قوم يقبلون بوجوه الظباء ، ويدبرون بأعجاز
النساء . قال : أولئك بنو عامر . قال : لخذي مني في القوم ؟ قالت : رأيتهم

يغدون على شيخ كبير لا ينظر بما فيه حتى يرفعوا له من حاجبيه . قال : ذلك
الأحوص بن جعفر . قالت : ورأيت شاباً شديداً الخلق ، كأن شعر ساعديه
خلق الدرع يعذب^(١) القوم بلسانه عذم الفرس العضوض . قال : ذلك
عتبة بن بشير بن خالد . قالت : ورأيت كهلاً إذا أقبل ومعه فتیان يشرف
القوم إليه ، فإذا نطق أنصتوا . قال : ذلك عمر بن خويلد ، والفتيان ابناه
زُرعة ويزيد . قالت : ورأيت شاباً طويلاً حسناً إذا تكلم بكلمة أنصتوا لها .
ثم يؤلون^(٢) إليه كما تؤل الشول^(٣) إلى غلها . قال : ذلك عامر بن مالك .
قالوا : وجاء القوم فسكانوا كما قالت وقال^(٤) .

ومن حديث المرأة التيممية التي وصفت قومها يتبين لنا مدى حذق العرب
في الوصف ، ومهارتهم في معرفة الرجل من وصفه ، فسكانوا يستدلون بهيئة
الإنسان وشكله ولونه وقوله على أخلاقه وفضائله ورذائله ، كما كانوا يعرفون
رجال القبيلة ونساءها من وصفهم ، وقد نبغ في ذلك من العرب من لا يحصى
عددهم . ولهم في ذلك نواذر شتى منها ما يقال من أن أولاد نزار ذهبوا إلى
الأنفى الجرهمي ليحكم بينهم في ميراث أبيهم ، ويبنماهم في الطريق إذ رأى
مضر كلاً قد رعى ، فقال : إن البعير الذي رعى هذا أعور ، فقال ربيعة : هو
أزور ، وقال إباد هو أتر ، وقال أثمار هو شرود ، وبعد قليل لقيهم رجل
ينشد بعيره فوصفوه كما تفرسوا ، فتعلق بهم وذهبوا إلى الأنفى الجرهمي ،
فقال : كيف وصفتهم ولم تروه ؟ فقال مضر : رأيته يرعى جانباً دون آخر
فعرفت أنه أعور ، وقال ربيعة رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والآخرى فاسدته

(١) العذب : عض الفرس وهي استعارة لحدة اللسان .

(٢) ألّ في مشيه : أسرع .

(٣) الشول : جمع شائلة ، وهي ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر .

(٤) الأغاني ١٠ / ١٨

فعرفت أنه أزور ، وقال إباد رأيت بعره مجتمعاً فعرفت أنه أبتر ، وقال أنمار رأيت به يرعى المسكان الملتف ثم يحوزه إلى غيره فعرفت أنه شرود ، فقال الجرهمى لصاحب البعير أطلبه من غيرهم ، ثم قال لهم أحتاجون إلىّ وأنتم كما أرى ؟ وهكذا فالقطعة أثر أدبي عظيم يدل على قوة الخيال والحافظة والذكاء عند العرب فقد كانوا يميزون بين أثر الرجل والمرأة والشيخ والشاب ، والأعشى والبصير واللاحق والسكيس^(١) .

* * *

وحدث أبو بكر بن دريد قال^(٢) : كان قبيل من أقيال حمير مَنع الولدَ دهرًا ، ثم ولدت له بنت ، فبنى لها قصرًا منيعاً بعيداً عن الناس . ووكّل بها نساء من بنات الأقيال يخدمنها ويؤدبنها ، حتى بلغت مبلغ النساء ، فنشأت أحسن منشاء وأتمه في عقلها وكمالها . فلما مات أبوها مَلَكَها أهل مَخْلَقها^(٣) . فاصطنعت النسوة اللاتي ربيْنها وأحسنن إليهن . وكانت تشاورهن ، ولا تقطع أمراً دونهن . فقلن لها يوماً : يا بنت السكرام ، لو تزوّجت أتمّ لك الملك ! فقالت : وما الزوج ؟ فأخذت كل واحدة تصف العذب الهني من صفات زوجها . فقالت : أمهلني أنظر فيما قلتن . فاحتجبت عنهن سبعةً ، ثم دعتهن ، فقالت : قد نظرت فيما قلتن فوجدتني أملاً بكم رِقسي ، وأُشبهه باطلي وحقى . فإن كان محمود الخلاق ، مأمون البوائق ، فقد أدركت بهيئتي ، وإن كان غير ذلك فقد طالت شقوتي . على أنه لا ينبغي إلا أن يكون كفوّاً كريماً ، يسود عشيرته ، ويُرَبُّ^(٤) فصيلته ، لا أتقنع به عاراً في حياتي ، ولا أرفع به شئناً

(١) الوسيط ص ٤١ (٢) القيل : الملك من ملوك حمير .

(٣) الخلف : السكورة أو الإقليم وهو لليمن خاصة .

(٤) يرب فصيلته يحفظها ويرطها ويربها .

لقومى بعد وفاتى . فعمله سكنه فابغينيه ، وتفرقن فى الاحياء ، فأيتسكن أنقى
بما أحب فلما أجزل الحباء ، وعلى لها الوفاء . نخرجن فيما وجهتهن له — وكن
بنات مقاول ذوات عقل ورأى — لجأتهن إحداهن — وهى عمر طة بنت
زُرعة ابن ذى سَخَنَفَر — فقالت : قد أصبت البغية . فقالت : صفيه ،
ولا تسميه ، فقالت : غيث فى المحل^(١) ، ثم قال فى الأزل^(٢) ، مفيد مبيد .
يصلح النائر ، وينعش العائر ؛ ويعمر الندى ؛ ويقتاد الأبي ، عرضة وافر ،
وحسبته باهر ، غضُّ الشباب ؛ طاهر الأثواب . قالت : ومن هو ؟ قالت :
سبرة بن عوال بن شداد بن الهمَّال . ثم خلت بالثانية . فقالت : أصبت
من بغيتك شيئاً ؟ قالت : أمم . قالت : صفيه ؛ ولا تسميه . قالت : مصاصم^(٣)
النسب ؛ كريم الحسب ؛ كامل الأدب ؛ غزير العطايا ؛ مأوف السجايا ؛ مُقتبلُ
الشباب ، خصيب الجنب . أمره ماض ، وعشيرته راض . قالت : ومن هو ؟
قالت : يعلى بن كزَّال بن ذى جَدَن . ثم خلت بالثالثة فقالت : ما عندك ؟ قالت :
وجدته كثير الفوائد ، عظيم المرافد^(٤) يعطى قبل السؤال ، وينيل قبل أن
يستأنل . فى العشيرة معظَّم ، وفى الندى مكرم ، جَمُّ الفواضل ، كثير النوافل^(٥) .
بذلُ أموال ، محقق آمال ، كريم أعمام وأخوال . قالت : ومن هو ؟ قالت :
رواحسة بن مَهِير بن مَضْحَى بن ذى مُهْلَهلة . فاختارت يعلى بن كزَّال

(١) المحل : الجذب والقطط .

(٢) الثمال : الغيات ، والأزل : الضيق والشدة .

(٣) المصاصم الخالص من كل شيء وهو مصاصم فى قومه إذا كان ذاكى
الحسب عالياً فيهم .

(٤) المرافد : جمع مرقد — بفتح الميم وضمها — المعرفة .

(٥) النوافل — جمع نافلة — ما زيد على العطاء .

فتزوجته ، فاحتجبت عن نساها شهراً . ثم برزت لهن فأجزلت لهن الحياء :
وأعظمت لهن العطاء (١) .

* * *

وفي كلام النسوة الذى رواه أبو بكر بن دريد نرى صورة فنية من
الصفات التى ترفعها المرأة العربية فى الزوج وهو أن يكون سيداً فى قومه
ذا حسب ونسب ، جواداً كريماً مكتمل الفتوة ، حسن السيرة إلى غير ذلك
من السجاي والطابع التى تعز بها القبيلة وتفتخر بها . فهى لوحة فنية تظهر
فيها آمال الزوجة وأحلامها فى الزوج :

١ — فالزوج الشاب أثير مستحب لأنه أدنى إلى الزوجة سناً وأشبه بها
خلقاً وميلاً .

٢ — وأن يكون الزوج حسن السيرة حادباً على الزوجة رقيقاً ، وأن
الزوجة لترجو أن يكون زوجها مرحاً لتجد الانس فى قربه والراحة
فى عشرته .

٣ — وأن يكون الزوج متحلياً بالفضائل من كرم وشجاعة وأنفة فهى
تؤثره مسيحاً حتى تحقق آمالها وتعيش فى حياة ناعمة ، وتريده شجاعاً ليكفل لها
الشهرة والسيادة والأمان والطمأنينة (٢) .

وبهذه الباقة السابقة ينتهى حديث الوصف النسائي وإذا أردنا أن نتكلم
فى الوصف ونستطرد فى الحديث عنه لضاق بنا هذا الكتاب ، فالوصف
غرض واسع النواحي بعيد ما بين الأطراف ، وقلما يلم النائر أو الشاعر
بأطرافها جميعاً فضلاً عن الإجابة فيها ، ولكل من الأدباء الوصافين فن

(١) آمالى القالى ج ١ ص ٨٠ — ٨٢ .

(٢) د . الحوفى : ١٧١ .

أوفنون من الوصف تستأثر بنفسه ، وتظهر فيها براعته ، وذلك بحسب البيئة
التي تغلب فيها ، والظروف التي اكتنفته واتصت بإحساسه ، وتغاضلت
آثارها في مجرى حياته ، فكان يمتثلها بصره وعقله ، وينبض بها قلبه ،
ويفيض لتذكرها شعوره فلا ينتظر من الأديب أو الشاعر إلا أن يجيد
في الناحية التي هيأته لها نفسه ، فجملتها مناط شاعريته ، ومهبط وحيه ،
ومصدر إحساسه ومثار آماله وآلامه (١) .

الفصل الثالث

أدب الكواهن

وكان الكاهنات في أديهن يملن إلى استخدام السجع ، والتكلف في صوغ عباراته ، وكثيراً ما يمزج أديهن بالمثل والحكمة مع عدم تعمقهن في استخراج المعاني البعيدة ، واستقصاء الأفكار الدقيقة التي تحتاج إلى كدٍّ خاطر أو درس علم ، ونظراً لأن أدب الكهانة من الأدب الخاص ، فكان التأنيق مقصوداً في انتقاء الألفاظ المناسبة الوزن ، المتشابهة في النغم والجرس ، وإن كن في بعض الأحيان يعتمدن في تأدية المعنى إلى ألفاظ تطابقه ، حسبما يتفق ، وكما يكون . مع قصر في الجمل ، أو توسط فيهما ، كما نلاحظ أنهن يستخدمن السكناية القريبة المنال (كطابع النثر الأدبي في هذه الحقبة) .

ولأن أدب الكهانة من الأدب الخاص كما أسلفنا ، فكانت لغة الكهانة تلبش من شعور بالتفوق والأفضلية والسمو الروحي على من يستصحبون بهديها ، فهي في نظر أصحابها ونظر من يدينون بها لغة " خاصة " مختارة ، لها سند من قوة علوية مُلهمة ، تتخذ منها أداة لفض أختام الغيوب ، وهتك أستارها ، ومن ثمَّ كان لا بد أن تستعين بما تستعين به (كدية الزار) من التأثير في النفوس الضعيفة المستسلمة ، لتشعل تفكيرها ، وتحدّر تعقلها ، وتلمها عن تبين التديس والتلبيس ؛ وتسوقها إلى الإذعان والقبول ؛ مستغلة تشوقها إلى معرفة أسرار الغد ، ومطالعة صحف المجهول . لذلك تراها تعتمد على المواربة والرمز والإيهام والاستغلاق مرة ، وعلى القسم والطنين

والجلجلة والتهويل والإغراب أخرى ، حتى تتحقق الغاية المقصودة منها (١) .
والذى يبدو أن أكثر ما جاءنا عنهم مخترع مصنوع ، ولكن بجيئه
على هذه الصورة بعينها ؛ دليل على أنهم هكذا كانوا ينطقون ، وهكذا كانوا
يخطبون ، وإلا لما اتفقت روايات الرواة ، ومن قد نحلوهم بعض الأقوال
والخطب ، على أنهم كانوا يسجعون هذا السجع ، وإذا صح أن هذا السجع
مصنوع ، فهو لا ينفي أن الأصل مصنوع أيضاً ، لأن من أراد محاكاة شيء
أفرغ جهده وحذقه في بجيئه على شكله .

وحسبك دليلاً على ما كان للكهان من سجع عرفوا به ما جاء في الآثار :
أن النبي ﷺ قضى بديهة في جنين ، فقال أحدهم : يا رسول الله كيف ندى
من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، فمثل ذلك يطل .

فأنكر عليه الرسول ﷺ هذا الأسلوب ، قائلاً : د أسجها كسجع
الجاهلية ، وفي رواية أخرى د أسجها كسجع الكهان ، فجعل السجع مختصاً
بالكهان بمقتضى الإضافة ، كما يقول ابن خلدون .

ومعنى هذا أنه كان للكهان سجع ، وأن صورة هذا السجع كانت معروفة
في صدر الإسلام (٢) .

ولمّا بغض هذا السجع - فوق التكلف والتعسف - أن الكهان
الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكون إليهم ، وكانوا يدعون الكهانة ،
وأن مع كل واحد منهم رئيس من الجن ، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع .

(١) صور البديع للدكتور على الجندي ، والخطابة في صدر الإسلام
د . محمد طاهر ص ٧٨ .

(٢) الخطابة في صدر الإسلام ج ١ ص ٧٩ .

ألا ترى أن ضمرة بن ضمرة ، وهرم بن قرطبة ، والأقرع بن حابس ،
ونفيل بن عبد العزى ، وربيعة بن حذار كانوا يحكمون وينفرون بالأسباع
فوق النهى .

والاستكراه فى ذلك لقرب عهد العرب بالجاهلية ولبقيتها فيهم ، وفى
صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم .

وقد كان الخطباء تتسكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون فى تلك الخطب
أسباع كثيرة ، فلم ينهوا منهم أحداً .

* * *

ومن الأدبيات السكواهن : الشعثاء ، وطريفة الخير التى تسكمت بسيل
العسرم ، وخراب سد مأرب ، والزبراء ، وكاهنة ذى الخلصة التى تسكمت
بما فى بطن رقية بنت جشم ، وسلمى الهمدانية ، والعجفاء بنت علقمة
والعفسيرة .

والإليك أمثلة من أديهن :

خطب الكواهن

والسكاهنات الخطيبات كما أسلفنا يتناولن في حديثهن موضوعات عديدة ، وكلها مستوحاة من البيئة الجاهلية ومستقاة من جورها .

ففي حديث الشعثاء السكاهن يتبين فيها شخصية المرأة العربية واضحة كل الوضوح ، وأن لها ذاتيتها المحترمة ورأيها المقدر ، فكان يؤخذ رأيها في الزواج ، ولا ترغم على اختيار شخص معين مهما كانت الظروف .

كما تدل على أن هناك في الجاهليات نساء محنكات بحربات يرجع إليهن في معضلات الأمور (كعثة بنت مطرود البجليّة فقد كانت ذات عقل ورأي مستمع) وكيف أن مخالفة هؤلاء النسوة للمجربات الناصحات يورث الحيرة ويعقب الندامة ، وقد تجلّى لنا ذلك الأمر جلياً في مخالفة خود أختها عثمة وضربها بنصائحها عرض الحائط مما هرّضها إلى فشلها في حياتها الزوجية ، وأخذها أسيرة ذليلة ، وقد اعترفت خود بذنبا وبكت بكاء مرأ وأنشجت نشيجاً محرناً ، فلما سئلت عن ذلك قالت : إنما أبكى على عصياني أختي وثرى قولها : « ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل ، فقد اهتمت خود بالمظهر البراق ، والمنظر الزائف ، ولم تنظر إلى شرف الجوهر ، وطهر المعدن فكان مصيرها كما قال الشاعر :

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور

ويعجبك الطير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطير

وقد رجعت في آخر الأمر إلى منطق العقل فاخترت لها نواس مع سوء

خلقته ، لأنها نظرت حينئذ إلى المخبر وضربت صفحاً عن المظهر وقبلت الرجل الذي يحميها ويدافع عن قبياتها ، وهذه هي الروح التي كانت تسود تطلعات المرأة العربية ورغباتها ، فتختار المرأة العربية الرجل القوي الذي يزود عن العشيرة ويحمي القبيلة .

ونراها في نضارتها هذا صداقة في وصفها تجيب نداء العقل وتربث في الاستجابة لنداء العاطفة .

* * *

وكانت عثمة بنتُ مطرود البجالية ذات عقل ورأى مُستمع في قومها ، وكانت لها أخت يقال لها : خود ، وكانت ذات جمال ويميم^(١) وعقل ، فخطب سبعة إخوة غلبة من بطن الأزد خوداً إلى أبيها . فأثوه وعليهم الحلال اليمنية ، وتحتهم النجائب الفُره^(٢) ، فقالوا : نحن بنو مالك بن مُنفيسة : ذى النخشين ، فقال لهم : انزلوا على الماء ، فنزلوا ليلتهم ، ثم أصبحوا غادين في الحلال والهيئة ، ومعههم ربيعة^(٣) لهم يقال لها الشَّعْماء : الكاهنة^(٤) ، فرشوا بوصيدها^(٥) يتعرضون لها ، وكلمهم وسميم جميل ، وخرج أبوها ، فجلسوا إليه ، فرحب بهم ، فقالوا : بلغنا أن لك بنتاً ، ونحن كما ترى شباب^(٦) ، وكلنا يمتنع الجانب ، ويمنح الراغب ، فقال أبوها : كلستم خيار ، فأقيموا نرى رأينا ، ثم دخل على ابنته ، فقال : ما ترين ؟ فقد أتاك هؤلاء القوم ؟ فنالت :

(١) الميمس والوسامة : أثر الحسن .

(٢) النجائب : جمع نجيب ، وهو البعير والفرس إذا كانا كريمين عتيقين ، والفُره : (كعقل وركع وكتب) جمع فارة ، وهو من الدواب الجيد السير النشيط الخفيف .

(٣) الربيعة : الحاضنة .

(٤) الوصيد : الفتاة (بالكسر) والعتبة .

د أنكحني على قدرى ، ولا تشطط في مهرى ، فإن تخطئني أحلامهم ،
لا تخطئني أجسامهم ، لعل أصيب ولداً ، وأكثر عدداً ، فخرج أبوها ، فقال :
أخبروني عن أفضلكم .

قالت ريبيتهم الشعشاء الكاهنة : د اسمع أخبرك عنهم : هم إخوة ، وكلهم
أسوة (١) .

أما الكبير فمالك ، جرى فأتاك ، يتعب السنابك (٢) ، ويستصغر
الممالك . وأما الذى يليه فالغمر ، بحر غمر (٣) ، يقصر دونه الفخر ،
نهش (٤) صدره .

وأما الذى يليه فعلممة ، صليب المنجمة (٥) ، تمنيع المشتمة (٦) ، قليل
المنجمة (٧) .

وأما الذى يليه فعاصم ، سيد ناعم (٨) ، جلد صارم ، أبى حازم ،
جيشه غانم ، وجارؤه سالم .

وأما الذى يليه فتواب ، سريع الجواب ، عتيد الصواب (٩) ، كريم

(١) الأسوة : القدوة .

(٢) السنابك : جمع سنبك كقنفذ ، وهو طرف الحافر ، أى أنه يجهد الخيل
في حومة الوغى .

(٣) الغمر : معظم البحر ، والكريم : الواسع الخلق .

(٤) النهش : الأسد ، والكريم .

(٥) من عجم العود إذا عضه ليعرف صلابته من خوره .

(٦) المشتمة : مصدر شتم ، والمعنى : أنه في حوز من أن يشتم ويسب عرضه ،

لحسن فعله وكرم خلقه . (٧) المنجمة : إخفاء الشيء في الصدر .

(٨) نعم كسمع ونصر وضرب فهو ناعم : أى ذو نعم وترفه .

(٩) العتيد : الحاضر المهيأ .

النَّصَاب^(١) ، كَلَيْثُ الْغَاب .

وَأَمَّا الَّذِي يَلِيهِ ، فَذُرْكُ ، بِذَوْلٍ لِمَا يَمْلِكُ ، عَزُوبٌ^(٢) عَمَا يَتْرُكُ ، مِيفَنِي وَمِهْلَكُ .

وَأَمَّا الَّذِي يَلِيهِ ، فَجُنْدَلُ ، إِقْعِرْنَهْ جِدْلُ^(٣) ، مَقْلُ^(٤) لِمَا يَحْمِلُ ، يَعْطَى وَيَبْذُلُ ، وَعَنْ عَدُوهِ لَا يَنْكَسِلُ^(٥) .

فَشَاوَرْتُ أَخْتَهَا فِيهِمْ ، فَقَالَتْ أَخْتَاهُ عَشْمَةُ : « تَرَى الْفَتَيَانَ كَالنَّخْلِ ، وَمَا يَدْرِيكَ بِالدَّخْلِ ، اسْمِعْنِي كَلِمَةً : إِنْ شَرَّ الْغَرِيبَةِ يَعْلَانُ ، وَخَيْرُهَا يُدْفَنُ ، أَنْسَكْحِي فِي قَوْمِكَ ، وَلَا تَغْرُزِي الْأَجْسَامَ ، فَلَمْ تَقْبَلْ مِنْهَا ، وَبَعَثْتَ إِلَى أَبْيَاهَا : أَنْسَكْحِي مَدْرَكًا ، فَأَنْسَكَحَهَا أَبُوهَا عَلَى مَائَةِ نَاقَةٍ وَرُحَاتِنَا ، وَحَمَلَهَا مَدْرَكُ ، فَلَمْ تَلْبِثْ عَنْدهُ إِلَّا قَلِيلًا ، حَتَّى صَبَّحَهُمْ فَوَارِسٌ مِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ ، فَاقْتَتَلُوا سَاعَةً ، ثُمَّ إِنْ زَوْجَهَا وَإِخْوَتَهُ وَبَنِي عَامِرٍ أَنْسَكَشَفُوا ، فَسَبَّوْهَا فِيهِمْ سَبًّا ، وَفَبَيْنَمَا هِيَ تَسِيرُ ، بَكَتْ ، فَقَالُوا : مَا يَبْكِيكَ ، أَعْلَى فِرَاقِ زَوْجِكَ ؟ قَالَتْ : قَبِّضْهُ اللَّهُ ، قَالُوا : لَقَدْ كَانَ جَمِيلًا ! قَالَتْ : قَبِّضَ اللَّهُ جَمَالًا لَا نَفْعَ مَعَهُ ، لَأَمَّا أَبْيَا عَلَى عَصِيَانِي أُخْتِي ، وَقَوْلُهَا :

تَرَى الْفَتَيَانَ كَالنَّخْلِ وَمَا يَدْرِيكَ بِالدَّخْلِ

وَأَخْبَرْتُهُمْ كَيْفَ خَطَبَوْهَا ، فَقَالَ لَهَا رَجُلٌ مِنْهُمْ يَكْنَى أَبَا نَوَاسٍ ، شَابٌ أَسْوَدُ أَفْوَهٍ^(٦) مُضْطَرِبُ الْخَلْقِ : أَتَرْضَيْنَ بِي ، عَلَى أَنْ أَمْنَعَكَ مِنْ ذُنَابِ الْعَرَبِ ؟

(١) النَّصَاب : الْأَصْلُ .

(٢) عَزُوبٌ : بَعِيدٌ .

(٣) جِدْلُهُ : صَرَعَهُ عَلَى الْجِدَالَةِ (كَسْحَابَةٍ) وَهِيَ الْأَرْضُ .

(٤) حَامِلٌ . (٥) نَسَكَلَ عَنْهُ كَضَرْبٍ وَنَصَرَ وَعَلِمَ : نَسَكَسَ وَجَبَنَ .

(٦) الْأَفْوَهُ : وَصَفَ مِنَ الْفَوَاهِ بِالتَّحْرِيكِ ، وَهُوَ سَعَةُ الْفَمِ .

فقال لأصحابه : أ كذلك هو ؟ قالوا : نعم ، إنه مع ما ترين لينتفع الحليمة^(١) ،
وتتقويه القبيلة ، قالت : هذا أجل جمال ، وأكمل كمال ، قد رضيت به ،
فزوجوها منه .

(مجمع الأمثال للميداني ١ : ٩١)

* * *

قال عبد الملك بن عبد الله بن بدرون في شرح قصيدة الوزير عبد المجيد
ابن عبدون ، التي قالها في رثاء دولة بني الأفطس بالأندلس :
كان أول من خرج من اليمن في أول تمزيقهم ، عمرو بن عامر : مُزَيَّعِيَا^(٢) ،
وكان سبب خروجه ، أنه كانت له زوجة كاهنة ، يقال لها « طريفة النخير » ،
وكانت رأت في منامها أن سحابة غشيت أرضهم ، فأرعدت وأبرقت ،
ثم صدقت ، فأحرقت كل ما وقعت عليه ، ففرغت طريفة لذلك فرعاً شديداً ،
وأنت الملك عمراً ، وهي تقول :

« ما رأيتُ اليومَ ، أزال عني النومَ ، رأيتُ غيماً رعدَ وبرق^(٣)
طويلاً ، ثم صدقت ، فساوق على شيء إلا احترق ، .
فلم أرَ ما داخلها من الفزع سكَّنها ، ثم إن عمراً دخل حديقة له ،
ومعه جاريتان من جواريه ، فبلغ ذلك طريفة ، فخرجت إليه وخرج معها

(١) الزوجة .

(٢) لقب بذلك ، لأنه كان يلبس كل يوم ملتين ، ويمزقها بالعشي ، يكره
العود فيهما ، ويأنف أن يلبسهما غيره .

(٣) رعدت السماء وبرقت (كنصر) ، وأرعدت السماء وأبرقت ، وأنكر
الاصمى ...

وصيف^(١) لها اسم سنان ، فلما برزت من يديها عرض لها ثلاث مناجيد منتصبات على أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن - وهى دواب تشبه اليرابيع^(٢) - فتمعدت إلى الأرض واضعة يديها على عينيها ، وقالت لوصيفها : إذا ذهبت هذه المناجيد فأخبرنى ، فلما ذهبت أعلمها ، فانطلقت مسرعة ، فلما طارضا خليج الحديقة التى فيها عمرو ، وثبت من الماء سلحفاة . فوقعت فى الطريق على ظهرها ؛ وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع ، وتستعين بذنبها ، فتحثو التراب على بطنها من جنباتها ، وتقذف بالبول قذفاً ، فلما رأته طريفة جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاة إلى الماء ، مضت إلى أن دخلت على عمرو وذلك حين انتصف النهار ، فى ساعة شديدة الحر ، فإذا الشجر يتكفأ من غير ريح ، فلما رآها عمرو استحميا منها ، وأمر الجاريتين بالتنحى ، ثم قال لها : يا طريفة ؛ فكهننت وقالت : « والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لهذا لك ، وليعودن الماء كما كان فى الزمان السالك » .

قال عمرو : ومن خبرك بهذا ؟ قالت : « أخبرتنى المناجيد ، بسنين شدادد ، يقطع فيها الولد الوالد » .

قال : ما تقولين ؟ قالت : « أقول قول النعمان امهاً ، لقد رأيت سلحفاً^(٣) ، تجرئ التراب جرفاً ، وتقذف بالبول قذفاً ، فدخلت الحديقة ؛ فإذا الشجر من غير ريح يتكفأ » .

(١) وصيف : أى خادم .

(٢) اليربوع : دويبة نحو الفأرة لكن ذنبه وأذناه أطول منها ، ورجلاه أطول من يديه عكس الزرافة .

(٣) يقال : سلحفاة وسلحفاء وسلحفا ، ويقال أيضاً سلحفا ساكنة اللام مفتوحة الحاء .

قال عمرو : وما تزين ؟ قالت : داهية داهية ، من أمور جسيمة ، ومصائب عظيمة .

قال : وما هو ؟ ويلك ! قالت : « أجل » ، إن فيه الويل ، وما لك فيه من قيل (١) ، وإن الويل فيما يحى به السيل ، فألقى عمرو نفسه عن فراشه ، وقال : ما هذا يا طريفة ؟ قالت : « هو كخطب جليل ، وحن طويل ، وخلف قليل » قال : وما علامة ما تذكرين ؟ قالت : « اذهب إلى السد ، فإذا رأيت مجرذاً يُكثرُ يديه في السد الحفر ، ويقلب برجليه من أجل الصخر ، فاعلم أن غمر الغمر » (٢) وأن قد وقع الأمر . قال : وما هذا الذي تذكرين ؟ قالت : « وعد من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نكال ، فبغيرك يا عمرو فليكن الشكل » (٣) .

فانطلق عمرو فإذا الجرذ يقب برجليه صخرة ما يقبلها خمسون رجلاً ، (كذا) فرجع إلى طريفة فأخبرها الخبر وهو يقول :

أبصرت أمراً تادني منه ألمٌ وهاج لي من هوله برحُ السقم (٤)
من مجرذ كفحتل رخنير الأجم أو كبش صرم من أفاريق الغم (٥)

(١) قال قبلا : نام في القائلة ، وهي نصف النهار ، والمراد هنا الإقامة والمكث .

(٢) الغمر : الماء الكثير .

(٣) الشكل : كسبب وقفل الموت والهلاك . (٤) البرح : الشدة .

(٥) الأجم : جمع أجمة ، وهي الشجر الكثير الملتف ، والصرم : الجماعة والفرقة تجمع على فرق ، وجمع البجع أفراق ، وجمع جمع البجع أفاريق ، والجلاميد : جمع جلود كمصفور الصخر .

يسحبُ صخرًا من جلاميد العرم له مغاليبٌ وأنيابٌ قضم^(١)

ما فاته سحلا من الصخر قهم^(٢)

فقلت طريفة : وإن من علامات ما ذكرت لك أن تجلس فتأمر بزجاجة فتوضع بين يديك ، فإن الريح تماؤها من تراب البطحاء^(٣) ، من سهلة^(٤) الوادى ورملة ، وقد علمت أن الجنان مظلمة لا يدخلها شمس ولا ريح .

فأمر عمر بزجاجة فوضعها بين يديه ولم يمكث إلا قليلا حتى امتلأت من تراب البطحاء ، فأخبر عمرو طريفة بذلك ، وقال لها : متى يكون هلاك السد ؟ قالت له : فيما بينك وبين سبع سنين . قال : ففي أيها يكون ؟ قالت : لا أعلم بذلك إلا الله ، ولو علمه أحد لعلمته ، ولا تأق على ليلة فيما بينى وبين سبع السنين إلا ظننت الهلاك في غدها ، أو في مسائها ، ثم رأى عمرو في نومه سيل العرم ، وقيل له : آية ذلك أن ترى الحصباء في سحف النخل ، فنظر إليها ، فوجد الحصباء فيها قد ظهرت ، فعلم أن ذلك واقع ، وأن بلادهم ستخرب ، فكتم ذلك وأخفاه ، وأجمع على بيع كل شيء له بأرض مأرب^(٥) وأن يخرج منها

(١) العرم : السد يعترض به الوادى (ومن معانيه أيضا المطر الشديد ، والجرد ، وواد جاء الصيل من قبله) .

(٢) سحله كنع : قشره ونحته ، وقصمه : كسره .

(٣) البطحاء والأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

(٤) السهلة بالكسر : تراب كالرمل .

(٥) مأرب : مدينة باليمن ، وكانت في الزمان الأول قاعدة التبابعة ، وهى مدينة بلقيس ، بينها وبين صنعاء نحو أربع مراحل ، وتسمى سبأ ، بإسم بانها سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان .

هو وولده (١)، نخرج ، ثم أرسل الله تعالى على السد (٢) السيل فهدمه .
(شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون ص ٩٨)

* * *

(١) وقد خشى أن يستنكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاده إذا دعاه لما يدهوه إليه أن يتأني عليه ، وأن يفعل ذلك به في الملاء من الناس ، وإذا لطمه يرفع هو يده ويلطمه ، ثم صنع طعاماً ، وبعث إلى أهل مأرب أن عمرو صنع يوم مجد وذكر ، فاحضروا طعامه . فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذي أمره بما أمر ؛ فجعل يأمره بأمور فيتأني عليه ، وينهاه فلا ينتهي ، فرفع عمرو يده فلطمه على وجهه ، فلطمه ابنه ؛ وكان اسمه ملكا ، فصاح عمرو : واذللاه ، يوم نخر عمرو يهيج به صبي ويضرب وجهه ، وحلف ليقتهانه ، فلم يزالوا بعمرو يرغبون إليه حتى تركه ، فقال : والله لا أقيم بموضع صنع بي فيه هذا ، ولا يبيعن أموالى حتى لا يرث منها بعدى شيئا ، فقال الناس بعضهم لبعض : اغتصموا غضب عمرو ، واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى ، فابتاع الناس منه كل أمواله التي بأرض مأرب ، وفشا بعض حديثه فيما بلغه من شأن سيل العرم ، فقام ناس من الأزد فباعوا أموالهم ، فلما أكثروا البيع استنكر الناس ذلك ، فأمسكوا أيديهم عن الشراء ، ولما اجتمعت إلى عمرو أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم ، ولما خرج عمرو من اليمن خرج لخروجه منها بشر كثير ، فنزلوا أرض دك ، فحاربهم دك ، فارتحلوا عنها ، ثم اصطالحوا وبقوا بها حتى مات عمرو بن عامر ، وتفرقوا على البلاد ، فنهض من صار إلى الشام ، وهم أولاد دجفنة بن عمرو بن عامر ، ومنهم من صار إلى يثرب ، وهم أبناء قيلة الأوس والخزرج ، وأبوهما حارثة ابن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وصارت أزد الشراة ، إلى أرض الشراة ؛ وأزد عمان إلى عمان ، وصار ملك ابن فهم إلى العراق ، ثم خرجت بعد عمرو بيسير من أرض اليمن طيء ، فنزلت جبلى طيء : أجأ وسلى ، ونزلت ربيعة بن حارثة ابن عمرو بن عامر تهامة ، وسموا خزاعة ، لانخازعهم من إخوانهم ، وتمزقوا في البلاد كل ممزق .

(٢) كان السد فيما يذكر قد بناه لقمان الأكبر بن عاد ، وكان رصفه بالحجارة =

وقال أبو الفرج الأصهباني في الأغاني :

وسارت القبائل من أهل مأرب حين خافوا سيل العرم ، وغلهم ممزقياً ،
ومعهم طريفة السكاهنة ، فقالت لهم :

« لا تؤمّثوا مكة حتى أقول ، وما علمني ما أقول إلا الحكيم المحكم ،
ربّ جميع الأمم ، من عرب وعجم » .

قالوا لها : ما شأنك يا طريفة ؟ قالت : خذوا البعير الشّدقم^(١) ، نخفضه بوجه
بالدم ، تسكن لكم أرض جُهرم^(٢) ، جيران بيتهم المحرم .

(الأغاني ١٣ : ١٠٥)

* * *

ودوى الميداني في مجمع الأمثال قال :

ألفت طريفة السكاهنة إلى عمرو بن عامر الذي يقال له : « مزريقا بن
ماء السماء » ، وكانت قد رأت في كهانتها^(٣) أن سدّ مأرب سينخرّب ، وأنه

== السدّ بالرصاص والحديد ويقال : إن الذي بناه كان من ملوك حمير ، وذلك
أن الماء كان يأتي أرض سبأ من الشجر وأودية اليمن ، فردموا ردماً بين
جبلين ، وحبسوا الماء ، وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض .

(١) الواسع الشّدق .

(٢) وكانوا يسكنون مكة ، فأرسل إليهم عمرو : أن افسحوا لنا في بلادكم
حتى نقيم قدر ما نستريح ، ونرسل رواداً إلى الشام وإلى الشرق ، فحينما بلغنا أنه
أمثل لحقنا به ، فأبى ذلك جرهم إباء شديداً ، وقالوا : لا ، والله ما نحب أن ينزلوا
فيضيّقوا علينا مراتبنا ومواردنا ، وكانت الحرب بين الفريقين ، وانتهت جرهم
فلم يفلت منهم إلا الشريد .

(٣) كهن كهانة بالفتح ، فهو كاهن ، وحرفته الكهانة بالكسر .

سبأني سبل العرم ، فيخرَّب الجنتين^(١) ، فباع عمرو بن عامر أمواله ، وسار هو وقومه حتى انتهوا إلى مكة ، فأقاموا بمكة وما حولها ، فأصابتهُم الحمى ، وكانوا يبذل لا يدرون فيه ما الحمى ، فدعوا طريفة فشكوا إليها الذي أصابهم ، فقالت لهم : قد أصابني الذي تشكون ، وهو مفرق بيننا . قالوا : فما تأمرين ؟ قالت :

« من كان منكم ذا هم بعيد ، وجمل شديد ، ومزاد^(٢) جديد ، فليلق بقصر مَعْمَان المشيد^(٣) ، فكانت أزدُ عَمَان .

ثم قالت : من كان منكم ذا جلد وقشر^(٤) ، وصبر على أزَمَات الدهر ، فعليه بالأراك^(٥) من بطن مُر^(٦) ، فكانت خزاعة .

ثم قالت : من كان منكم يريد الراسيات في الوحل ، المُطعمات في المحل^(٧) ، فليلق ببئر ذات النخل ، فكانت الأوس والخزرج .

ثم قالت : من كان منكم يريد الخمر الخمر ، والمالك والتأخير ، ويلبس الديباج والحريز ، فليلق بِيَصْرَى وغوير ، (وهما من أرض الشام) ، فكان الذين سكنوها من آل كَجَفنة من غسان .

(١) قال تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية من جناتنا عن يمين وشمال ، ... » .

(٢) المزداد والمزاید : جمع مزادة ، وهي الراوية .

(٣) المشيد : المرفوع ، قال مسلم بن الوليد في رثاء يزيد بن مريد :
أما هدت لمصرعه نزار بلى ، ونقوض الحمد المشيد

(٤) قسره على الأمر : قهره .

(٥) الأراك : القطعة من الأرض ، وموضع بعرفات ، وجبل .

(٦) بطن مر : مر بن أد بن طابخة .

(٧) المحل : الجذب والقحط .

ثم قالت : من كان منكم يريد الشباب الرفاق ، والخيل العنّاق ، وكثوز
الارزاق ، والدّم المهرق ، فليدق بأرض العراق ، فكان الذين سكنوها آل
كجذيمة الأبرش ، ومن كان بالحيرة وآل محرق^(١) .
(بجمع الأمثال ١ : ١٨٩)

ونلاحظ من حديث طريفة الخير الآتي : أن العرب كانوا يعرفون علم
الاحياء فهم يعرفون الحيوان وسلوكياته والرياح ونواحيها واتجاهاتها ،
وما يستدل من هذه العلوم من نتائج تخبر عن حدوث أمر ما وهذا يتضح في
قولها : « لقد رأيت سحفاً تجرف التراب جرفاً ، فدخلت الحديقة » فإذا
الشجر من غير ريح يتكفأ ، وقولها : « فإذا رأيت جرداً يكثر بيديه في السد
الحفر فاعلم أن غمر الغمر » .

وقولها في صفة الرياح « وإن من علامات ما ذكرت لك أن تجلس فتأمر
برجاجة فتوضع بين يديك ، فإن الريح يملؤها من تراب البطحاء النخ » .

ومن هنا نرى أن الأمر ليس مرتبطاً بالسكّانة ، ولكنه نتيجة مستنبطة
من خلال دراسات عملية للبيئة وما تحتويه من جبال وأشجار وغيرها يستدل
بها على التوقعات المنتظرة ، وشبهه بهذه الأوصاف المذكورة ما يحدث في
عصرنا الحديث من تحركات بعض الأشياء ، والهزات الخفيفة التي تحدث غالباً
قبل الزلازل .

كما نلاحظ أن الحاكم في هذه الفترة كان يحترم رأى الكاهنات ويقدمهن
وفي هذا اعتراف بمكانة الكواهن ومنزلتهن العلمية في هذا الزمان .

(١) هو عمرو بن هند لأنه حرق مائة من بني تميم .

حديث زبراء الكاهنة مع بنى رثام من قضاة

كان ثلاثة أبطن من قضاة مجتورين^(١) بين الشجر وحضر موت :
بنو ناعب ، وبنو داهن ، وبنو رثام ، وكانت بنو رثام أقلهم عدداً ، وأشجعهم
لقاءً ، وكانت لبنى رثام عجوز تسمى خويلة ، وكانت لها أمة من مولدات
العرب ، تسمى زبراء ، وكان يدخل على خويلة أربعون رجلاً ، كلهم لها
محرم ، بنو إخوة ، وبنو أخوات ، وكانت خويلة عقيماً ، وكان بنو ناعب ،
وبنو داهن متظاهرين على بنى رثام ، فاجتمع بنو رثام ذات يوم فى عرس لهم ،
وهم سبعون رجلاً ، كلهم شجاع بئيس^(٢) ، فطعموا وأقبلوا على شرايهم ،
وكانت زبراء كاهنة ، فقالت لخويلة : انطلقى بنا إلى قومك أنذرهم ،
فأقبلت خويلة تتوكأ على زبراء ، فلما أبصرها القوم ، قاموا لإجلالها ، فقالت :
« يا ثمر الأكبادة ، وأنداد^(٣) الأولاد ، وشجاة^(٤) الحساد ، هذه زبراء ،
تخبركم عن أنباء ، قبل انحسار الظلماء ، المؤيد^(٥) الشنعاء ، فاسمعوا ما تقول ،
قالوا : وما تقولين يا زبراء ؟ قالت :

« واللوح^(٦) الخافق ، والليل ، الغاسق ، والصباح الشاق ، والنجم
الطارق ، والمزن^(٧) الوادق^(٧) ، إن شجر الوادى ليأدو خنتلا^(٨) ،

(١) أنداد : جمع ند بالكسر ، وهو المثل والنظير .

(٢) الشجاء : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه .

(٣) المؤيد : الدائمة والأمر العظيم .

(٤) اللوح بالضم والفتح (والضم أعلى) : الهواء بين السماء والأرض .

(٥) غسق الليل كجلس : اشتدت ظلمته .

(٦) الطارق : فى الأصل ، كل من أتى ليلاً ، ثم استعمل فى النجوم لطلوعها ليلاً .

(٧) المزن : السحاب أو أبيضه أو ذو الماء ، والوادق من ودق المطر

كوعد : قطر . (٨) أدوت له آدو أدوا إذا خنتلته ونخدعته

(ودأيت له ، ودألت له أيضاً) والنختل : النخدع .

ويحرق أنياباً عَصلاً^(١) ، وإن صخر الطود لينذر ثكلاً^(٢) ، لا تجدون عنه مَعلاً^(٣) .

فوافقت قوماً أشارى^(٤) سكارى ، فقالوا : « ريج خجوج^(٥) » ، بعيدة ما بين الفروج ، أتت زبراء بالآبلى التوج^(٦) .

فقلت زبراء : « مهلاً يا بنى الأعزّة ، والله إنى لأشتم ذفر^(٧) الرجال تحت الحديد » ، فقال لها فتى منهم يقال له مُهذِل بن منقذ : « يا خذاق^(٨) ، والله ما تشمتين إلا ذفر إبطيك ، فأنصرفت عنهم ، وارتاب قوم من ذوى أسنانهم ، فأنصرفت منهم أربعون رجلاً ، وبقي ثلاثون ، فرقدوا في مشربهم ، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعب ، فقتلوا أجمعين .

(١) حرق أنيابه : إذا حك بعضهم ببعض ، والعرب تقول عند الغضب يعضبه الرجل على صاحبه : « هو يحرق على الأرم » ، والأرم كسر : الأخراس ، والعصل : المعوجة جمع أعصل .

(٢) الطود : الجبل ، والشكل : الفقد . (٣) المثل : المنجى .

(٤) الأشمر محرّكة : المرح . (٥) الخجوج : السريعة المرح .

(٦) الآبلى : وصف من البلى محرّكة ، وهو ارتفاع البياض في قوائم الفرس إلى الفخذين ، والآبلى لا يكون نتوجاً ، والعرب تضرب هذا مثلاً للشئ الذى لا ينال ، تقول : طلب الآبلى العقوق ، فلما فاته أراد يبيض الأنوق ، والعقوق كصبور : الحامل ، والأنوق كصبور أيضاً : الذكر من الرخم ولا يبيض له ، هذا قول بعض اللغويين . فالمعنى أنه طلب مالا يمكن ، فلما لم يجد طلب أيضاً مالا يكون ولا يوجد ، وطامتهم يقولون : الأنوق الرخمة وهى تبيض في مكان لا يوصل فيه إلى يبيضها إلا بعد عتاء . فالمعنى أنه طلب مالا يقدر عليه ، فلما لم ينله طلب ما يجوز أن يناله .

(٧) الذفر : حدة الريح ، يكون في الثنن واليب .

(٨) خذاق : كناية عما يخرج من الإنسان يقال : خذاق ، ومزق ، وذرّق .

وأقبلت خويلة مع الصباح ، فوقفت على مصارعهم ، ثم عمدت إلى خناصرهم ، فقطعتها ، وانتظمت منها قلادة ، وألقته في عنقها ، وخرجت حتى لحقت برضاوى بن سموة المهرى ، وهو ابن أختها ، فأناخت بفنائه ، فاستعدته على بنى داهن وبني ناعب ، فخرج في مزمير^(١) من قومه ، فطرقهم فأوجع فيهم .

(الأمالي ١ : ١٢٦)

وفي حديث الزبراء ، نلاحظ أنه مع الاعتراف بـ كانه السكواهن ، واحترام رأيهن ، إلا أن هناك بعضاً من العرب ، كانوا يعتبرون ذلك من قبيل الدجل والشعوذة ، وهذا ما نراه من موقف هذيل بن منقذ والله ما تشمين إلا ذفر إبطيك ، مفسداً قول الزبراء : دلى لأشم ذفر الرجل تحت الحديد ، كما نلاحظ في حديث الزبراء السكاهنة ، مدى تأثير المرأة العربية ، وأهميتها الاجتماعية في قومها ، وأنها بكلمة واحدة تثير الحرب الضروس ، وهذا ما تشاهده في موقف خويلة ، وأنها تعدد إلى خناصر القتلى وتنظم منها قلادة واحدة تلقى في عنقها ، ثم تذهب إلى ابن سموة المهرى فتقيم في داره وتستعديه على بنى داهن ، وبنى ناعب ، فأعلن الحرب عليهما ، وأعد جيشاً من قومه وقَاتلهم وأعمل فيهم القتل والتنكيل .

(١) المنسر من الخيل : ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، أو من الأربعين إلى الخمسين ، أو إلى الستين ، أو المائة إلى المائتين ، وقطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير .

كاهنة ذى الخلصة تتسكن بما في بطن رقية بنت جشم
 زعموا أن رقية بنت جشم بن معاوية ، ولدت نيراً وهلالاً وسواءة ،
 ثم اعتاطت ^(١) فأنت كاهنة بذى الخلصة ^(٢) ، فأرتمها بطنها ، وقالت : إني
 قد ولدت ، ثم اعتطت ، فنظرت إليها ومسّت بطنها ، وقالت :
 وربّ قبائلٍ فرّق ، وبجائسٍ خلق ، وُظنّ ^(٣) حُزّق ^(٤) ، في
 بطنك زرق ^(٥) .
 فلما خضت ^(٦) بريعة بن عامر ^(٧) ، قالت : إني أعرف ضرطى بهلال ؛
 أى هو غلام ؛ كما أن هلالاً كان غلاماً .
 (بجمع الأمثال ١ : ٢٢١)

-
- (١) اعتاطت المرأة : لم تحمل سنين من غير عقر .
 (٢) ذو الخلصة معركة وبضمتين : بيت كان يدعى الكعبة الجمانية لخشم ، كان
 فيه صنم اسمه الخلصة .
 (٣) الظعن والظعائن : جمع ظعينة ، وهى الهودج سواء كان فيه امرأة أم لا ،
 والمرأة ما دامت فى الهودج ، ويقال : الظعينة فى الأصل وصف للمرأة فى هودجها ،
 ثم سميت بهذا الاسم ، وإن كانت فى بيتها ، لأنها تصير مظعونة (أى يظعن بها
 زوجها ، فهى فعيلة بمعنى مفعولة) .
 (٤) الحزق والحزقة (بكسر الحاء) والحازقة ، والحزيق ، والحزيقة ، والحزاقة
 (بالفتح) : الجماعة ، والجمع : حزائق وحزوق وحزق (بضمتين) .
 (٥) أى وضع ، وأصل الزرق : رمى الطائر بذرقه .
 (٦) خض كسبح ومنع وعفى : أخذها الطلق
 (٧) هو : ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور
 ابن عكرمة بن خصيفة بن قيس بن عيلان بن مضر ، ومن نسله بنو كلاب بن ربيعة
 ابن عامر ، وبنو جعفر بن كلاب بن ربيعة .

وفي حديث كاهنة ذى الخلصة ، أرى أن كلامها هذا لا يعد من قبيل
السكمانية ، إذ أنه لا يعدو أن يكون من باب البشارة التي يسوقها النساء عادة في
مثل هذه المواقف ، والغرض منها إسعاد النساء ، بكلام محبب إلى قلوبهن ،
وهو أسلوب من أساليب التفاؤل ، وتوقع الخير ، وهذا يحدث في كل العصور
لا في العصر الجاهلي وحده .

كما أننا نلاحظ في حديثها اعتزاز العرب بالولد فهو يحمل اسم القبيلة ، ويدافع
عن ذمارها ، ومن ذريته يأتي المحامون والمدافعون عن بيضة العشيرة والقبيلة .

* * *

رأى سلمى الهمدانية في حريم المرادى

كما نلاحظ أهمية مشورة المرأة في العصر الجاهلي وأن الملوك كانوا ينزلون
عند رأيها ومشورتها ويستنبهون براجح عقلها كما بدا واضحاً في استرشاد عمرو
ابن براقة برأى سلمى الهمدانية وبلغ من تأثير رأيها فيه أنه أثار على حريم
المرادى وقائله واستاق كل شيء له ، وكان كل شيء يسير بناء على توجيهات
سلمى وإرشاداتها .

وكان أثار رجل من دمراد ، يقال له دحريم ، على إبل عمرو بن براقة
الهمداني وخيل له ، فذهب بها ، فأق عمرو بن سلمى الهمدانية ، وكانت بنت
سيدهم ، وعن رأيها كانوا يصعدون ، فأخبرها أن حريماً المرادى أثار على
إبله وخيله ، فقالت : د والخفور والوميض^(١) ، والشقق كالإحريض^(٢) ،
والقلة والحضيض^(٣) ، إن حريماً المنيع^(٤) الخير^(٥) ، سيد مزير^(٥) ذو معقل حريز

(١) الخفو : اللعنان الضعيف ، والوميض : أشد من الخفو .

(٢) الإحريض : العصف . (٣) القلة : أعلى الرأس ، والجبل ،

وكل شيء ، والحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

(٤) الناحية . (٥) مزير : فاضل ، من قولهم هذا أذن من هذا أى أفضل منه .

غير أنى أرى الجملة (١) ستظفر منه بعثرة ، بطيئة الجسرة ، فاعره
ولا تسكع (٢) .

فأخار عمرو ، فاستاق كل شيء له ، فأتى حريم بعد ذلك يطلب إلى عمرو
أن يرد عليه بعض ما أخذ منه ، فامتنع ورجع حريم .
(الأمالي ٢ : ١٢٣)

تنافر العجفاء بنت علقمة وصواحباتها إلى الكاهنة السعدية
كان العرب يفتخرون بالأنساب ، ويشيدون بآثر الآباء والأجداد
متمثلين بقولهم :

إن الفقى من يقول كان أبى ليس الفقى من يقول ها أنذا (٣)

ونرى هنا أن المرأة العربية سلكت مسلكاً آخر مغايراً لما كان عليه الحال
قبل ذلك ، فتقدم لنا العجفاء — فى حديثها الآتى — الرجال فى صورة عملية
تسجيلية ، نرى من خلالها الخصال الطيبة والمكارم المحمودة للرجال ، كأننا
نراها ونلمسها ، تحفز على الخير ، وتحض على الفضائل فلم تعد الصورة مجرد
نظر ومنافرة بل كرماء يبعث على الكرم ، ومروءة ، تدفع إلى المروءة ، وصدقاً
ينهى عن الكذب ، وفضائل خيرة تنهى عن الرذائل المشينة :
* وبضدها تتميز الأشياء *

(١) الجملة : القدر (محركة) ، وقيل : هى واحد الحمام (بالكسر) .

(٢) نسكه عن الأمر (كنع) منه ودفقه .

(٣) أى أنهم عكسوا قول الشاعر :

ليس الفقى من يقول كان أبى إن الفقى من يقول ها أنذا

وكان قد روى أن العجفاء بنت علقمة السعدية^(١) ، وثلاث نسوة من قومها ، خرجن فائدين بروضة يتحدثن فيها ، فوافين بها ليلاً في قر زاهر ، وليلة طلقة ساكنة ، وروضة ممعشبة خصبة ، فلما جلسن قلن : ما رأينا كالليلة ليلة^(٢) ، ولا كهذه الروضة روضة أطيب ريحاً ولا أنضر .

ثم أفطن في الحديث ، فقلن : أى النساء أفضل ؟ قالت إحداهن : الحرود^(٣) ، الودود الولود ، قالت الأخرى : خيرهن ذات الغناء^(٤) ، وطيب الثناء ، وشدة الحياء . قالت الثالثة : خيرهن السموع الجموع ، النفوع غير المنوع ، قالت الرابعة : خيرهن الجامعة لأهلها ، الوادعة الرافعة ، لا الواضعة . قلن : فأى الرجال أفضل ؟ قالت إحداهن : خيرهم الحظي^(٥) الرضى ، غير الحظيل^(٦) البطي . قالت الثانية : خيرهم السيد الكريم ، ذو الحسب العميم ، والمجد القديم . قالت الثالثة : خيرهم السخي ، الوفي الرضى ، الذى لا يغير^(٧) الحرّة ، ولا يتخذ الضرّة . قالت الرابعة : وأيكن ، إن فى أبى لعنتكن ، كرم الأخلاق ، والصدق عند التلاق ، والفالج^(٨) عند السباق ، ويمحمده أهل الرفاق . قالت العجفاء عند ذلك : كل فتاة بأبيها معجبة .

(١) الخرود ، والخريد ، والخريفة : الحميمة الطويلة السكوت ، الخافضة الصوت ، المتسترة .

(٢) الكفاية والمنفعة .

(٣) الحظي : ذو الحظوة والمساكنة عند زوجه ، والحظية كذلك .

(٤) رجل حظال ككتف وشداد وصبور : مقتر ، يحاسب أهله بما ينفق عليهم ، وفى بجمع الأمثال وغير الحظال ، ولا التبال ، والتبال بالتشديد من التبل (بفتح فسكون) وهو الحقد .

(٥) أغار امرأته : تزوج عليها .

(٦) الفوز والظفر .

وفي بعض الروايات أن إحداهن قالت : إن أبي يكرم الجار ، ومُعظم الخطار^(١) ، وينحر العِشار^(٢) ، بعد الحوار^(٣) ، ويحمل الأمور الكبار ، ويأنف من الصغار ، فقالت الثانية : إن أبي عظيم الخطر ، منيع الوزر^(٤) ، عزيز النفس ، يحمي منه الورد والصدور ، فقالت الثالثة : إن أبي صدوق اللسان ، حديد الجنان ، رذوم^(٥) الجفان ، كثير الأعوان ، يُروى السنان عند الطمان ، قالت الرابعة : إن أبي كريم النزال ، مُمْنيف المقال ، كثير النوال ، قليل السؤال ، كريم الفعال .

ثم تنافرن إلى كاهنة معهن في الحى ، فقلن لها : اسمعى ما قلناه ، واحكى بيننا وأعدلى ، ثم أعدن عليها قولهن ، فقالت لهن : لكل واحدة منكن ماردة^(٦) ، بأبيها واجدة^(٧) ، على الإحسان جاهدة ، لصواحباتها حاسدة ، ولكن اسمعن قولي : خير النساء المبقية على بعلمها ، الصابرة على الضراء مخافة أن ترجع إلى أهلها مطلقة ؛ فهي تؤثرُ حظ زوجها على حظ نفسها ؛ فتلك الكريمة الكاملة ؛ وخير الرجال الجواد البطل ، القليل الفشل ، إذا سألته الرجل ، ألفاه قليل العمل ، كثير النفل^(٨) ، ثم قالت : كل واحدة منكن بأبيها معجبة .

(بجمع الأمثال ٢ : ٥٤ وجمهرة الأمثال ٢ : ١٢٣)

-
- (١) الخطار : جمع خطر كسبب وهو السبق يتراهن عليه .
 (٢) العِشار : جمع عِشراء كنفساء وهي من النوق التي مضى لخلها عشرة أشهر أو ثمانية .
 (٣) الحوار بالضم وقد يكسر : ولد الناقة ساعة تضعه .
 (٤) الوزر : الملجأ . (٥) الرذوم : القصعة الممتلئة تقصيب جوانبها .
 (٦) ماردة : أى بلغت الغاية .
 (٧) وجد به بالكسر : أحبه .
 (٨) النفل : الهبة .

عقيراء الكاهنة تعبر عن رؤيا مرثد بن عبد كلال

روى أن مرثد بن عبد كلال قفل من غزوة غزاها بغنائم عظيمة ، فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يمتثلونه ، فرفع الحجاب عن الوافدين ، وأوسعهم عطاء ، واشتد سروره بهم ، فبينما هو كذلك إذ نام يوماً فرأى رؤيا في المنام أخافته وأذعرتة وهالته في حال منامه ، فلما انتبه أنسبها حتى لم يذكر منها شيئاً ، وثبت ارتياعه في نفسه بها ، فانقلب سروره حزناً ، واحتجب عن الوفود حتى أساءوا به الظن ، ثم إنه حشر الكهان ، فجعل يخلو بكاهن كاهن . ثم يقول : أخبرني عما أريد أن أسألك عنه ، فيجيبه الكاهن بأن لا علم عندي ، حتى لم يدع كاهناً علمه إلا كان إليه منذ ذلك ، فتضاعف قلقه ، وطال أرقه ، وكانت أمة قد تسكنت ، فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك ، إن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه ، لأن أتباع الكواهن من الجان ، ألطف وأظرف من أتباع الكهان ، فأمر بحشر الكواهن إليه ، وسألهم كما سأل الكهان ، فلم يجد عند واحدة منهم علماً بما أراد علمه ، ولما يئس من طلبته سلا عنها ، ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد ، فأوغل في طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرفعت له آيات من مخرأ^(١) جبل ، وكان قد لفحه الحجير ، فعدل إلى الآيات ، وقصد بيتاً منها كان منفرداً عنها ، فبرزت إليه منه عجوز ، فقالت له : انزل بالرحب والسعة ، والأمن والدعة ، والجفنة المددعة^(٢) ، والعلبة المترعة^(٣) ، فنزل عن جواده ، ودخل البيت ، فلما احتجب عن الشمس ، وخفقت عليه

(١) أي في كنفه وستره .

(٢) الجفنة : القصعة ، والمددعة : التي ملئت بقوة ثم حركت حتى تراض ما فيها ، ثم ملئت بعد ذلك .

(٣) العلبة : قلع نخم من جلود الإبل أو من خشب يحلب فيها ، والمترعة : المملوءة .

الآرواح^(١) ، نام فلم يستيقظ حتى تصرّم الهجين ، لجلس يمسح عينيه ، فإذا هو بين يديه فتاة لم ير مثله قواماً ولا جمالاً ، فقالت : « أبيت اللعن أيها الملك الهمام ! هل لك في الطعام ؟ » فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه لما رأى أنها عرفتّه ، وتصامّ عن كلمتها ، فقالت له : « لا حذر ، فذاك البشر ، فخذك الأكبر ، وحظنا بك الأوفر » ، ثم قربت إليه ثريداً وقديداً وحينساً^(٢) ، وقامت تذبّث عنقه ، حتى انتهى أكله ، ثم سقته لبناً صريفاً وضريباً^(٣) ، فشرب ماشاء ، وجعل يتأملها مُقبلة ومدبرةً ، فلأت عينيه حسناً ، وقلبه هوى ، فقال لها : ما اسمك يا جارية ؟ قالت : اسمي عفراء ، فقال لها : يا عفراء ، من الذى دعوتّه بالملك الهمام ؟ قالت : « مرؤد العظيم الشأن ، حاشر الكواهن والسكران ، المعضلة بعد عنها الجان » ، فقال يا عفراء : أتعلمين تلك المعضلة ؟ قالت : « أجل أيها الملك ، إنها رؤيا منام ، ليست بأضغاث^(٤) أحلام » . قال الملك : أصبت يا عفراء ، فأتلك الرؤيا ؟ قالت : رأيت أعاصير^(٥) زواجع بعضها لبعض تابع ، فيها لب لاعم ، ولها دخان ساطع ، يقفوها نهر مُتدافع ، وسمعت فيها أنت سامع ، دعاء ذى جرس^(٥)

(١) الآرواح ، والرياح : جمع ريح .

(٢) القديد : اللحم المقدد ، أو أقطع منه طولا ، والحليس تمر يخلط بسمن وأقط ، فيعجن شديداً ثم يندر منه نواه ، والأقط شيء يتخذ من الخبيض الغنمى والخبيث : تمر يخلط بسمن .

(٣) الصريف : اللبن ساعة الحلب والضريب : اللبن يحلب من عدة لقاح في إناء .

(٤) أضغاث أحلام : رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها .

(٥) الأعاصير : جمع إعصار وهو الريح التى تهب من الأرض كالعمود نحو السماء ، أو التى فيها العصار بالكسر وهو الغيار الشديد .

صايرغ : هلبوا إلى المشارع^(١) ، فروى جارع^(٢) . وغريق كارع^(٣) ، فقال الملك : أجل ، هذه رؤى ، فما تأويلها يا عفيرة ؟ قالت : د الأعاصير الزوابع ، ملوك تبابع^(٤) ، والنهر علم واسع ، والداعى نبي شافع ، والجارع ولى تابع ، والسكارع' عدو منازع . فقال الملك : يا عفيرة ، أسلم هذا النبي أم حرب ؟ فقالت : د أفسم' برافع السماء ، ومنزل الماء من العماء^(٥) ، وإنه لمطيل' الدماء^(٦) ، ومنطق' العقائل تططق' الإمام^(٧) . فقال الملك : إلام يدعو يا عفيرة ؟ قالت : د إلى صلاة وصيام ، وصلة أرحام ، وكسر أصنام : وتعطيل أزلام^(٨) ، واجتناب آثام ، فقال الملك : يا عفيرة ، إذا ذبح قومه

-
- (١) المشارع : جمع مشرعة وهي مورد الشاربة .
 (٢) جارع : فاعل من جرح الماء كسمع ومنع إذا بلعه .
 (٣) كارع : فاعل من كرع في الماء كسمع ومنع تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإزاء . (٤) التبابع : جمع تبع كسكر : ملوك الين .
 (٥) العماء : السحاب الكشيف .
 (٦) انظر قوله عليه الصلاة والسلام في خطبته في حجة الوداع د وإن دماء الجاهلية موضوعة .
 (٧) العقائل : كرائم النساء جمع عقيلة ، والنطق : جمع نطق ككتاب ، والنطاق والمنطقة : ما تشد به المرأة وسطها للهننة ، ونطقها تنطقا : ألبسها النطاق فتنتطق وانتطقت ، ومنطق النساء أى يسبين فيشددن النطق على أوساطهن للخدمة كالإماء .

(٨) الأزلام : جمع زلم ، كسبب : قداح كان العرب يستقسمون بها في الجاهلية (أى يطلبون معرفة ما قسم لهم) وذلك أنهم كانوا إذا قصدوا فعلا من تجارة أو سفر أجالوا ثلاثة قداح (القداح جمع قدح بالكسر ، وهو : السهم قبل أن يراش) وكانت عند أصنامهم ، أحدها مكتوب عليه : أمرني ربي ، والثاني نهاني ربي ، والثالث : غفل . ويتصرف الواحد منهم حسب ما هو مكتوب .

فمن أعضاده^(١)؛ قالت: أعضاده غطاريف^(٢) يمانون، طائرهم به ميمون،
يغزيهم فيغزون، ويمدّمت^(٣) بهم الحزون، وإلى نصره يهتزون، فأطرق
الملك يؤامر^(٤) نفسه في خطبتها، فقالت: «أبيت اللعن أيها الملك! إن تابعي
خيور، ولأمرى محبوب، وناحى مشبور، والكاف في ثبور^(٥)، فنهض
الملك وجمال في صهوة^(٦) جواده، وانطلق، فبعث إليها بمائة ناقة كوما .
(بلوغ الأرب ٣: ٢٩٦)

ومن كلام عفيفاء السكينة - نرى أن هناك من النساء في الجاهلية من
تتصف بالشفاعة وصفاء الروح، فقد تلبأت عفيفاء بوجود النبي الكريم
ووصفته بأنه مطال الدماء، ومنطق القبائل نطق الإمام، واعلموا في تدبورها هذا
قد اطلعت على هذه الأخبار عن طريق اتصالها بالأخبار والرهبان والحنفاء
كورقة بن نوفل وأمية بن أبي الصلت وغيرهما .

كما يدل حديث عفيفاء على وجود ما يسمى « بعلم تفسير الأحلام »، كعلم
له قواعد وأصوله عند العرب وبخاصة الحكماء .

وأياً ما كان فإن أدب السكواهن موسوعة أدبية وتاريخية وعلمية، قدمت
لنا وصفاً تسجيلياً، لمعاداة العرب وطبائعهم، وأخلاقهم وعلومهم وثقافتهم
في باقة مسجوعة موسيقية ترتاح لها النفس، ويهفو لها القلب .

-
- (١) الأعضاد: الأنصار جمع عضد، والذبح معروف، والمراد هنا إذا
قطعوه وتركوا نصرته . (٢) الغطاريف: جمع غطريف وهو السيد الشريف .
(٣) يسهل، والحزون: جمع حزن كشمس وهو ما غلظ من الأرض .
(٤) يشاور . (٥) الثبور: الهلاك . (٦) الصهوة: مقعد الفارس .

الفصل الثاني

الحكمة والمثل

العرب - كغيرهم من الشعوب الشرقية عامة والسامية خاصة - شديدوا الميل إلى إرسال الحكمة والمثل وهما على لسانهم في كل حال ، يدعمون بهما أقوالهم ، ويعلمون بهما أعمالهم فيطلقونهما عند كل فرحة وترحة ، ويوردونهما في جميع أحداثهم متضمنة تجاربهم ، وخبرتهم في حياتهم ومجتمعهم ، فهي عندهم من ذخائر الدهر ، وحكم الزمان ، وثمار الشيخوخة المحزنة التي توجه الناس إلى الطريق الأقوم في تنظيم شؤونهم القبلية والحضرية

وللحكمة عند العرب مكانة عالية ، ومنزلة مرموقة وهي (وهي الكلام ، وجوهر اللفظ وحل المعاني) وهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة لم يسر شيء مسيرها ، ولا عم عمومها حتى قيل « أسير من مثل » ،

وقال الشاعر :

ما أنت إلا مثل سائر يعرفه الجاهل والخابر

وقد ضرب الله عز وجل الأمثال في كتابه ، وضربها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حديثه . قال الله تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له »^(١) ومثل هذا كثير في القرآن الكريم .

وجاء في المناظرة التي جرت بين النعمان بن المنذر ، وكسري أنوشروان في شأن العرب :

(١) آخر سورة الحج .

« قال النعمان : وأما الأمم التي ذكرت فأية أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها .

قال كسرى : بماذا فضلتها ؟

قال النعمان : بعزها ، ومنعتها ، وحسن وجوهها ، وبأسها ، وسخاها وحكمة أسنتها .

وأما حكمة أسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالآشياء وضربهم « الأمثال » وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشئ من السنة الأجناس ،^(١) ومن ثم ترى أن الحكمة والمثل من موضوعات فخر العرب لأنهما دليل الحصافة والفهم ، ولا عجب في ذلك فإنهما فلسفة الحياة وعصارة خبرة الدهور وخلاصة نور العقل ، ونور اليقين ، بل إنهما عينا النفس العربية ومرآة ما يحول فيها ، وطريق الاستقامة إلى المثل العليا .

ومن زعماء الحكمة والمثل أكرم بن صيفي وقل من جاده من حكام عصره في ضرب الأمثال وسوق الحكمة ، وكان في خطبه قليل « المجاز حسن الإيجاز » ، حلو الألفاظ ، دقيق المعاني مولعاً بالأمثال يقول : « حسبك من شر سماعة » ، « الصمت حكم وقليل فاعله » ، وزهير بن أبي سلمى المزني ، وقد أكثر من الأمثال والحكم بما لم يفقه شاعر جاهلي ، وبما فتح به باب الحكم والأمثال في الشعر العربي فكان كلامه الدرب الذي سلكه الشعراء لبلوغ الحكمة ومن أمثلته :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذمماً عليه ويندم
ولبيد بن ربيعة ، وهو ممن أبدعوا في الحكم والأمثال ، وقد ثبت في

(١) الحكم والأمثال ص ١٠ ، ١١ .

الصحيحين شهادة للنبي ﷺ له بقوله : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة ليبيد :

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل *

وطرفة بن العبد الشاب الذي انهالت عليه المصائب فأنطقته بالحكمة التي نثرها في ديوانه فكانت مصبوغة بصبغة الوعي والحسنة :

الخير خير وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد
وأمية بن أبي الصلت الذي يمتاز شعره بتضمنه روائع الحكمة والمثل يقول :
عطاؤك زين لامرئ قد حبوته بخير وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرئ بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

وعدي بن زيد العبادي يقول من قصيدة نظمها في السجن ووجهها إلى النعمان
أبي قابوس يتظلم من سجنه (وكان قد وشى بعض الخاقدين به إلى النعمان فسجنه) :
أيها الشامت المعير بالدهر أنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيام بل أنت جاهل مفرود
من رأيت المتنون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى ، كسرى الملهوك أبوساسان أم أين قبله سابور

وأسلوب عدي ساذج لينته الحاضرة ، وجعلته ناعم الجرس رائع التشبيه
والتصوير أحياناً ، وإنك لتشعر أن لغة الشاعر تتناقل ولا تنقاد له ناصية
القوافي ، ولهذا لم يعد العلماء الأقدمون حجة في الشعر (١) .

وقد شاركت المرأة الأدبية الرجال الأدباء في ضرب الأمثال والحكم ،
وكن أمثلة رائعة في هذا الفن ، ومنهن عنمة بنت مطرود البجليه ، والحراء

(١) والحديد في الأدب العرب ج ٥ ص ٢٣٥ .

بنت ضمرة بن جابر وحبي بنت مالك العدوانية ، والعجفاء بنت علقمة السعدى
والخنساء بنت عمرو بن الشريد ، والأمثلة التي أرسلتها المرأة العربية من الوجهة
الأدبية والفنية تقوم على التشبيه والاستعارة والتمثيل ، وهى لا تعدو الأمثال
العربية الأخرى التى ساقها الحكماء - ووصلت صورة الكلام فيها إلى الغاية
القصى فى البلاغة من حيث إيجاز اللفظ وصحة المعنى ، وحسن البيان ، ولطف
الإشارة وإصابة الغرض ، وصدق التجربة ، وتجعل النفوس ترتاح لها وتزدهش
لحفظها ، ليسير مثولها ، وحسن وقعها ، وسهولة الاحتجاج بها ، ولأنها تودث
ما تتخلله من الكلام رواجاً ، وتكتسبه قبولاً ، كما أنها مستقاة من حياة البداوة ،
ومستوحاة من رمال الصحراء ، وطبيعة أرضها وسماها وحيوانها ونباتها ،
وعادات العرب وتقاليدهم وحرورهم وغزواتهم ، وحلمهم وترسألهم وشجاعتهم
وجودهم ، وعزهم وشرفهم وسائر أخلاقهم العربية ؛ فإن رأيت زوجها تخلف
عن لقاء العدو واعتكف فى منزله ، ثم اغتاض من نظرها وإعجابها بالمقاتلين
الشجعان ، انطلقت قائلة :

* أغيرة وجبننا *

فذهبت مثلاً ، وإن سئلت ما ليس فى بيتها ، فلما عز عليها عطاؤه ،
وقيل لها : أتبخلين ؟ انطلقت قائلة :

* بئى يبخل لا أنا *

وقولها :

ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل

* * *

وقد ظهرت فى العصر الجاهلى أدبيات حكميات اشتهرن بضرب المثل
والحكمة ، فذهب كلامهن مثلاً دائماً ، يتمثل به فى جميع المواقف ، والمرأة
من طبيعتها تنجح دائماً إلى الحكمة وعدم التسرع فى بعض الأمور ، وإنها

كثيراً ما تهتدى عن طريق شعورها وبصيرتها إلى حقائق قد لا يستطيع الرجل أن يهتدى إليها بعقله وتفكيره المجرد^(١) .

وقد نبغ في مجال الحكمة نساء كثيرات ، ومنهن عثمة بنت مطرود البجليّة والحراء بنت ضمرة ، وحبي بنت مالك العدوانية ، وعصام السكندرية ، والعجفاء بنت علقمة السعدى ، والخنساء . بنت عمرو بن الشريد ، ودقذور ، بنت قيس بن خالد الشيباني ، والأمثلة الآتية : تبين مدى ما بلغت إليه المرأة من الدقة المتناهية في صوغ الأمثال ، فجاءت أمثلة معبرة عن روح العصر الذي يعيش فيه كما تضمنت خلاصة تجاربهم في الحياة وصارت أمثلة خالدة تعبر عن أدهم ونبوغهم :

(لا تعدم الحسناء ذاماً)^(٢)

قالته شحى بنت مالك العدوانية .

(لا عتاب على الجنديل)

يضرب في الأمر إذا وقع لا مرد له .

وأصله ما حدثوا أن إحدى ملكات سبأ ، وفد إليها قوم يخطبونها . فقالت : ليصف كل رجل منكم نفسه ، وإيصدق ، وليوجز . لا تقدّم إن تقدمت ، أو أدع إن تركت على علم . فتسكلم رجل منهم يقال له مدرك ، فقال : إن أبى كان في الدوابذخ ، والحسب الشامخ . وأنا شرس الخليفة ، غير رعديد عند الحقيقة^(٣) ، قالت . لا عتاب على الجنديل . فأرسلتها مثلاً . ثم تسكلم

(١) دسيكلوجية المرأة ، الدكتور زكريا ابراهيم ، مكتبة مصر - الفجالة ص ٣٥

(٢) الذام : العيب .

(٧) الرعديد : الجبان المستطار القلب ، والحقيقة : ما يحق على المرء أن يحميه ،

وقد يريدون بها اللواء .

آخر منهم يقال له ضبيس بن شريس . فقال : أنا في مال أثير ، ومخلق غير خبيث ، وحسب غير عثيث ، أحسنو الفعل بالفعل ، وأجزى القرض بالقرض^(١) . فقالت : لا يسرك غائباً ، من لا يسرك شاهداً ، فأرسلتها مثلاً . ثم تسلم آخر منهم يقال له شماس بن عباس . فقال : أنا شماس بن عباس ، معروف بالندی والباس ، حسن الخلق في سجية ، والعدل في قضية ، مالى غير محظور على القل^(٢) والسكر ، وهالى^(٣) غير محبوب على العسر واليسر . قالت : الخير متبع ، والشر محذور . فأرسلتها مثلاً . ثم قالت : اسمع يا مدرك ، وأنت يا ضبيس : لن يستقيم معك معاشرة لعشير حتى يكون فيك لين العريكة . وأما أنت يا شماس فقد حلت منى محل الأهزج^(٤) من الكنانة ، والواسطة من القلادة ، لدماثة خلقك ، وكرم طباعك ، ثم اسمع بخير أو دع ، فأرسلتها مثلاً وتزوجت شماساً .

(لو ترك القطا ليلاً لنام)

يضرب لمن حمل على مكروه من غير إرادته .
وأول من قاله دحذام بنت الريان ، وذلك أن طاس بن خلاج سار إلى أبيها في حمير وخشم وجعفي وهمدان . ولقيهم الريان في أربعة عشر حياً من أحياء اليمن ، فاقتلوا قتلاً شديداً ، ثم تهاجروا .
وإن الريان خرج تحت ليلته هو وأصحابه هُرباً ، فساروا يومهم وليلتهم ، ثم عسكروا . فأصبح طاس ، فغدا لقتالهم فإذا الأرض منهم بلاقع ، فجرد

(١) القرض : القطع ، والقرض : الخز ، يريد أنه لا يصبر على ضيم ، بل يجرى الشر بأشد منه .
(٢) الجال : رخاء العيش .
(٣) الأهزج : خير السهام وأفضلها تدخراً لشديدة .

خيله . وحث في الطلب ، فاتهموا إلى عسكر الريان ليلاً ، فلما كانوا قريباً منه ،
أثاروا القطا ، فمرت بأصحاب الريان ، فخرجت حذام بنت الريان إلى قومها فقالت :
ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا ليلاً لناما
أى إن القطا لو ترك ما طار هذه الساعة ، وقد أتاكم القوم . فلم يلتفتوا
إلى قولها ، وأخلدوا إلى المضاجع لما نالهم من التعب . فقام ديسم بن طارق ،
وقال بصوت عال :

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام
وئار القوم ، فاجتروا إلى واد قريب منهم ، فأنحازوا به ، حتى أصبحوا ،
وامتنعوا منهم .

(مرعى ولا كالسعدان)

يضرب للشئ يفضل على أقرانه وأشكاله .

وأول من قال ذلك : د الخنساء بنت عمرو بن الشريد . وذلك أنها أقبلت
من الموسم — في عكاظ — فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت عتبة بن
ربيعة . فعرجت عليها ، وهى تشدهم مرأتى فى أهل بيتها . فلما دنت منها قالت :
على من تبكين ؟ قالت : أبكى سادة مضوا . قالت : أنشدنى بعض ما قلت .
فأنشدت هند أبياتاً . فقالت الخنساء د مرعى ولا كالسعدان .

(ماء ولا كصدا)

يضرب للرجلين لهما فضل ، ولكن أحدهما أفضل .

والمثل لقذور بنت قيس بن خالد ذى الجدين الشيباني . وكان من حديثها أن
زُرارة بن عدس رأى ابنه لقيطاً يختال ، فقال له : كأنك أصبحت ابنة قيس بن
خالد ، ومائة من هجان المنذر بن ماء السماء ! فخلف لقيط لا يمس الطيب ،

ولا يشرب الخمر ، حتى يصيب ذلك . فسار حتى أتى قيس بن خالد - وهو سيد ربيعة - وكانت عليه يمين لا يخطب لإنسان إليه علانية إلا أصابه بسوء . فخطب إليه لقيط في مجلسه ، وقال : عرفت أنى إن أظنك لم أشنك ، وإن أنا جك لم أخدعك . فزوجه ابنته القذور ، وساق المهر عنه ، وهداها إليه من ليلته . فاحتمل بها إلى المنذر ، فأخبره بما قال أبوه . فأعطاه مائة من هجانه ، فرحل إلى أهله فقالت : ألقى أبى وأودعه . فلما جاءته قال لها : يا بنية ، كوفى له أمة يكن لك عبداً ، وليكن أطيب طيبك الماء . إنه فارس مضر ، ويوشك أن يقتل ، فإن كان ذلك فلا تخمشى له وجهاً ، ولا تحلقى شعراً . فقتل لقيط ، فاحتملت إلى قومها ، فتزوجها بعده رجل منهم ، فجعلت تكثر ذكر لقيط ، فقال لها : وأى شيء رأيت منه كان أحسن في عينك ؟ قالت : كل أمره حسن ، ولكنى أحدثك إنه خرج إلى الصيد في يوم دُجن^(١) وقد تطيب وشرب ، فرجع إلى ولقميصه نضج من دماء صيد ، والمسك يضوع من أطرافه ... فسكت عنها ، حتى إذا كان يوم دجن شرب ، وتطيب ، وركب ، وصرع من الصيد ، وأتى وبه نضج من الدم والطيب . فقال لها : كيف ترىنى ؟ أنا أحسن أم لقيط ؟ فقالت : دماء ولا كصداء .

* * *

أسلوب الأمثال النسائية : ينسب أسلوب الأمثال بشدة الإيجاز ، وهذا ما يميز صيغة الأمثلة كما تتميز بالفكرة الصائبة ، وروعة التعبير ، وهذا ما جعلها أسير على الزمن ، كما قالوا قديماً د أسير من مثل ، إذ أن إيجازها وجمالها يسهلان استظهارها وذيوها ، وتمثل الناس بها في شتى أنحاء الدنيا . كما فلاحظ أن الأمثال يكثر فيها الحذف والإيماء ، وتنصف عموماً بمثانة

(١) الدجن : المطر الكثير .

السبك وجودة التقسيم مع الميل إلى النسق الإنشائي العالى من تقديم القيود على المقيدات والمسند على المسند إليه ، ومع أنها ليست إلا فقرات قصيرة يصعب الحكم بها على النسق الإنشائي في ذلك العهد ، فإننا نعرف بها ما بلغتته العربية منذ العهد النبوى أو ما قبله من التطور في بناء الجمل ، وتركيب الألفاظ ويمكن استخدامها للحكم على ما نقل لنا من آثار ذلك العهد البعيد (١) .

كما نلاحظ أن الأمثلة مبنية على الاستعارة التصريفية قد شبت فيه حالة المضرب بحالة المورد إذ يعبر عن حالة المضرب بالعبرة التي قيلت في حالة المورد على سبيل الاستعارة التصريفية التمثيلية إلا إذا كان المثل صيغة تفضيل فيكون ضرب المثل تشبيهاً عادياً .

والأمثلة النسائية السابقة كلها ترتبط بحادثة أو قصة ، وقعت وهي - كما قدمنا أولاً - تعبر عن خلاصات لتجارب صدرت في أكثرها عن ذكاء ودقة ملاحظة ونفاذ بصيرة ، كما نلاحظ ارتباطها بالبيئة العربية ، وأنها صدى لها وتعبر عنها تعبيراً فطرياً صادقاً ، لا تسكف فيه ولا تصنع إذ هو إحساس الأمة وشعورها وقلوبها النابض ، ولذلك قيل (المثل صوت الشعب) .

وأغراض الأمثلة التي قالت فيها المرأة العربية متشعبة وكثيرة فمنها ما يتصل بالحرب كقول الخراء بنت ضمرة : « صارت الفتيان حمماً ، وقول حذام بنت الريان : « لو ترك القحط ليلاً زنام ، ومنها ما يكون في مقام المفاضلة كقول قنور بنت قيس « ماء ولا كصداء » ، « ومرعى ولا كالسعدان ، ومنها ما يضرب في افتخار الرجل بعشيرته وقومه كقول العجفاء : « كل فتاة بأبيها معجبة » .

ومنها ما يمثل النوى عن صفة مذمومة أو بمدوحة كقولها : « أغيرة وجبنا ، و « بيتي يبخل لا أنا ، و « لا تأمنى الأحق وفي يده سكين ، و « رمتني بدانها

وانسلت، ومنها ما يمثل منهج خاصاً أو اتجاهات معينة أو أغراض أخرى تفهم من السياق المتقدم، هذا وتتخذ الأمثلة في الدراسات الحديثة مفاتيح لمعرفة طبيعة الشعب واتجاهاته وميوله العميقة المستقرة في نفوس أبنائه^(١).

وما من ريب في أن هذه الأمثال تستحوذ على ضروب من الجمال الفني يرجع بعضها إلى اختيار ألفاظها وصيغها ويرجع بعضها الآخر إلى ما تعتمد عليه من تصوير أو سجع وتوقيع، وهذا هو معنى ما نذهب إليه من أن الأمثال الجاهلية تحتوي في بعض جوانبها آثاراً من الصنعة، ولعل ذلك ما جعل الفارابي يقول: إنها من أبلغ الحكمة، ويقول ابن المقفع أنها آتق للسمع بينما يقول النظام أنها نهاية البلاغة، لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة السكناية، وطبعي أن تظهر الصنعة في بعض الأمثال الجاهلية، فقد كان العرب حينئذ مشغوفين بالبيان والبلاغة وصور القرآن الكريم هذا الجانب فيهم، فقال جل شأنه « ولتعرفنهم في لحن القول، وقال: « وإن يقولوا تسمع لقولهم، وقال: « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا، ».

وفي جميع آثار نثرهم وشعرهم نجد آثار هذه الرغبة الماحقة في استمالتهم الاسماع بجمال منطقهم وخلابة أسنتهم، وقد دفعتهم تلك الرغبة دفعاً إلى تحسين كلامهم وتحرير ألفاظهم حتى في أمثالهم، وهياً لذلك أن كثيراً من بلغاتهم وفصحاتهم أسهموا في صناعة هذه الأمثال؛ فكان طبعياً أن تظهر فيها خصائصهم الفنية التي يستظفرونها في بيانهم وتديب عبادانهم حين ينظمون أو يخطبون.

(١) النصوص المقررة ١ / ١٤٥ — الأهرام — القاهرة .

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٦ .

الباب الثاني

النثر في العصر الإسلامي وعصر بنى أمية

كان للمرأة العربية في صدر الإسلام وبنى أمية نشاط ملحوظ ، ونبه شأنها في النثر ونقده ، وكان للنساء دور هام في تجميع المقاتلين في الحروب والغزوات بخطبهن الرنانة ، وألفاظهن الضخمة المجلجلة ، وكان خطبهن في التحميس سحر بابل ، يقذفن بالخطب الحارة ، كالفحول تهدد في الشقاشق مثل : عكرشة بنت الأطرش ، وأم الخير بنت الحريش البارقية ، والزرقاء بنت عدى الهمدانية .

كما كان لغيرهن في مواقع أخرى مواقع مشهورة ، وخطب وأقوال مشهودة ، فقد شهدت أسماء بنت أبى بكر اليرموك مع زوجها الزبير بن العوام ، وابنها عبد الله بن الزبير ، وكان موقفها من ابنها ، ونصحها له بالقتال حتى الموت في حربه مع الحجاج بمكة قدرة تفوق قدرة الرجال . وشهدت السيدة عائشة موقعة الجمل ، وخطبها في هذا المقام مدوية ومعروفة ، كما شهدت النساء موقعة القادسية ، وحديثها في هذه الموقعة لبنيها بأسر القلوب وبهرك الوجدان ، فكانت تحضنهم على الجهاد والصبر والثبات ، بكلماتها الأسيرة وعباراتها البليغة مما كان له الأثر الأكبر في إذكاء نار الحماسة في قلوب المجاهدين ، فهبوا يدافعون عن بيضة الإسلام ، في عزم وثاب ، ونفس متطلعة إلى النصر ، وحقق الله لهم ، ففازوا بالنصر المبين ، والظفر العظيم .

كما لا تنسى منتديات الأدب والشعر مجالس سكيئة بنت الحسين فقد كان يند إليهما الأدباء والشعراء والنقاد فيحتكون إليهما فيما أنتجته عقولهم وأفكارهم من النظم والنثر ، وتناقشهم مناقشة أدبية جادة ، وتغنمهم بوجهة نظرها ،

- ٩٤ -

في غير حيف ولا شطاط ، حتى شهد لها علماء الأدب بفسوخ قدمها في
هذا الميدان .

وغيرهن كثيرات ممن شيدن صروح الأدب ، ورفعن منار العرفان ،
وكن معلمات لجيل متأدب بأداب الإسلام ، وناهل من فيض القرآن
والحديث .

وأفضل كلام نبدأ به نثر النساء ؛ حديث النسوة الذي رواه الشيخان
البخاري ومسلم .

بلاغة النساء (كما رواها الشيخان)

(حديث أم زرع)

فقد أخرج البخاري ومسلم^(١) والترمذي في الشمائل وأبو عبيد القاسم ابن سلام والهيثم بن عدي والحريث بن أبي أسامة والإسماعيلي وابن السكيت وابن الأنباري وأبو يعلى والزبير بن بكار والطبراني وغيرهم ، واللفظ لمجموعهم .

عن عائشة رضى الله عنها ، قالت :

جلست إحدى عشرة امرأة من أهل اليمن ، فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً .

فقلت الأولى : زوجى لحم جمل غث ، على رأس جبل وعث ، لا سهل فیرتقى ، ولا سمین فینتقل .

قالت الثانية : زوجى لا أبث خبره ، إني أخاف أن لا أذره ، إن أذكره أذكر حجره وبجره .

قالت الثالثة : زوجى العششئق ، إن أنطق أطلق ، وإن أسكت أعلق ، [على حد السنن المذلق] .

قالت الرابعة : زوجى كليل تهامة ، لآخر ولا قر ، ولا وخامة ولا سامة ، [والغيث غيث غمامة] .

قالت الخامسة : زوجى إن دخل فهد ، وإن خرج أسد ، ولا يسأل عما عهد [ولا يرفع اليوم لعد] .

(١) راجعنا هذا الحديث على صحيح مسلم ١٥ : ٢١٢ والتجريد للزيدي ١٣٢: ٢ وفيما بين الأقواس زيادة ليست في هذين الكتابين .

قالت السادسة : زوجن إن أكل السّف" (١) ، وإن اضطلع التّف" [وإذا ذبح اغتث] ولا يوج السكف ، ليعلم البث .

قالت السابعة : زوجى غيايا ، أو عيايا طباقاء ، كل داد له داء ، شجك [أو بجك] أو فلك أو جمع كلالك .

قالت الثامنة : زوجى المسّ مس أدنب ، والريح ريح زرّنب [وأنا أغلبه والناس يغلب] .

قالت التاسعة : زوجى رفيع العباد ، طويل النّسجاد ، عظيم (٢) الرماد ، قريب البيت من النّاد [لا يشيع ليلة يُضاف ، ولا ينام ليلة يخاف] .

قالت العاشرة : زوجى مالِك ، وما مالِك (٣) مالِك خير من ذلك ، له إبل قايلات المسارح ، كثيرات المبارك ، إذا سمعن صوت المِهر أيقن أنهن هوالك ، [وهو إمام القوم في الممالك] .

قالت الحادية عشرة : زوجى أبو ذرع ، وما أبو ذرع ؟ أناس من محلى أدنى [وفرعى] وملأ من شحم عضدى ، وبجّحنى فبحجت" نفسى إلى (٤) ، وجدنى فى أهل غنيمة بشق ، فجعلنى فى أهل صهيل وأطيط ودائس ومُنق ، فعنده أقول فلا أنبّح ، وأردد فأتصّبّح ، وأشرب فأتقنّح ، وآكل فأتتمنّح .
أم أبى ذرع : فما أبى ذرع ؟ عكوهما رداح ، وييتها فساح .

(١) فى رواية البخارى ومسلم : لف .

(٢) فى رواية البخارى ومسلم : رفيع .

(٣) فى رواية البخارى ومسلم : وما مالِك .

(٤) فى رواية البخارى ومسلم : فنحجت إلى نفسى .

ابن أبي زرع : فما ابن أبي زرع ؟ كسل شطبية ، ونشبهه ذراع الجفرة ،
[وترويه فيقة اليعسرة ، ويميسر في حلق النثرة] .

بنت أبي زرع : فما بنت أبي زرع ؟ طوع أبيها ، وطوع أمها [وزين
أهلها ونسائها] وملء كسائها [وصفر ^(١) رداؤها] وعقر ^(٢) جارتها [قباء
هضيمة الحشا ، جائلة الوشاح ، عكناء ، فعماء ، نجلاء ، دجاء ، رجاء ،
زجاء ، قنواء ، مؤنقة مُنيفة ، برمود الظل ، وفي الآل ، كريمة الخيل] .
جارية أبي زرع : فما جارية أبي زرع ؟ لا تبث حديثنا تبشيراً ،
ولا تنقث ميرتنا تنقيشاً ، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً .

[ضيف أبي زرع : فما ضيف أبي زرع ؟ في شيع وري ورّع ^(٣)] .
[طهارة أبي زرع : فاطهارة أبي زرع ؟ لا تفتر ولا تعري ، تقدح وتنصب
أخرى ، فتلحق الآخرة بالاولى] .

[مال أبي زرع : فما مال أبي زرع ؟ على الجهم مكوس ، وعلى العفاة
محبوس] .

قالت : خرج أبو زرع من عندي والأوطاب تمخض ، فأتى امرأة معها
ولدان لها كالقهمدين يلعبان من تحت خصرها برمانتين ، فنسكحها فأعجبته ^(٤)
فلم تول به حتى طلقني [فاستبدلت وكل بدل أعور] فنسكحت بعده رجلاً

(١) قال ابن الأثير : صفر رداؤها وملء كسائها ؛ أي أنها ضامرة البطن ،
فكأن رداها صفر ، أي خال ، والرداء ينتهي إلى البطن فيقع عليه .

(٢) وعقر جارتها ، أي هلاكها من الحسد والغیظ ، ورواية البخاري ومسلم :
وغيظ جارتها .

(٣) الرّتع : التّعم .

(٤) عبارة البخاري ومسلم : يلعبان من تحت خصرها برمانتين ، فطلقني
ونسكحها ، فنسكحت بعده رجلاً سرياً ، وركب سرياً .

سرياً ، شرياً ، ركب وأخذ خطايا ، وأراح على نعماً ثرياً ، وأعطاني من كل راحة زوجاً ، وقال : كلّي أم زرع ، وميرى أهلك .

قالت : فلو جمعتُ كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبي زرع .

قالت عائشة : فقال لي رسول الله ﷺ : « كنت لك كأي زرع لأم زرع ، إلا أنه طلقها ، وإنّي لا أطلقك » ، فقالت عائشة : بأبي أنت وأمي ! لانت خير لي من أبي زرع لأم زرع .

[الغث : الهزيل . والوعث : الصعب المرتق . ويلتقي أى ليس له نقي يستخرج ، والنقي : المخ . وأرادت بعجره وبحره عيوبه الظاهرة والباطنة . والعشيق : السبي الخلق ، والمذاق : المحدد . والرخامة : الثقل . وفهد وأسد : فعل فعل الفهود من اللّين وقلة الشر ، وفعل الأسود من الشمامة والصرامة بين الناس . واقتف : جمع واستوعب . واشتف : استقصى . وغيايا (بالمعجمة) المنهمك في الشر . وعيايا (بالمهملة) الذى تعييه مباحضة النساء . وطباقاء : قيل : الأحق ، وقيل : الثقل الصدر عند الجماع . وشجك : جرح رأسك . وبجك : طعنك . وفلسك : جرح جسدك . والارنب : دويصة لينة الملس ناعمة الوبر . والزرنب : نبت طيب الريح . والشجاد : حمائل السيف . والمزهر : آلة من آلات اللهو . وأناس : أثقل . وفرعى : يدى . وبجحنى : عظمتى . وغنيمة : تصغير غنم . وشق (بالكسر) جهد من العيش . وأهل صهيل : أى خيل . وأطيط : أى لبل . ودائس : أى زرع . ومنيق (بضم الميم وكسر النون وتشديد القاف) أى أهل نقيق ، وهو أصوات المواشى ، وقيل الدجاج . وأنصبيح : أنام الشبحة . وأتقنح : لا أجد مسافاً . وأتمشع : أطعم غيرى . والعسكوم : الأعدال . ورداح : ملأى . وفساح : واسع . والشطبة : سعة النخل أى أنه مفهف خفيف اللحم ويؤخذ منه استحباب حسن المعاشرة للأهل وجواز الإخبار عن الأمم الخالية والتنافس في اختيار الأزواج] .

السيدة عائشة ترى أباهما

قالت عائشة في رثاء أبيها :

«نضر^(١) الله وجهك يا أبت ، وشكر لك صالح سمعك ، فلقد كنت
للدنيا مذلاً بإدبارك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها ، واتن كان أجل
الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك ، وأعظم المصائب بعده فقدك ، إن
كتاب الله ليعسد بحسن الصبر فيك حسن العوض منك ، وأنا أستنجز
موعود الله تعالى بالصبر فيك ، وأستقضي^(٢) بالاستغفار لك ، أما لئن قاموا
بأمر الدنيا ، لقد قت بأمر الدين ، لما وهى شعبه^(٣) وتفاقم صدعه^(٤) ،
ورجفت^(٥) جوانبه ، فعليك سلام الله ، توديع غير قالبة^(٦) لحياتك ،
ولا زارية^(٧) على القضاء فيك ،^(٨) .

ونلاحظ من قراءتنا للنص أن السيدة عائشة موفقة في اختيار ألفاظها ،
وعباراتها المنتقاة تعطى من المعاني ما لا يعطى غيرها فقد بدأت الموضوع
باختيار موفق (نضر الله وجهك يا أبت) فجاء لفظ نضر براعة استئصال
للكلمة ، وقد عبرت عن فجيعتها بكلمات موجزة بليغة ، أعطت لنا المعاني
الكثيرة «الشجن والحنين واللوعة والوجد ، والإكبار والإجلال بأبيها وقره
عينها ، والبر والوفاء لمن صنعها على عينه ورباهما في رحابه ، وهو الحب غرسه

(١) نضر : حسن . من النضارة والنضرة ، وهى الحسن .

(٢) أستقضي : أطلب قضاءه وما عنده . (٣) وهى شعبه : ضعف جمعه .

(٤) تفاقم صدعه : زاد تشققه . (٥) رجفت : اضطربت .

(٦) قالبة : كارهة . (٧) زارية : جاثبة ولائمة .

(٨) البيان والتبيين ٢ / ٢٤٠ . نهاية الأرب ٥ / ١٥٧ .

في ممارسته من الجوانح يد الرحمن ، فما يستطيع أى إنسان أن ينتزعه ، وهو حجب
رسمت أصوله وذهبت فروعه في السماء فهو خالد على الأيام ومر الأعوام ^(١)

العاطفة الحزينة الجياشة

وقد عبرت السيدة عائشة عن العاطفة الحزينة الجياشة ، أصدق تعبير والنساء
في هذا الميدان كما قد نمتجدهن يستنبطن في هذا الباب أساليب بديعة لم ينتبه
لها الفحول ، لما طبعن عليه من رقة الطباع وشدة الجزع في المصائب وصدق
الحس ، فيبرزن عواطفهن الحزينة في بيان سلس ملتح ، وكلام حزين أخاذ ،
وهن أكثر من الرجال ذكراً للوعة ، وأكثر حديثاً عن البكاء والدموع
والوجعة ، لأن ضعفن وأنوثتهن وسرعة انفعالهن كل أولئك يتجلى في
تصويرهن للنرح بالحديث عن البكاء ومخاطبة العيون والدموع ، والنساء أشجى
الناس قلباً عند المصيبة وأشدّها على هالك لما ركب الله في طبعهن من الخور
وضعف العزيمة وشدة الجزع ودواعى الرثاء ^(٢) .

والعاطفة الحزينة المشبوبة تملأها الخطوب وتشعلها الحوادث والمواقف
العنيفة ، تجرد المجال أمامها فسيحاً في صدور النساء والولدان ، فتترك فيها أعمق
الآثار ، وتدفعها في طريق الانفعال ، فإذا أخذ هذا الانفعال صورة الخطابة
أو الشعر أو المقال ، فهناك الأدب الرفيع ، والشعر الرائع ، والخطابة الباهرة ،
والسحر الحلال ، فالعاطفة القوية هي التي تمنح الأدب الحياة ، وتهبه أيضاً من
الحرارة والقوة .

وهذا هو ما تترجم عنه الخطبة ، وتعرضه في كل كلمة من كلماتها ، كما تلمح

(١) الخطابة في صدر الإسلام ج ١ : ٣٩٥ .

(٢) كتاب العمدة ٢ / ١٢٣ .

من خلالها شخصية السيدة عائشة الحزينة المشغوفة ، الباردة الوفية ، المثنية
المسكبة المؤمنة الصابرة ، الذاكرة الشاكرة .

وهذا الحزن القوى ، وتلك العاطفة المشبوبة طبعاً الأسلوب بطابعهما ،
وقد استمر هذا الفيض من قوة الشعور والعاطفة ، وقوة التعبير ما تلا في
الخطبة كلها ، فاحتفظ بمستوى واحد من بدتها إلى نهايتها ، وأعتقد أنها لو أطالت
لبقى كلامها كله على هذا النمط الرفيع الذي هو أليق الأنماط بالرائاء من لفظ شيى
إلى عاطفة حرى ، ومن صدق التعبير إلى وضوح المعانى ، ومن سهولة الأسلوب
إلى استيفاء الغرض ، ومن شيوخ الطبعية في الكلام إلى الأخذ بقدر من جمال
الصنعة ، في السجع والطباق والمقابلة والازدواج وتساوى الفواصل ، وحسن
التأليف الموسيقى بين الألفاظ ، المعانى والموسيقى والنغم وجمال الإيقاع^(١) .

خطبة السيدة عائشة في الفخر بأبيها

ذكروا أنه جاء عائشة أن قرماً يتناولون أبا بكر رضى الله عنه ، فأرسلت
إلى جماعة من الناس ، فلما حضروا أسدات أستارها ، ثم قالت :

«أبي وما أبيه اأبي والله لا تعطوه»^(٢) الأيدى ، ذلك طود منيف^(٣) ،
وفرع مديد^(٤) ، هيات ، كذبت الظنون ، أنجح^(٥) إذ أكديتم^(٦) ، وسبق
إذ نيتهم ، سبق الجراد إذا استولى على الأمد^(٧) ، فقى قریش ناشئاً ، وكمفها

(١) الخطابة في صدر الإسلام ج ١ : ٣٩٥ .

(٢) تعطوه : تناله .

(٣) طرد منيف : جبل مشرف .

(٤) فرع : الفرع أهل الشىء ، والشريف من القوم .

(٥) أنجح : نجح .

(٦) أكديتم : لم يعط خيراً .

(٧) الأمد : الغاية والنهاية .

كها ، يفك عانيها ، ويريش مملقها (١) ، ويرأب شعبها (٢) ويلم شعثها ، حتى حليته (٣) قلوبها ، ثم استشرى (٤) في دين الله ، فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل (٥) ، حتى اتخذ بفنائها مسجداً ، يحيي فيه ما أمات المبطلون .

فأكبرت ذلك رجالات من قریش ، فخبثت قسيها وفوتت سهامها (٦) ، وامتثلوه غرضاً ، فما فلوا له صفاة (٧) ، ولا قصفوا له قناه ، ومر على سيسائه (٨) .

وهنا نلاحظ أن النص يسير على نسق آخر مخالف للنسق بكتاها على أبيها فلكل مقام مقال كما قال أرباب البلاغة ، والسيدة عائشة كما لا يخفى نابغة في الذكاء والفصاحة والبلاغة فاخترت لكل موضع ما يناسبه من الألفاظ والعبارات ؛ فإن مقام الاختيار يتطلب الألفاظ الضخمة ، والعبارات الفخمة الرنانة : استمع إلى قولها تصف أباهما بالطود المنيف والجبل الأشم والفرع المديد وأنه سباق بلغ الغاية ، وأربى على النهاية تجدد بلاغة النبوة تشع من لسانها ، وسحر البيان ينبع من ثناياها ثم أسبغت عليه من الصفات الاجتماعية أنبلها ، ومن أفعال المروءات أشرفها وأمجدها (يفك العاني ، ويغنى الفقير ، ويلم الشعث ، ويرأب الصدع) .

والسيدة عائشة هنا غاضبة نفورة مدافعة محتجة ؛ فالعوامل على التفتيح والنمويل متظاهرة ، من أجل ذلك حشدت في خطبتها ما ينبغي لهذا الموقف من عدة ، وشاكت بين اللفظ والمعنى في الشرف والجودة والنقاء ؛ وعنيت بالفواصل

(١) يریش الملق : يعين الفقير .

(٢) رأب الشعب : أصلح الشق والكسر .

(٣) حليته القلوب : وجدته حلواً . (٤) استشرى : غضب وتعق .

(٥) الشكيمة : الأنفة والإباء .

(٦) فوق السهم : جعل له فوقاً وهو موضع السهم .

(٧) الصفاة : الحجر الصلد . (٨) سيسائه : أى شدته .

وتقصير الجمل ، وترادف التأكيد ، والتأليف بين الألفاظ تأليفاً يوفر لها الإيقاع والوزن وجمال المقاطع ، ومنحت قولها من صدق الإيمان وحرارة الانفعال قوة ووقماً وتأثيراً . والحق أن السر الأكبر فيما لهذه الخطبة من سلطان في النفوس راجع إلى تخير الألفاظ المشاكلة للغرض ، وحسن موافقتها للمعاني ، ألفاظها من فخامتها وجزالتها وقوتها جلال في القلوب ، وسلطان على النفوس ، إلى ما انضم لذلك من مزايها الأسلوب ، التي أمرنا إليها (١) .

وتمضى السيدة عائشة في مفاخر أبيها فتقول :

«فلما قبض الله نبيه ﷺ ضرب الشيطان رواقه (٢) ، ومد طنبجه (٣) ، ونصب حباله ، وأجلب بخيله ورجله (٤) ، واضطرب جبل الاسلام ، وصرج عهده (٥) ، وماج أهله ، وبغى الغوائل ، فظنت رجال أن قد أكتسبت أطباعهم (٦) ، ولات حين الذي يرجون . وأنسى والصديق بين أظهرهم ، فقام حاسراً مشمراً ، لجمع حاشيته (٧) ، ورفع قُطريه (٨) ، فرد رَسَن (٩) الإسلام على غربه (١٠) ، ولم شعثه بِطَبِيبِهِ (١١) ، وانتاش (١٢) الدين فنهشته ،

(١) الخطابة في صدر الإسلام ج ١ : ٣٩٨ .

(٢) الرواق : الخيمة والنسطاط .

(٣) الطنب : الحبل أو الوتد تشد به الخيمة .

(٤) أجلب : صاح . الخيل هنا راكب الخيل . والرجل اسم جمع راجل

أى ماش . (٥) صرج : اختلط واضطرب وفاق وفسد .

(٦) أكتسبت : قربت . (٧) الحاشية الجانِب والطرف .

(٨) القطر : الناحية . (٩) الرسن : الحبل .

(١٠) الغرب : حد الشيء . والمراد هنا الظهر .

(١١) الشعث : المتفرق . (١٢) انتاش : انتشل نعشه ، وأنعشه : رفهه .

فلما أراح^(١) الحق على أهله ، وقرر الرموس على كواهلها ، وحقق الدماء في
أهْلِها^(٢) ، أته منيته ، فسد ثلثته بنظيره في الرحمة ، وشقيقه في السيرة
والمعدلة ، ذلك ابن الخطاب ، فله درة^(٣) أم حلت به ، ودرت عليه ، لقد
أوحدت به^(٤) ، ففتح^(٥) الكفرة وديسها^(٦) ، وشرّد الشرك شذر مذر^(٧) ،
وَبَعج^(٨) الأرض وبَجعها^(٩) ، فقامت^(١٠) أكلها ، وانفطت غبائها ، تركامه^(١١)
ويصدف عنها ، وقصدى له ويأهاها ، ثم وزع فيها فيثها ، وودعها كما صحبها .

فأروني ماذا ترتنون ؟ وأي يومى أبى تنقمون ؟ أيوم إقامته إذ عدل فيكم ،
أم يوم ظمته إذ نظر لكم ؟^(١٢) أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . .
ثم أقبلت على الناس بوجهها ، فقالت : « أنشدكم الله ، هل أنكرتم
بما قلت شيئاً ؟ قالوا : اللهم لا ،^(١٣) .

وقد جاءت خطبتها فريدة في نوعها وأتمت لها البلاغة منقادة طائفة ،
كيف لا وقد تربت في مدرستها ، ورضعت من لبانها ، وقد صودت جماد أيها
في محاربة المرتدين والوقوف أمامهم أدق تصوير وأبلغه : ما أروع الاستعارات

-
- (١) أراح الحق : رده . (٢) الأهب : جمع إهاب وهو الجلد .
(٣) الدر : اللبن والنفوس والعمل . والمراد التعجب ، كأن ذلك لعظمته
منسوب (لله) . (٤) أوحدت به : جاءت به واحداً لا نظير له .
(٥) فتح : أذل وقهر . (٦) ديس : دوح : قهر وأذل .
(٧) شذر مذر : فى كل اتجاه . (٨) بعج الأرض : شقها .
(٩) بَجع : قهرها واستخرج ما فيها من الكنوز .
(١٠) قامت أكلها : أخرجت خيراتها . والآكل ما يؤكل .
(١١) ركامه : تعطف عليه . (١٢) نظر لكم : عطف عليكم .
(١٣) صبح الأعشى : ١ / ٢٤٨ . العقد الفريد ٢ / ٢٠٦ نهاية الأرب ٧ / ٢٣٠

في قوالها ، ضرب الشيطان رواقه ومد طنبه ، ونصب حباله ، وأجاب بخيله ورجله ؛ واضطرب جبل الإسلام ، ثم بينت كيف أن الصديق حينما رأى ذلك قام حامراً مشمراً يدافع عن بيضة الدين ، ويرد كيد المعتدين في عزم وثاب ، وهمة متطادة إلى النصر ، وقد حقق الله له أمله ، فولى المرتدون مذؤومين مدحورين وأضحت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ثم بينت كيف أنه حق الدماء ودرس الإسلام على غربه ، ولم الشعث ورأب الصدع .

د إلا أن ما ينبغي أن يلاحظ هنا هو أن أم المؤمنين قد حشدت في هذه الخطبة حمداً من العبارات القوية الرنانة ، والألفاظ الضخمة ، والكلمات التي لم يؤلف مثلها عند النبي ﷺ ؛ ولا الخلفاء بعده ؛ ولم تمنح هي إلى استعمالها في رثائها لأبيها ، حتى صارت الخطبة كلها نسيجاً واحداً ، وهيكلها صلباً متماسكاً . وليس العلم باللغة ومفرداتها ، صعباً وسهلها بمستغرب منها ؛ ولكن الذي نريد أن نذهب إليه هو أن السيدة عائشة قد تعمدت تعمداً أن تسوق خطبتها هذا المساق ، وأن تخرجها على هذه الصورة من الشدة والصلابة والأسر ، لتسترضى اتباع السامعين ، وتفرع أسماعهم وبصائرهم بهذه القدرة الباهرة في القول ، والبلاغة الظاهرة في الخطابة ؛ ورغبة في مفاجأتهم بما يهرم من الإحسان ؛ والعلو عليهم بما يقرهم من الحججة ؛ وركوبهم بما يشدهم من الفصاحة ، ورميمهم كما شئت بصنم الجنادل ، فتضيف بذلك إلى شخصيتها عاملاً آخر ؛ يضاعف مكانها من نفوسهم ؛ وييسر سلطانها عليهم ، فتصل إلى ما أرادت من طريق قريب ؛ وعلى أحسن وجه ، فما لا شك فيه أن قوة الشخصية والمقدرة الخطابية تتفاعلان وتعاونان ، وقد ساعدها على النجاح فيما قصدت إليه بحشد هذا الحشد من العبارات والتشبيهات والاستعارات والتخييل والصور ، رويّة أتيجت لها ، وإعداد واتتها فرصته ، حينما بلغها ما بلغها ، فأدارت هذه المعاني

فى نفسها ، واختارت لها من الألفاظ أشباهها ، واستحضرت فى ذهنها من الصور والتشبيه والاستعارة ما يلائمها ، حتى إذا دعت من دعت فلبوا دعوتها ، خرجت عليهم بتلك الخطبة التى أعدتها فى نفسها وزوتها ، (١) .

ولام المؤمنين خطب وأقوال أخرى أثرت عنها ليس فيها مثل هذا الإغفال فى الاستعارات والعبارات النازحة غير المألوفة ، ولا قريب منه ، فالميل إلى السهولة والطبيعة والبعد عن التشكف كان السمة الغالبة على خطب العصر وأقواله وقد نشأت رضى الله عنها أسمع نشأة ، فى حمى كهفين للفصاحة ، ومتبعين للبلاغة وفى ظل مدرسة تنشر فى الخافقين لواء الإسلام ، ونجعل القرآن إماماً فى هديه ومثلاً فى سماحة أسلوبه ، وقدوة فى نهج بلاغته ، وما نزعنا فى خطبتها هذا المنزع إلا وقد ترجّح عندها اختيار الأسلوب المشاكل لذلك الموقف ، لما هى فيه من غضب ودفاع واحتجاج وفخر .

وكتبت إلى معاوية : أما بعد فإنه من عمل بما يسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً .

وقالت : من أَرْضَى الله بِإِسْخَاطِ الناس كَفَاهُ الله ما بينه وبين الناس ومن أَرْضَى الناس بِإِسْخَاطِ الله وكله الله إلى الناس . وقالت : سلوا ربكم حتى الشمس فإنه إن لم ييسره لم ييسر ، وقالت : يا بنى لا تطالبوا ما عند الله من عند غير الله بما يسخط الله .

وقالت : مكارم الأخلاق عشر تكون فى العبد دون سيده ، وفى الخامل دون المذكور ، وفى المسود دون السيد : صدق الحديث وأداء الأمانة والصدق والصبر فى البأس والتذم للصاحب والتذم للجار ، والإعطاء فى النائية ، وإطعام المسكين ، والرفق بالملوك ، وبر الوالدين .

(١) نفس المصدر ص ٤٠١ .

وقالت : كل شرف دونه لؤم فاللؤم أولى به ، وكل لؤم دونه شرف فالشرف أولى به . وقالت : جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها . وقالت : إن الله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير كلما خفقت الريح خفقت معها فأف للجنة فأف للجنة . وقيل لعائشة : إن قوماً يشتمون أصحاب محمد ﷺ فقالت : قطع الله عنهم العمل فأحب أن لا يقطع عنهم الأجر .

وقيل لها : أي النساء أفضل ؟ فقالت : التي لا تعرف عيب المقال ولا تهتدى لمكر الرجال ، فارغة القلب لإلانة الزينة لبعلمها ، والإبقاء في الصيانة على أهلها . وقالت : إنما النكاح رق فليُنظر امرؤ من يرق كريمته .

وقالت : المغزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد في سبيل الله . ورأت عائشة في بيت امرأة أثر المغزل فقالت لها : أبشرى بما لك عند الله عز وجل ، لو رأيتم بعض ما أعد الله لكم معاشر النساء لما أقرتم ليلاً ولا نهاراً ، ما من امرأة غزلت لزوجها ولنفسها ولصبياتها إلا أعطاه الله عز وجل بكل طاقة نوراً حتى ملأت مغزلهما ، فإذا ملأت مغزلهما أعطاه الله عز وجل بيتاً في الجنة أوسع من المشرق إلى المغرب ولها بكل ثوب مائة ألف وعشرين ألف مدينة ، وما على ظهر الأرض تسبيح يعدل عند الله من صوت صرير يخرج من مغزل النساء حتى يذهب إلى العرش له دوى كدوى النحل ويعدل عند الله عز وجل بمنزلة قول لا إله إلا الله عز وجل . بلغوا عني النساء ما أقول : ما من امرأة غزلت حتى كسبت نفسها إلا استغفر لها سبع سموات وما فيهن من الملائكة . . . إلى أن قالت : أبشروا معاشر النساء ما لכן عند الله عز وجل بطاعتكن لبعولكن وخدمتكن لأولادكن أنتم المساكين في الدنيا والسابقون إلى الجنة مع أرواح الأنبياء يغفر الله لכן كل ذنب عملتم ما خلا الكبائر .

وقالت : التمسوا الرزق في خبايا الأرض . ورأت عائشة رجلاً متماوتاً

فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : زاهد ، قالت : قد كان عمر بن الخطاب زاهداً وكان إذا قال أسمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب في ذات الله أوجع .
ووهبت مالا كثيراً ثم أسرت بشوب لها أن يرفع وتمثلت بهذا المثل ، لا يعجز مسك السوء عن عرف السوء (١) .

وقال أبو سلمة : أنا أفقه من هال فقال ابن عباس : أجل في المبال . وكان أبو سلمة ينازع ابن عباس في المسائل ويماريه فيبلغ ذلك عائشة فقالت : إنك مثلك يا أبا سلمة مثل الفروج سمع الديكة تصيح فصاح معها ، تعنى أنك لم تبلغ ابن عباس وأنت تماريه .

وقالت : علموا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم .
ولما مات عبد الرحمن بن أبي بكر بالحُبَيْش (٢) وفقت عائشة على قبره فقالت :

وكنا كندمانى جذيمة حقة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كآنى ومالساكاً لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
أما والله لو حضرتك لدفتنك حيث مت ولو شهدت لورتك .

وقالت رحم الله ليبدأ كان يقول :
قض اللبابة لا أها لك واذهب والحق بأسرتك السكرام الغيب
ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف بجلد الأجر
فكيف لو أدرك زماننا هذا : ثم قالت : إني لأروى ألف بيت له وإنه
أقل ما أروى لغيره .

وسمع النبي ﷺ وهى تنشد شعر زهير بن حباب :

(١) يضرب هذا المثل في الذى يكتم لؤمه وهو يظهر .

(٢) الحبش : جبل بأسفل مكة .

ارفع ضعيفك لا يحل بك ضعفه يوماً فتدركه عواقب ما جرى
يجز بك أو يثني عليك فإن من أثنى عليك بما فعلت كمن جرى

فقال النبي ﷺ : صدق يا عائشة لا شكر الله من لا يشكر الناس .

ورأت عائشة بنات طارق اللواتي يقان :

نحن بنات طارق نمشي على النار

فقال : أخطأ من يقول الخيل أحسن من النساء .

وبعثت عائشة عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية بن أبي سفيان
في حجر بن عدى وأصحابه . فقدم عليه وقد قتلهم فقال له : أين غاب عنك
حلم أبي سفيان ؟ فقال : حين غاب عني مثلك من حبلاء قومي وحملني ابن سمية
فاحتملت وكانت عائشة تقول : لولا أنا لم نغير شيئاً قط إلا آلت بنا الأمور
إلى أشد مما كنا فيه أخيراً فقتل حجر ، أما والله إن كان ما علمت لمسلماً حججاً
معتماً . ولما حج معاوية مر على عائشة فاستأذن عليها فأذنت له فلما قدم
قالت له : يا معاوية أين كان حبلك عن حجر ؟ فقال لها : يا أم المؤمنين لم يحضرني
رشيد . فقالت له : أمنت أن أخبأ لك من يقتلك ؟ قال : بيت الأمن دخلت ،
قالت : يا معاوية أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه ؟ قال : لست أنا قتلهم
إنما قتلهم من شهد عليهم .

وقدم معاوية المدينة فدخل عليها فذكرت له شيئاً فقال : إن ذلك لا يصلح
فقال : الذي لا يصلح ادعائك زياداً ، فقال : شهدت اليهود . فقالت :
ما شهدت ولست ركب الصليعاء . أي السوءة أو الفجرة البارزة المكشوفة .

ولما أراد معاوية البيعة ليزيد ولده كتب إلى مروان بن الحكم وهو عامله
على المدينة فقرأ كتابه وقال : إن أمير المؤمنين قد كبر سنه ودق عظمه وقد
خاف أن يأتيه أمر الله تعالى فيدع الناس كالغنم لا راعي لها وقد أحب أن يعلم

علماً ويقيم إماماً ، فقالوا : وفق الله أمير المؤمنين وسدده ليفعل . فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال : كذبت والله يا مروان وكذب معاوية معك ! لا يكون ذلك ، لا تحدثوا علينا سنة الروم كلما مات هرقل قام هرقل . فقال مروان : خذره : فدخل في بيت عائشة فلم يقدرُوا عليه . فقال مروان : إن هذا الذي أنزل الله فيه ، والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني ، فقالت عائشة من وراء حجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري .

ثم كتب بذلك مروان إلى معاوية . فأقبل معاوية ومعه خلق كثير من أهل الشام حتى أتى عائشة وهي بالمدينة فاستأذن عليها بعد أن بايع أهل الشام لابنه يزيد فأذنت له وحده ولم يدخل عليها معه أحد وعندها مولاهما ذكوان فقالت عائشة : يا معاوية أكنت تأمن أن أقعد لك رجلاً فأقتلك كما قتلت أخى محمد بن أبي بكر ؟ فقال معاوية : ما كنت لتفعلين ذلك . قالت : لم ؟ قال : لأنى في بيت آمن ، بيت رسول الله ﷺ ، ثم قامت عائشة لخدمت الله وأثنت عليه وذكرت رسول الله ﷺ وذكرت أبا بكر وعمر وحضته على الاقتداء بهما والاتباع لأثرهما ثم صمت ، وأما معاوية فلم يخطب وعاف أن لا يباغ ما بلغت فارتجل الحديث ارتجالاً ، ثم قال أنت والله يا أم المؤمنين العالمة بالله وبرسول الله دللنا على الحق وحضضتنا على حظ أنفسنا وأنت أهل لأن يطاع أمرك وبسمع قولك ، وإن أمر يزيد قضاء من القضاء ، وليس للعباد الخيرة من أمرهم ، وقد أكذ الناس ببعثهم في أعناقهم وأعطوا عهودهم على ذلك وموآئيقهم ، أفترى أن ينقضوا عهودهم وموآئيقهم ، فلما سمعت ذلك عائشة علمت أنه سيمضى على أمره فقالت : أما ما ذكرت من عهود وموآئيق فأتق الله في هؤلاء الرهط ولا تمجل فيهم فلمعلم لا يصنعون إلا ما أحببت ... ثم خرج ومعه ذكوان فانكأ على يد ذكوان وهو يمشى ويقول تالله إن رأيت كاليوم قط خطيئاً أبغ من عائشة بعد رسول الله .

وسأل مرة بن أبي عثمان مولى عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق السيدة عائشة أن تكتب له إلى زياد وتبدأ به في عنوان كتابها . فسكتت له إليه بالوصاية به وعذوته إلى زياد بن أبي سفيان من عائشة أم المؤمنين . فلما رأى زياد أنها قد كانت به ونسبته إلى أبي سفيان سر بذلك وأكرم مرة وألفه وقال للناس : هذا كتاب أم المؤمنين إلى فيه وعرضه إليهم ليقروا عنوانه ثم أقطعه مائة جريب على نهر الأبله (١) وأمره فحفر لها نهراً فنسب إليه .

* * *

وهذه هي الخنساء بنت عمرو السلمي ، لم تخرج كما خرجت هند بنت عتبة مبادرة إلى أحد ، تنادى لقومها ؛ وتشفى غيظ صدرها ، وتحاد الله ورسوله ، ولكنها خرجت تحارب الشرك ، وتذود عن الإسلام ، وتدافع عن العقيدة وتجاهد في سبيل الله ، وقالت لأولادها والحرب تبارق والأسنة تلح :

« يا بني إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مخنارين ، والله الذي لا إله غيره ، إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أبائكم ، ولا فضحت خالككم ، ولا هيجنت حسبكم (٢) ، ولا غيبرت نسبكم (٣) ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية ، خير من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، وانقوا الله لعلكم تفلحون » . فإذا أصبحتم غداً فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، والله على أعدائه مستبصرين » .

(١) الأبله : بلدة على شاطئ دجلة ، البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة .

(٢) هجنت حسبكم : خلطت بمناخركم ما يضر منها .

(٣) غيبرت نسبكم : لطمته بعار وغبار .

فلما أن أضاء لهم الصبح باكروا مواقعهم في حومة الوغى ، فتقدموا إلى الشهادة وهم ينشدون الأراجيز ، وسعوا إلى لقاء ربهم مستبشرين^(١) .

وأنشأ أولهم يقول :

يا إخوتي إن العجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا الباردة
مقالة ذات بيان واضحة فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وإنما تلقون عند الصائحة من آل ساسان الكلاب النابحة
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة وأنتم بين حياة صالحة
أو مיתה تورث مخنبا رابحة

وتقدم فقاتل حتى قتل ، ثم حمل الثاني وهو يقول :

إن العجوز ذات حزم وجلد والنظر الأوفق والرأى المسدد
قد أمرتنا بالسداد والرشد نصيحة منها وبرأ بالولد
فباكروا الحرب حماة في العدد إما لفوز بارد على الكبد
أو مיתה تورثكم عز الأبد في جنة الفردوس والعيش الرغد

فقاتل حتى استشهد ثم حمل الثالث وهو يقول :

والله لا نعص العجوز حرفاً قد أمرتنا حذراً وعطفاً
نصحاً ورأ صادقا ولطفاً فبادروا الحرب الضروس زحفاً
حتى تلقوا آل كسرى لفا أو يكشفوكم عن حماكم كشفاً
لأننا نرى التقصير منكم ضعفاً والقتل فيكم نجدة وزلفى

فقاتل حتى استشهد ، ثم حمل الرابع وهو يقول :
 لست الخنساء ولا للأخرم ولا لعمر و ذى السقاء الأقدم
 إن لم أزد في الجيش جيش الأعجم
 ماضى على الحول عظيم حضم
 إما لفوز عاجل ومنعم أو لوفاة في السبيل الأكرم
 فقاتل حتى قتل ، فبلغها الخبر فقالت الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو
 من ربى أن يحمى بهم فى مستقر رحمة .

وهى تصور لنا فى خطبتها الصبر والثبات فى عبارات قوية مؤثرة تزين
 لبيها ما أعد الله للمسلمين من الثواب فى الآخرة ، والنعيم فى الجنة ، مهونة فى
 نظرهم شأن الدنيا مُعلبة شأن الآخرة ، ونلاحظ أنها فى أسلوبها تقتبس بعض
 آيات من القرآن الكريم للاستشهاد بها ، وما أجمل اقتباسها فى هذه الخطبة
 بآيات الصبر والمراقبة فى آل عمران د يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا
 ورابطوا .

ولقد كانت الخنساء صادقة فى عقيدتها ، مؤمنة بدعوتها ؛ فلذلك ترى
 لكلامها حلاوة الطبع ، وجمال الوقع ، وحسن اللفظ ، وقرب المعنى ، والبعد
 من الاستكرام ، والنوفيق فى الأداء ، والقدرة على الإثارة ، إلى ما فيه من
 بلاغة الإيجاز ، والاستغناء بالقليل عن الكثير من الكلام ، فقد ذكرتهم
 بالإسلام ، والهجرة ، ونقاء النسب ، وثواب المجاهدين وجزاء الصابرين ،
 ثم دعيتهم بعد هذا القتال .

وكان الجاحظ قد عنى هذا الكلام وأمثاله بقوله : د وأحسن الكلام
 ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل
 قد أبدسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة ، على حسب نية صاحبه ، وتقوى

قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه . ومنزهاً عن الاختلال . ومصوناً من التكلف ، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة السكرية ، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أصبحها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبارة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجملة ، (١) .

وتلح دقة أسلوبها ، وجريانه على ما تقتضيه الفنون البلاغية في إعطائها الكلام فضل تأكيد ؛ عند ما تقرر بنوتهم لرجل واحد ، لأن هذا الأمر هو الذي يجوز أن يتشكك فيه متشكك ، فجاءت بلام التوكيد مع إن في قولها : « إنكم لبنو رجل واحد ، ولكنها استغنت عنها عندما قررت بنوتهم لامرأة واحدة » ؛ لأن ذلك بما لا يتشكك فيه الناس عادة ، فقالت : « كما أنكم بنو امرأة واحدة » ، إلى آخر خطبتها البليغة الموجزة .

وقد آثرت الإيجاز هنا لأن المقام يقتضى ذلك فالمقام مقام حرب ودفاع ، والكلمة حينئذ للسيف والروح ، وليست للقرطاس والقلم ، وكلماتها تعطى من المعاني ما لا يعطى غيرها ، فكلمة « وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين » ، تعطى معاني كثيرة فلو أنها ذكرت تفصيل ذلك لطال الأمد ، والوقت كما قلنا وقت مبارزة حربية لا مبارزة كلامية ، وقولها « إن الدار الباقية خير من الدار الفانية » ينطوى تحتها الجنة ونعيمها وما فيها من متع يضيق المحصر عن عدما ، كما ينطوى تحتها حتمارة شأن الدنيا وما فيها من متاع الغرور وزخارف الحياة ما لو ذكرت ذلك أيضاً لما اتسع الميدان له ، ولما كان التطويل عبثاً وضياعاً .

« وإن كان يبدو من الأوفق - في رأي - لو أنها قالت : « ولا هجنت

(١) البيان والتبيين ١ / ٨٣ ، والخطابة ج ١ ص ٤٠٤ .

نسبكم ، ولا غبرت حسبكم ، مكان قولها : « ولا هجنت حسبكم ، ولا غبرت
نسبكم » ، وذلك لأن الهجنة والنهجين في القول والفعل وغيرهما تبنى بمعنى
العيب والنعييب ، والقبيح والتقييح ، وهى في الحسب ما يضع منه ، ولكنها في
النسب النقص الذى يأتى من قبل الأم ، فالهجين اللثيم ، والعربي ولد من أمة ،
أو من أبوه خير من أمه (١) .

والنسب هو ذلك الجانب المقدس عند العرب ، كانوا يتفاخرون بصراحتهم ،
ويتهاجون بهجنته ، والخلساء تحدث أبنائها بما حفظته عليهم من المفاخر في
نسبهم ، وما أعلنت به من قدرهم بين الناس ، فذكرها الشرف الذى جلبته
لهم ، ونفيها عن نفسها وعنهم تهمة النقص الذى كان جائزاً أن يلحقهما من
قبلها دون غيرها ، وهو هجنة النسب ألبق بهذا المقام ، وأبلغ في المقال .
وإضافتها الهجنة إلى النسب تحقق معنى لا تحققه إضافة التغير إليه .

ويبقى للحسب بعد ذلك شرفه الذى أرادته ، ويريده الناس لأنفسهم ، حين
تذكر نصاعته وتنفى التغير والتدنيس عنه بقولها ، ولا غبرت حسبكم ، .
ولن ينقص قولها قدراً بهذا النقد ، لأنها لم ترو فيه ، ولم تعتمد
إلى تعبير .

بل قالت ذلك ارتجالاً دون إعداد سابق (٢) .

(١) انظر القاموس المحيط ، مادة « هجن » .

(٢) وانظر الخطابة في صدر الإسلام ص ٤٠٥ .

نموذج رائع لحفيدة رسول الله تخاطب أهل الكوفة

حدث ابن أبي طاهر عن خذام الأسدي ، قال :

قدمت الكوفة سنة إحدى وستين - وهي السنة التي قتل فيها الحسين بن علي عليهما السلام - فرأيت نساء الكوفة قياماً يلتمدين^(١) ورأيت علي بن الحسين عليهما السلام وهو يقول بصوت ضئيل قد نحل من المرض : يا أهل الكوفة إنكم تبكون علينا فن قتلنا غيركم ؟ وسعيت أم كلثوم^(٢) بنت علي عليهما السلام وهي تقول - فلم أر خفيرة^(٣) والله أنطق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين علي عليه السلام ، وأشارت إلى الناس أن امسكوا ،

(١) التدمت المرأة ضربت صدرها حزناً ونوحاً .

(٢) أم كلثوم : هي خطيبة قریش وفصيحتها أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب عليه السلام . وأمها سيدة نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله ﷺ . ولدت في أخريات العهد النبوي وتزوجها عمر في خلافته وهي حادثة دون البلوغ وما أراد إلا أن يهمل نسبه وسببه برسول الله ، وكان رضى الله عنه قد كلم علياً عليه السلام في أمرها ، فقال علي : إنما حبست بناتي علي بن جعفر ، فقال عمر : زوجنها يا علي فوالله ما علي ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحبتها ما أرصد ، فقال علي : قد فعلت ، ثم غدا على بيته وأمر ببرد فطواه ، وقال لأم كلثوم : انطلي بهذا إلى أمير المؤمنين فقل له : أرسلني أبي يقرئك السلام ، ويقول : إن رضى البرد فأمسكه ، وإن سخطته فرده ، فلبس أنت عمر قال : بارك الله فيك وفي أبيك قد رضىنا ، قالوا : فرجعت إلى أبيها فقالت : ما نشر البرد ولا نظر إلا إلى ، فزوجها إياه فأقامت عنده حتى قتل عنها وولدت منه زيدا ورقية ، ثم خلفته علي ابن عمها عوف بن جعفر بن أبي طالب فمات عنها ثم أعقبته علي أخيه محمد بن جعفر فمات عنها خلفته علي أخيه عبد الله بن جعفر - بعد أن ماتت عنه أختها زينب - فماتت عنده . وكان موتها هي وابنها زيد في يوم واحد رضى الله عنهما .

فسكنت الأنفاس وهدأت ، فقالت : الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على خدي
سيد المرسلين . أما بعد :

إنما مثلكم كمثل التي نقصت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون
أيمانكم دخلاً بينكم . ألا وهل فيكم إلا الصلف والشنف^(١) وملق
الإماء ، وغمر الأعداء وهل أنتم إلا كره على دمنة^(٢) ؟ وكفضة على
ملحودة^(٣) ؟ ألا ساء ما قدمت أنفسكم أن يحيط الله عليكم وفي
العذاب أنتم خالدون . أن تكون ؟ إى والله فابكروا وإنسكم والله أحرأء
بالبكاء ، فابكروا كثيراً ، واضحكوا قليلاً ، فلقد فرتم بعارها وشنارها ،
ولن ترخصوها بغسل بعدها أبداً^(٤) وأنى ترخصون قتل سليل خاتم النبوة ،
ومعدن الرسالة ، وسيد شباب أهل الجنة ، ومنار محبتكم ومدرة حجتكم^(٥) ،
ومحرف رخ نازلنكم ، فتعسأ وإنكسأ ! لقد خاب السعي ، وخسرت الصفة ،
وبؤتم بغضب من الله ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة ، لقد جئتم شيئاً إدأ ،
تكاد السموات يتفطرن منه وتذشق الأرض وتخز الجبال هذا . أندرون
أى كيد لرسول الله فريتم ؟ وأى كريمة له أبرزتم ؟ وأى دم له سفكتكم ؟
لقد جئتم بها شوهاً خرقاء ، شرها طلاع الأرض والسماء ، أفعجبتم أن

(١) الصلف الكبر والخيلاء والشنف النكر عن معرفه .

(٢) الدمنة أثر الديار أو فضلاتها ينبت عليها مرعى أنيق الشكل مر المذاق
وقد شبهوا بها كل شيء عوره لا خير فيه .

(٣) الملحودة القبر ومثل الفضة على الملحودة كمثل مرعى الدمن وهما جميعاً مثل
الرجل المنافق .

(٤) رخص الثوب غسله .

(٥) المدرة المقدم فى اللسان واليد عند الخصومة والقتال .

فقطرت السماء دماً واحذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ، فلا يستخفونكم
المهل فإنه لا تحفره المبادرة^(١) ولا يخاف عليه فوت النار . كلا إن ربك
لنا ولهم بالمرصاد ؛ ثم ولت عنهم . قال فرأيت الناس حيارى قد ردوا أيديهم
إلى أفواههم . ورأيت شيخاً كبيراً من بني جعفر ، وقد أخضلت لحيتته من
دموع عينيه ، وهو يقول :

كم واهم خير الكمول ونسلهم إذا عد نسل لا يبور ولا يخزي^(٢)

(١) حفرة : أعجبه وأزعجه .

(٢) بلاغات النساء ج ٢٧ - ٢٩ .

خطب المناظرة

تكثر خطب المناظرة حين تنقسم الكلمة وتشهد الفرقة وتتسع دائرة الخلاف بين طائفة وطائفة ، أو حزب وآخر ، أو بين فردين كل منهما له وجهة خاصة — في موضوع ما — والمناظرة قد تشمل على لون من المناظرات والمفاخرات استطراداً ، فقد يستطرد أحد الفريقين بذكر فضائله أو فضائل قومه إذا عنت له فرصة أثناء المناظرة ، وقد اتسعت المناظرة وامتدت أطرافها حينما اشتد النزاع بين علي ومعاوية ، وبين العراقيين والشماعيين ، ومن أبلغ خطب المناظرات تلك الخطبة الرائعة التي رواها الرواة للإمام علي قالها حين كان الخوارج يخاصمون ابن عباس فقال له الإمام : « انته عن كلامهم ألم أمك رحلك الله ، ثم حمد الله وإثنى عليه وقال :

اللهم إن هذا مقام من أفلج^(١) فيه كان أولى بالعلاج يوم القيامة ، ومن أطق فيه وأوعث^(٢) فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ، ثم سأهم عن زعيمهم قالوا : « ابن السكواء ، قال علي : فما أخرجكم علينا ؟ قالوا حكومتكم يوم صفين ، قال : أنشدكم بالله أنعلمون أنهم حينما رفعوا المصاحف فقلتم : نجيهم إلى كتاب الله ، قلت لكم : إنى أسلم بالقوم منكم ، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إنى صحبتهم وعرفتهم أطفالا ورجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال ، امضوا على حقكم وصدقكم ؛ فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة وإدهاناً ومكيدة^(٣) .

(١) أفلج : فاز وصبر . (٢) أوعث : سار في الوعث ، وهو الصعب ،

(٣) الطبري ٦ : ٢٧ .

ومثل هذه الخطب داخلة في الخطابة الدينية والسياسية معاً لأنها تعتمد على أصول دينية وتتفرع عن مسائل مذهبية ، وتفرعت منها الخلافات حول المسائل السياسية .

وإذا رأى بعضهم أن هذا اللون داخل في نطاق الخطابة الاستدلالية التي تعتمد على المدح أو الذم ، وتوجه إلى الحسن والقبح أو الفضيلة والريضة فإنها بشيء من التحوير تنحول إلى خطابة استنثاء سياسية (١) .

ومن النصفة للأدب العربي وللمرأة العربية ألا تغفل في هذا المقام ذكر بعض النساء الأدبيات في هذا العصر اللاتي أثر عنهن من المواقف ما لم يضمن التاريخ الأدبي بتسجيله ، ولقد كان للحركة الشيعية فضلٌ في إظهار بعض الشخصيات النسوية المحاربة الموالية لعلي - رضي الله عنه - ولأهل البيت ، وقد امتاز هؤلاء الأدبيات الشيعيات فوق جرائهن وبلائهن في سبيل العقيدة بمقدرة خطابية لعلها كانت ثمرة ضرورية من ثمار ذلك العهد المقاتل المتنازع الذي اعتمد على قوة السيف من ناحية ، وعلى قوة البيان من ناحية أخرى .

ولقد كانت الحرب بين علي ومعاوية أو بين أهل الشام وأهل العراق ، ميداناً فسيحاً لمواهب المحاربين والخطباء حتى لقد كانت امرأة مثل « عكرشة » بذت الأطرش متقلدة حمائل السيف في موقعة صفين المشهورة وهي وافقة بين الصفوف تحض على قتال معاوية في فصاحة وبلاغة وقوة عارضة ربما لم نرها لبعض البلغاء : « أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى أن تقول دامنوا على بصيرتكم واصبروا على عزيمتكم ، الله عباد الله في دين الله » ، ولم تكن « عكرشة » هي الخطيبة الوحيدة في الحروب بين علي ومعاوية ، فلقد كانت هناك أم الخير بذت الحريش التي طالما ألبت على معاوية وحرضت على قتاله وانتهته بإذكاء الأجقاد الجاهلية التي محاما الإسلام ودعت

(١) الخطابة في صدر الإسلام ١ / ٤٣٨ .

إلى الإمام العادل على توحيداً للسلطنة ، ورأياً لصديق المسلمين ، وكأني بها
وهي على جمل أمل كلون الرماد ويدها سوط قد انتشرت صفائره وهي تهدر
كالفحل من الإبل يهدر في شقشقة ؛ « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة
شئ عظيم » .

وكان للرزقاء بنت عدى الهمدانية موقف لا يقل روعة عن موقف أم الخير
في الحث على قتال معاوية حتى أنه لم ينس خطبتها وهي راكبة الجبل الأحمر ،
وحين استقدمها من الكوفة بعد أن صارت إليه الخلافة ذكرها بخطبتها التي
تقول فيها : « أيها الناس ، ارجعوا وارجعوا إنكم قد أصبحتم في فتنة غشتكم
جلايب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة » (١) .

ولعلنا نلاحظ أن أسلوبهم في الخطابة انتهى بنور القرآن سلسلة
ووضوح قصد وسمراً في الغرض ، وإصابة للحقائق واطراداً للأحكام وعذوبة
في اللفظ ، ودعائية في الأساليب وتمازجاً بين العبارات ، وتباعداً عن الوحشية
النافر والسوق المبتذل ، واللفظ الغريب والسجع المفتعل ، وإيجازاً مع الخاصة
وإطالة مع العامة وإيماء للعربي وتصريحاً للأعجمي حتى أنك ترى الآية
المقتبسة من القرآن تدخل في الأسلوب فتعمره نوراً وتفرعه جمالاً ، وتكسوه
روعة وجلالاً ، مع قرب المعاني وصدقها وابتداعها وابتكارها ، وارتياح
النفوس إليها في أحكام (٢) مسالمة وحجج باهرة ، وبراهين قاطعة ،
وتشابه رائعة .

ونسوق فيما يأتي بعض ما قالته أم الخير البارقية والرزقاء بنت عدى ،
وبكارة الهلالية .

(١) الخطب والمواظع : محمد عبد الفتى حسن ، ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) الخطابة في صدر الإسلام ١ : ٤٤٨ .

أم الخير بنت الحريش البارقية ؛ ترد على معاوية

كتب معاوية إلى واليه بالكوفة : أن أوفد على أم الخير بنت الحريش ابن سراقبة البارقية ، رحلة محمودة الصحبة ، غير مذمومة العاقبة ، واعلم أني مجازيك بقولها فيك ، بالخير خيراً ، بالشر شراً . فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها فأقرأها إياه ، فقالت أما أنا فغير زائفة عن طاعة ، ولا معتلة بكذب . ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج في صدري ، وتجرى بحري النفس يغلي بها على الرجل بحب البأسن^(١) يوقد بجذال السم^(٢) . فلما حملها وأراد مفارقتها قال : يا أم الخير ، إن معاوية قد ضمن لي عليه أن يقبل بقولك في : بالخير خيراً ، وبالشر شراً ، فانظري كيف تكونين ؟ قالت : يا هذا لا يُطعمك والله بركبي في تزويق الباطل ، ولا تؤيسك معرفتك إياي أن أقول فيك غير الحق ، فسارت خير مسير . فلما قدمت معاوية أنزلها مع الحرم ثلاثاً ، ثم أذن لها في اليوم الرابع وجمع لها الناس ، فدخلت عليه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال : وعليك السلام ، وبالرغم والله منك دعوتني بهذا الاسم ! فقالت مه يا هذا ! فإن بديهة السلطان ممدحة لما يحب علمه^(٣) . فقال صدقت يا حالة ، وكيف رأيت مسيرك ؟ قالت لم أزل في عافية وسلامة حتى أوفدت إلى ملك جزل وعطاء بذل . فأنا في عيش أنيق ، عند ملك دفيق ، فقال معاوية : بحسن نيتي ظفرت بكم وأعنت عليكم ، قالت : مه يا هذا ! لك والله من دحض المقال ما تُردى عاقبته ، قال ليس لهذا أردناك .

(١) البأسن : العدس .

(٢) الجذال : أصل الشجرة بعد ذهاب الفرع ، والسمر شجر من أشجار البادية .

(٣) البديهة : المفاجأة ومدحضة مبظلة .

قالت : إنما أجرى في ميدانك ، إذا أجريت شيئاً أجرته فاسأل عما بدا لك .
قال : كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر ؟ قالت : لم أكن والله رؤيته
قبل ولا زورته بعد^(١) وإنما كانت كلمات نفثهن لسانى حين الصدمة . فإن شئت
أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت قال لا أشاء ذلك . ثم التفت إلى أصحابه
فقال : أيكم حفظ كلام أم الخير ؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه بأمر المؤمنين
كحفظى سورة الحد ، قال هاته اقال نعم ، كأتى بها ، يا أمير المؤمنين ، وعليها
مُرد زيدي^(٢) كتييف الحاشية ، وهى على جمل أرمك^(٣) وقد أحيط حولها حواء^(٤)
وبيدها سوط ممتشر الضئفسر ، وهى كالفحل يهدير^(٥) فى شقشقة^(٦) تقول :
« يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم ، إن الله قد أوضح
الحق ، وأبان الدليل . ونور السبيل ، ورفع العلم ، فلم يدعكم فى عمياء مبهمة ،
ولا سوداء مملوءة ، فإلى أين تريدون رحمكم الله ؟ أفرأى عن أمير المؤمنين
أم فرأى من المؤمنين ؟ أم فرأى من الزحف ؟ أم رغبة عن الإسلام ؟
أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول : « ولنبلونكم حتى نعلم
المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » . ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى
تقول : اللهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشر الرعب ، وبيدك يارب
أزمنة القلوب فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق
إلى أهله . هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والوصى^(٧) الوفى ، والصديق الأكبر

(١) رويت فى الأمر : فسكرت فيه ، وزورت الكلام ذيلته .

(٢) الأرمك : الرمادى . (٣) الحواء ما يتخذ كالوسادة على الرجل .

(٤) الشقشقة : شئ كالرئة يخرج به البعير من فيه إذا هاج .

(٥) إنما سعى على عليه السلام بالوصى لقول رسول الله ﷺ له : « أنت منى
بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » فهو بذلك كقول الشيعة — وقد
أوصاه بالمسلمين واستخلفه عليهم .

لأنها لإحس بدرية^(١) وأحقاد جاهلية، وضغائن أحسدية، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بنى عبد شمس . ثم قالت: قاتلوا أئمة الكفر لأنهم لا إيمان لهم لعلمهم بقتلهم . صبراً معشر الأنصار والمهاجرين . قاتلوا عن بصيرة من ربكم وثبات من دينكم . وكان بكم غداً أفد لقينم أهل الشام كـحـمـسـة مستنفرة لا تدرى أين يسلك بها من لجج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى ، مما قليل لئـيـضـيـحـن نادمين ، حتى تحمل بهم الندامة فيطلبون الإقالة . لأنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل ، ومن لم يسكن الجنة نزل النار ، أيها الناس إن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستبطلوا مدة الآخرة فسمعوا لها والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود ، ويظهر الظالمون ، وتقوى كلبة الشيطان ، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه . فيأى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته ، خلق من طيفته ، وتفرع من نبتة عترة ، وخصه بسره ، وجعله باب مدينته . وعلم المسلمين ، وأبان ببغضه المنافقين ، فلم يزل كذلك يؤيده الله عز وجل بمعاونته ، ويمضى على سبيل استقامته لا يعرج لراحته الدأب . ها هو مفلح الهام ، ومكسر الأصنام ، إذ صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس مرتابون ، فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزى بدر ، وأفى أهل أحد ، وفرق جمع هوازن ، فيا لها من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً ، وريرة وشقاقاً . قد اجتمعت في القول وبالغت في النصيحة ، وبالله النوفيق ، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

(١) الإحس : جمع أحنة — الأحقاد — وبدرية نسبة إلى بدر وهى أولى الوقائع بين المسلمين والمشركين تريد أن معاوية بإثارته الحرب على أنما ينتقم لمن قتل من آله يوم بدر .

فقال معاوية : والله يا أم الخير ما أردت بهذا السلام إلا قتلى ! والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك . قالت : والله ما يسوءني يا ابن هند أن يجرى الله ذلك على يدي من يسعدني الله بشقائه . قال : هيات يا كثيرة الفضول : ما تقولين في عثمان بن عفان ؟ قالت : وما عسيت أن أقول فيه ؟ استخلفه الناس وهم عنه راضون ، وقتلوه وهم له كارهون . فقال معاوية : إياها يا أم الخير هذا والله أصلك الذي تبنيين عليه ^(١) . قالت : لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً . ما أردت لعثمان نقصاً وإن كان لسبباً فإلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة . قال : فما تقولين في طلحة بن عبيد الله ^(٢) . قالت وما هي أن أقول في طلحة ؟ اغتيل في مأمنه وأتى من حيث لم يحذر ، وقد وعده رسول الله ﷺ الجنة . قال فما تقولين في الزبير ^(٣) ؟ قالت يا هذا لا تدعى كرجيع الصبيغ يُعسرك في الماركن ^(٤) قال

(١) يريد أن سوء رأيها في عثمان هو الذي دفعها إلى مناصرة علي .
(٢) طلحة بن عبيد الله أحد السابقين الأولين والأبطال المعلمين وعاشر عشرة بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة وسادس ستة أختارهم عمر رضي الله عنه ليكون منهم الخليفة من بعده ، وأول صحابي بايع علياً عليه السلام ثم استبحال رأيته بفرج عليه وانضم إلى جند عائشة رضي الله عنها يوم الجمل وهناك أصيب بسهم أودى به رضي الله عنه .

(٣) كان أمر الزبير حياً على شبيهاً بأمر طلحة ، وكان قد انضم أيضاً إلى جند عائشة فأرسل إليه على يذكره بقول رسول الله ﷺ له : لتقاتلنه — يريد تقاتل هلياً — وأنت ظالم له ، فاشتت عن الموقعة فراراً من الباطل وعوداً إلى الحق ، فلما انتهى إلى واد يقال له وادي السباع أخذه النوم فاغتناله رجل من مجاشع يقال له عمرو بن جرموز .

(٤) الصبيغ : الثوب المصبوغ ، والعرك الدلك والحك ، والمركن الآنية أي لا تتركني كالثوب المصبوغ .

حتماً لتقولن ذلك وقد عزمت عليك قالت وما عسيت أن أقول في الزبير ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه ، وقد شهد له رسول الله بالجنة . ولقد كان سباقاً إلى كل مكرمة في الإسلام ، وإنى أسألك بحق الله يا معاوية فإن قریشاً تحدث أنك أحلبها ، وأسألك بأن تسعى بفضل حبيبك ، وأن تعفيني من هذه المسائل ، وخذ فيما شئت من غيرها . قال نعم وكرامة ، قد أعفيتك ، وردتها مكرمة إلى بلدها .

بلاغة الزرقاء بنت عدى

سهر معاوية ليلة فذكر الزرقاء بنت عدى بن غالب بن قيس - امرأة كانت من أهل الكوفة ، وكانت ممن يعين علياً عليه السلام يوم صفين ؛ فقال لأصحابه أيكم يحفظ كلام الزرقاء ؟ فقال القوم كلنا نحفظه يا أمير المؤمنين ، قال فما تشيرون عليّ فيها ؟ قالوا نشير عليك بقتلها ، قال بنس ما أشرت عليّ به ! أحسن بمثل أن يتحدث الناس أني قتلت امرأة بعد ما ملكت وصار الأمر لي ؟ ثم دعا كاتبه في الليل فكتب إلى عامله في الكوفة أن أوفد إليّ الزرقاء ابنة عدى في ثقة من محارمها ، وعدة من فرسان قومها ، ومهدا وطاء ليها ، واسترها بستر حصيف (١) . فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها فأقرأها الكتاب ، فقالت : أما أنا فغير زائفة عن طائفة . وإن كان أمير المؤمنين جعل المشيئة لي لم أدرم (٢) من بلدي هذا ، وإن كان حكم الأمر فالطاعة له أولى بي ، فخلعها في هودج وجعل غشاءه حبراً مبطناً بعصب اللين ، ثم أحسن صحبتها فلما قدمت على معاوية قال لها مرحباً وأهلاً خير مقدم قدم وافد . كيف حالك يا عالة ؟ وكيف رأيت مسيرك ؟ قالت خير مسير ، كأنني كنت ربيبة بيت أو طفلاً بمهداً . قال : بذلك أمرتهم فهل تعلمين لم بعثت إليك ؟ قالت سبحان الله أني لم أعلم ما لم أعلم ؟ وهل يعلم ما في القلوب إلا الله ؟ قال بعثت إليك أن أسألك : أأست راكمة الجمل الأحمر يوم صفين بين الصنفين ، توقدين الحرب وتحضين على

(١) الوطاء : الفراش اللين ، والحصيف : المحكم النسيج . (٢) لم أدرم : أي لم أتحرك .

القتال ؟ فلا حملك على ذلك ؟ قالت يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس ومُبرّر
الذنب والدهر ذر غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر ، قال
لها : صدقت فهل تحفظين كلامك يوم صفين ؟ قالت : ما أحفظه . قال وليكني
والله أحفظه الله أبوك . لقد سمعتك تقولين : أيها الناس ! إنكم في فتنة
غشتكم جلاليب الظالم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيا لها من فتنة عمياء
صماء ، يسمع لقائلها ولا ينظر لسامعها ، أيها الناس ! إن المصباح لا يضيء في
الشمس ، وإن السكوكب لا ينفذ في الفخر وإن البغل لا يسبق الفرس ،
ولن الزئف لا يوازن الحجر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من
استرشدنا أرشدناه ، ومن استخبرنا أخبرناه ، إن الحق كان يطلب ضالته
فأصابها . فصبر أيام عشر المهاجرين والأنصار ، فكان قد اندمل شعث الشمتات ،
والأمت كلمة العدل ، وغلب الحق باطله ، فلا يعجلن أحد فيقول كيف وأنسى
ليقضئ الله أمراً كان مفعولاً . ألا إن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال
الدهاء ، والصبر خير في الأمور عواقباً . إيهما إلى الحرب قدماً غير
نا كصين فهذا يوم له مابعده ، ثم قال معاوية والله يازرقاء لقد شركت علياً عليه
السلام في كل دم سفكك . فقالت أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين ، وأدام
سلامتك مثلك من بشر بخير ، وسر جليسه ، قال لها وقد سرك ذلك ؟ قالت
نعم لقد سرني قولك . فأنسى بتصديق الفعل ؟ قال معاوية : والله لو فاؤكم له
بعد موته أحب إلي من حبكم له في حياته . أذكرى حاجتك . قالت يا أمير
المؤمنين إني قد آليت على نفسي ألا أسأل أميراً أعنت عليه شيئاً أبداً^(١) .
ومثلك أعطى عن غير مسألة وجاد عن غير طلب . قال صدقت ، فأقطعها
ضبعة أعلتها في أول سنة عشرة آلاف درهم وأحسن صفدها ، وردّها والذين
مدها مكرمين .

(١) الزئف : انظر جمهرة خطب العرب ، الجزء الأول والثاني .

بكاره الهلالية

استأذنت بكاره الهلالية على معاوية فأذن لها . فدخلت وكانت امرأة
أسنت وعشى بصرها ، وضعفت قوتها ، فهي ترعش بين خاديهن لها ، فسلمت
ثم جلست ، فقال معاوية كيف أنت يا خالة ؟ قالت بخير يا أمير المؤمنين . قالت
خيرك الدهر ! قالت كذلك هو ذو غير ، من عاش كبر ، ومن مات قبر . وكان
هنالك مروان بن الحكم وعمر بن العاص ، فابتدأ مروان فقال : ألا تعرف
هذه يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومن هي ؟ قال : هي التي كانت تعين علينا يوم
صفين وهي القائلة :

يا زيد دونك فاستر من دارنا سيفاً حساماً في التراب دفينا
قد كان مذخوراً لكل عزيمة فاليوم أبرزه الزمان مصونا

قال عمرو بن العاص : وهي القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند للخلافة مالكا هيئات ذاك وما أراد بعيد
ممتلك نفسك في الخلاء ضلالة أغراك عمرو للشقا وسعيد
فارجم بأنك د طائر بنحوسها لاقت علياً أسعد وسعود

فقال سعيد : يا أمير المؤمنين وهي القائلة :

قد كنت آمل أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أمية خاطبا
فالله أخـر مدتي فتناولت حتى رأيت من الزمان عجائبها

في كل يوم لا يزال خطيبهم وسط الجموع لآل أحمد عائدا
ثم سكنت القوم، فقالت بكارة نبختني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني
فقهرى محجنى^(١) وكثر عجبى، وعشى بصرى، وأنا والله فائلة ما فالوا،
لا أدفع ذلك بتكذيب، فامض لشأنك، فلا خير في العيش بعد أمير المؤمنين
فقال معاوية: إنه لا يضعك شيء، فاذا كرى حاجتك تقض. فقضى حوائجها
وردها إلى بلدها.

وهناك خطيبات كثيرات مثل عكرشة بنت الأطرش وجروية بنت غالب
فقد حدث ابن أبي طاهر عن الشافعى، قال:

دخلت عكرشة بنت الأطرش على معاوية وببدها عكاز في أسفله زج^(٢)
مسقى، فسلمت عليه بالخلافة وجلست؛ فقال لها معاوية: يا عكرشة الآن صرت
أمير المؤمنين قالت نعم إذ لا على شيء، قال ألسنت صاحبة السكور^(٣) المسدول
والوسط المشدود، والمتقلدة بحمائل السيف، وأنت واقفة بين الصفيين يوم
تقولين: يا أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم. إن الجنة
دار لا يرحل عنها من قطنها، ولا يحزن من سكنها، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها
ولا تنصرم همومها، كونوا قوماً مستبصرين. إن معاوية دافع إليكم بعنجم
مخلف القلوب^(٤) لا يفقهون الإيمان، ولا يدرون ما الحكمة، دعاهم بالدنيا فأجاب
واستدعاهم إلى الباطل فلبوه. قاله الله عباد الله في دين الله وإياكم والتواكل
فإن في ذلك نقض عروة الإسلام، وإطفاء نور الإيمان، وذهاب السنية

-
- (١) اعتورتني: أى تناربتني من كل جانب، والمحجن: العصا.
(٢) الزج: الحديدة في أسفل الرمح أو نحوه ويطلع به. (٣) السكور الرجل
(٤) غلاف: جمع أغلف والقلب الأغلف الذى كأنما غشى غلافاً فهو لا يرمى.
(٩ - أدب النساء)

وأظهر الباطل ، هذه بدر الصغرى ، والعقبة الأخرى . قاتلوا بأمعش الأناصار والمهاجرين على بصيرة من دينكم ، واصبروا على عزيبتكم ، فكأنى بكم غداً قد لقيتم أهل الشام كالحر النهاقة والبيغال الشجاجة . تصقع صقع البعير ، وترثوث روث العناق ثم قال معاوية : فوالله لولا قدر الله وما أحب أن يجعل لنا هذا الأمر لقد انكفأ العسكران ، فاحملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين إن اللبيب إذا كره أمراً لم يحب إعادته . قال : صدقت ، اذكرى حاجتك ، قالت : يا أمير المؤمنين إن قد رد صدقاتنا علينا ، ورد أموالنا فينا إلا بحقة . وإنا قد فقدنا ذلك فما أعطى فقير ، ولا يجبر لنا كسير فإن كان ذلك عن رأيك فما مثلك من استعان بالخونة واستعمل الظالمين ، قال معاوية : يا هذه إنه تنوبنا أمور هي أولى بنا منكم ، من بحور تنبثق وتغوى تنفتق . قالت : يا سبحان الله ! ما فرض الله لنا حقاً جعل لنا فيه ضرراً على غيرنا ما جعله لنا وهو علام الغيوب ، قال معاوية هيهات يا أهل العراق فقد فقهكم ابن أبى طالب فلن تطاقوا ، ثم أمر لها برد صدقتها وإنصافها وردها مكرمة .

جروة بنت غالب

احتجهم معاوية بمسكة ، فلما أمسى أرق أرقاً شديداً ، فأرسل إلى جروة بنت غالب التميمية - وكانت مجاورة لمسكة ، وهى من بنى أسد بن عمرو ابن تميم - فلما دخلت قال لها : مرحباً بجروة ، أزعناك ؟ قالت : إى والله يا أمير المؤمنين ، لقد طرقت فى ساعة لا يطرق فيها الطير فى وكره ، فأرعت قلبى ، وربع صبيانى ، وأفزعت عشيرتى ، وتركت بعضهم يموج فى بعض ، يراجعون القول ويدبرون الكلام خشية منك وشفقة على . فقال لها : ليسكن دوعك ، ولتطب نفسك ، فإن الأمر على خلاف ما ظننت ، إنى احتجمت فأعقبنى ذلك أرقاً ، فأرسلت إليك تخبرينى عن قومك .

قالت : عن أى قومى تسألنى ؟ قال : عن بنى تميم . قالت : يا أمير

المؤمنين هم أكثر الناس عدداً ، وأوسعهم بلداً وأبعده أمداً . هم الذهب الأحمر ، والحسب الأنقر قال : فنزّلهم لي ، قالت : يا أمير المؤمنين أما بنو عمرو بن تميم فأصحاب بأس ونجدة ، وتحاشد وشدة ، لا يتخاذلون عن اللقاء ، ولا يطمع فيهم الأعداء ، سلمهم فيهم ، وسيفهم على عدوهم . قال : صدقت ، ونعم القول لأنفسهم ، قالت : وأما بنو سعد بن زيد مناة ففي العدد الأكثرون ، وفي النسب الأطيبون . يضرون إن غضبوا ويدركون إن طلبوا ، أصحاب سيوف وحجف^(١) ونزال وزلف^(٢) ، على أن بأسهم فيهم ، وسيفهم عليهم وأما حنظلة قالبيت الرفيع ، والحسب البديع والعز المنيع المكرمون للجار ، والطالبون بالثار ، والناقضون للأوتار . قال : إن حنظلة شجر تفرع ، قالت : صدقت يا أمير المؤمنين . وأما البراجم فأصابع مجتذعة ، وكف بمنعة ، وأما طيبة فقوم مھوج وقرن^٣ الجسج . وأما بنو ربيعة فصخرة صماء ، وحية رقصاء يغزون لغيرهم ، ويفخرون بقومهم ، وأما بنو يربوع ففرسان الرماح ، وأسود الصباح يعتنقون الأفران ، ويقتلون الفرسان . وأما بنو مالك ، فجمع غير مفلول . وعز غير مجهول ، ليوث هرارة ، وخيول كرارة ، وأما بنو دارم ، فكرم لا يداني ، وشرف لا يسامى ، وعز لا يوازي ، قال : أنت أعلم الناس بتميم . فكيف عليك بقميس ؟ قالت : كعلمي بنفسى . قال : تخبرني عنهم ، قالت : أما غطفان ، فأكثر سادة ، وأمنع قادة ، وأما فزارة ، فبيتها المشهور وحسبها المذكور . وأما ذبيان ، فخطباء شعراء أعزة أقوياء . وأما عبس ، فجمرة لا تطفأ ، وعقبة لا تعلو ، وحية لا ترقى ، وأما هوازن فحلم ظاهر ، وعز قاهر . وأما مسلم ، ففرسان الملاحم ، وأسود ضراغم . وأما نخير ، فشوكة مسمومة ، وهامة مذمومة ، وداية ملبومة ، وأما هلال ،

(١) الحجف — جمع حجة — التروس من جلد بلا خشب .

(٢) الزلف : الإقدام .

فاسم نفيم ، وعز ضخم ، وأما بنو كلاب ، فعدد كثير ، ونفر أمير قال :
 لله أنت إفا قولك في قریش ؟ قالت : يا أمير المؤمنين هم ذروة السنام ،
 وسادة الأنام ، والحسب القمقام قال : فاقولك في علي - عليه السلام -
 قالت : حاز والله في الشرف حداً لا يوصف ؛ وغاية لا تعرف ، وبالله أسأل
 أمير المؤمنين إعفائي مما أتخوف . قال : قد فعلت ، وأمر بضبعة غلتم
 عشرة آلاف درهم .

ونلاحظ أن أسلوب الخطيبات هو الأسلوب الذي يساقط الطابع ويوائم
 السليقة ، ولا يعتسف في لفظ أو فكر أو خيال ، فهو لين هادي أو ناثر
 حاصف على حسب المقتضيات ووفقاً للأحوال ، مع وضوح اللفظ ، وسهولة
 في الأسلوب ، والانسجام التام في بناء الكلمات ، وترك السجع المردول وهجر
 الوحشى والبعد عن التكلف ، والإيجاز في موضوع الإيجاز والإطناب فيما
 يستدعي الإطناب والإكثار (١) .

كما نلاحظ أن الخطيبات وبخاصة الشيعيات كانت خطبهن تقوم على الإقناع
 والتأثير في النفوس مدعيات خطبهن بأدلة عقلية ونقلية ، فيستشهدن بالقرآن
 الكريم وأحياناً بالشعر ومأثور الكلام من حكمة ومثل ، كما في خطبة عكرشة
 بنت الأطرش ، فيأتنا نرى الآيات القرآنية تشع في جوانبها وتتلألأ في ثناياها
 « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ، « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا
 عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » وقد بدأت خطبتها بالنداء : يا أيها الناس لتحرك
 الأذهان الغافلة وتنبيه العقول النائمة كما أشعرهم بالعبء الثقيل الملقى على كاهلهم
 وأنفسهم فتدفعهم دفعاً إلى إصلاح أخطائهم ، والإفاقة من الضلال ، فآله
 الله عباد الله في دين الله ، ثم تزين لهم أجر الجهاد وهو الجنة في أسلوب

(١) الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام ، مؤسسة ومكتبة خدمة العلم - الرياض

- ١٢٣ -

التوكيد لتحفزهم إلى التضحية بأرواحهم وأموالهم ، إن الجنة لا يرحل من أوطانها ، ولا يهرم من سكنها ولا يموت من دخلها فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ولا تنصرم همومها .

كما تحذرهم من التواكل في استعارات جميلة : « إياكم والتواكل ؛ فإن ذلك ينقض عرا الإسلام ، ويطفىء نور الحق ، كما تسوق التشبهات الرائعة ، فتشبهه موقعة د صفين ، بموقعة من زعموا أن هذه الموقعة التي يخوضها أنصار علي ، في موقعة صفين تشبه أيضاً بيعة العقبة حين بايع المسلمون الأولون من الأنصار النبي ﷺ ، وعاهدوه أن ينصروه بأموالهم وأنفسهم ، أى أن هذه الموقعة دفاع عن الإسلام ونصرة له كتلك .

ثم نخرج في آخر خطبتها إلى النداء كذلك في أسلوب لإنشائي خلاّب نغمته تشبيهات مثيرة لتهميج حميتهم ونشعل حماسهم ضد معاوية : « يا معشر المهاجرين والأنصار امضوا على بصيرتكم واصبروا على عزيمتكم ، فكم أنى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالبحر الغامرة تصقع صقع البقر .

كما نلاحظ أن « أم الخير بنت الحريش » تبدأ خطبتها بالأمثال الحكيمة والحكم السائدة لتشعر معاوية بأن حكمها عليه ، حكم صحيح مسلم لا يقبل النقص والإبرام « إن بديهة السلطان مدحضة » واسكل أجل كتاب .

وضمنت خطبتها استشهادات من القرآن الكريم كسائر الخطيبات الشيعيات « اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ، « قاتلوا أئمة الكفر لأنهم لا إيمان لهم لعالمهم يفتنون ، « وإن هذا الموقف الرهيب بين يدي حاكم قوى معاوية لم يحل بينها وبين قول الحق ، والجهر بالرأي القويم ، وإصابة سواء المفصل وإقناع معاوية بالحجة والبرهان ، كما نستنبط من حديثها مع معاوية أنها خطيبة قد أوتيت من

قوة العارضة وبلاغة المنطق والتلاعب بالألفاظ ما لم تؤته خطيبة أخرى فهي تستطيع بقوتها الخطابية أن تجعل الحق باطلا والباطل حقاً ، وأن تغلب ببلاغتها أمة بأسرها ، يدل على هذا ما قالته لمعاوية حينما عنفها على قولها خطبتها التي أيدت فيها الإمام عليّ ^(١) إنها كلمات نفسها لساني عند الصدمة فإن أحببت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت ، ، وهذا يدل على قدرتها الخطابية الخارقة المعجبة .

وحينما انتقل إلى خطبة الزرقاء بنت عدى نرى فيها من سمو التعبير ، وعظمة التأثير ، ما يهز القلوب ، ويملك على عقل الإنسان كل منافذه وأبوابه ، في منطق منسق وحجج متدافعة متدفقة كما نجدتها تضمن نثرها وخطبها آيات من القرآن الكريم وأمثلة وحكا تتألق من خلال أقوالها تألق الدرر ، في اتساق عجيب ، ونسق بهيج لقولها : « والدهر ذو غير ، من تفسكر انصد ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد ، والصبر خير في الأمور عواقباً ، وما أدوع استعاراتها في قولها : « إنكم قد أصبحتم في فتنة غشتكم جلايب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحبة ، فيالها فتنة عمياء عمياء بكاء ، لا تسمع لناعقها ، ولا تنساق لقائدها ، وفي قولها إن المصباح لا يضيء في الشمس ، ولا تنير السكواكب مع القمر تشبيهه ضمنى اسيدنا على بالشمس والقمر وقد أخذهما أبو العلاء الممرى فقال :

يؤجج في شعاع الشمس ناراً ويقسدح في تلهمها زناداً

وفوق ذلك كله تتميز خطبهن بصحة الألفاظ واستقامة الأساليب وبلاغتها ، وقوة المنطق وصدق الحجج إلى ترتيب الأفسكار وتنسيق الحجج ، وإلى إصابة المحز وبلوغ الهدف ، كل ذلك يعد من خصائص بلاغة هؤلاء الخطيبات ، وروعة نثرهن . وروح نثرهن والجو الذي يسيطر عليه والتأثرات المختلفة فيه ترشد إلى أثر الإسلام والقرآن في بلاغة النساء ^(١) كما قدمنا ذلك فيما سبق .

أسلوب المناقشات

يفسر علماء اللغة المناقشة بأنها مراجعة الكلام ، يقال حاورته أى راجعته الكلام ، وتناور القوم أو الجماعة راجعوا الكلام بينهم فمادة المناقشة تدور حول الرجوع ، ويفرق علماء اللغة بين المناقشة والمجادلة ، إذ المجادلة تتطلب اللد في الخصومة ، وما يكون في نحو من ذلك ، ولكنها في كل صورها تدور حول الخصام بالكلام .

وأما المناقشة فهي مجرد مراجعة الكلام بين المتكلمين ولا تلزم فيه صور الخصومة ، وإنما تغلب عليها صور الكلام المتبادل بين الطرفين في أسلوب لا تقصد به الخصومة في حد ذاتها أو لا يراد به بالضرورة الاتجاه إلى الخصومة . وهذه التفرقة بين المدلولين إنما استقفاها اللغويون بطبيعة الحال من تتبع الاستعمال العربي ، وإذا ذهبنا إلى القرآن الكريم في استعماله للفظين نجد فيه هذه التفرقة ، وذلك في قوله تعالى : وقد سمع الله قول الذى تجادل فى زوجها ونشتكى إلى الله والله يسمع تهاورا كما ، (١) .

فحديث المرأة عن زوجها كان خصومة ، ولذلك كان التعبير بالمجادلة ، ولكن حديثها مع النبى صلى الله عليه وسلم كان مراجعة للكلام ، ولذلك كان تعبيره بالمناقشة (٢) .

ونلاحظ أن المناقشة التى وردت بين معاوية والخطيبات الشيعيات أنصار على كانت من قبيل المناقشة لأنه كان مراجعة في الكلام والغرض منه الوصول إلى الحق الذى يعتقده كل طرف .

(١) أول سورة المجادلة .

(٢) أسلوب المناقشة ، دكتور عبد الحليم حنفى ص ١١ ، ١٢

والحوار من ألوان الخطابة ، ويعد أعلى مراتب الكلام ، وأوعر مسالك القول فافضل فيه مذكور لصاحبه ، والإحسان شاهد لربه ولذلك يقل فيه أثر الصنعة ويكون الاعتماد فيه على الطبع والدربة والحوار يكشف عن طاقة بلاغية ومقدرة خطابية ، وبديهية وارتجال ، لأن الجانبين كليهما يقران فيما لم يعد له ، ويفاجىء كل منهما صاحبه بما لم يعلمه ، ومن كان عند البديهة والارتجال قادراً على الإجابة والإحسان فهو عند الروية والسعة أكثر قدرة وأرفع في الفصاحة قة ، وقد قوى فن الخطابة وازدهر بالحوار والجدل ومحاولة الإقناع في الدين والسياسة والخصومات المختلفة ، وكان أن اتبع الخطباء في هذا سبل القرآن وحاكرا أساليبه في إيراد الحجج الخطابية وسوق الأدلة المقنعة وعرض القضايا المنطقية السليمة . وقد أصبح هذا اللون قسماً ضخماً من أقسام الخطابة الإسلامية يمكن أن ينسب إليه جانب كبير من النهضة الخطابية ، وهذا ما مهد لقيام الخطابة الاستشارية السياسية ، ولم تسكن معروفه قبل الإسلام بمفهومها الواضح الصحيح ، وما كانت قريباً منها في بعض منازعات الجاهليين فإنه لم يكن شيئاً يذكر لأنه كان يتمثل في صورة غامضة من القول في الخصومات البدوية تتراءى في ثوب المعاصرة والمناظرة المصطنعة بالعصية القبلية من غير ملاح واضحة أو كيان متميز يميزه كأسلوب المحاورة والمناظرة التي ظهرت فيما بعد في لون متميز .

ومن صفات المحاور أن يكون لبقاً مرناً ذا كياسة وذكا . وحقق يدعم رأيه بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ، وأن يكون ذا أسلوب رقيق سلس يستولى به على قلوب محاوريه ، وينزع منهم إقناعهم وإعجابهم ، وكذلك كان شأن النساء المحاورات مع معاوية ، كسودة بنت حمارة الهمدانية ، وأم سنان بنت خيشمة ، وبكارة الهلالية ، وأروى بنت الحارث وأم البراء بنت صفوان والحجرية كما يظهر في أدبهن الاعتداد بالرأى ، والاعتزاز

بالنفس ، والجسرة في الحق مهما كلفهن ذلك من ثمن ، نرى ذلك ونلاحظه في رد سودة بنت عمارة على معاوية معللة خروجها ضده بحب الإمام على وآل بيته ، حينما قال لها ما حملك على ذلك ؟ قالت : دحب على عليه السلام واتباع الحق .

وكثيراً ما تدعم المحاورات محاورتهن بالاستشهاد بالشعر كقولها متمثلة بقول الخنساء في موقف الدفاع عن أخيها :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

ثم أخذت تشكو إلى معاوية ظلم بسر بن أرطاة وأنه أعمل في قومها الظلم والفسوة ، فخصمهم حصاد السنابل وداس على أجسامهم دوس البقر واستولى على أموالهم ، وقتل أغلب رجالهم ؛ ثم أخذت تمدح الإمام علياً بأبيات ساقها :

صلى الإله على جسم تضمنته قبر فأصبح فيه العدل مدفوناً
قد حالف الحق لا يبغي به بدلاً فصار بالحق والإيمان مقروناً
وفي آخر المحادثة تصف رقة قلب الإمام على وبكائه من أجل نصرة المظلومين والتفاني في سبيل رد الحق إليهم

وسودة في محاورتها كسائر الشيعيات المحاورات تمثل نزعة جديدة قوية ، وجراءة عارقة في سبيل نصرة الحق والمبدأ والعقيدة في ألفاظ رصينة وعبارات قوية جزلة تمثل شجاعة القلب ومضاء العزيمة تتدافع وتتدفق ، تجلجها حرارة الإيمان وتسيطر عليها روح الحب للإمام على رضي الله عنه .

وفي محاوره أم سنان نرى استشهادها بالشعر ما بين الفينة والفينة كطبيعة أسلوب محاوره الشيعيات في هذه الفترة ، وتتلأ في محاورتها صور من

من الاستعارات والتشبيهات والسكنايات التي تملك شغاف القلوب وتأسر المشاعر ، فهي تصور الإمام عليا وقد أحاط به أصحابه من كل جانب ، كالهلال تحيط به النجوم من كل ناحية وهكذا في كل صورة من صورها البيانية ، لا ترى إلا سحر بيان وإبداع صوغ وتحليق خيال ، كما يظهر في المحاوراة أثر الثقافة الإسلامية وما تطبعه في نفس الفرد من قيم عظيمة يدافع عنها بدافع من دينه وعقيدته ، فقد تصدت لمروان لأنه لا يحكم بعدل ولا يقضى بسنة ويتنبع عورات المسلمين ويكشف سوءات المؤمنين في دفاع مرير وإصرار عنيد وتلك هي سمة المتهكمات لآل علي : تراهن يصدعن بالحق دون خوف من حاكم أو خشية من آمر تسيطر ، عليهن روح الحماسة التي تفضي في النهاية إلى ظايتها من الإثارة والتأثير وتنتهي إلى غرضها من الاستجابة والانقياد .

كما رأينا بكارة الهلالية شجاعة جريئة تدخل على معاوية وتحاوره في رباطة جأش وثبات قلب تنطق بالحكمة السائرة « الدهر ذو غير ، من هاش كبر ، ومن كبر قبر ، » .

كما قدمت لنا صوراً مختلفة من ألوان البيان الرائعة « نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين . واعتورتني ، » « فقصر عجبني ، وكثر عجبى ، وعشى بصرى ، » . كما تمثلت باستشهادات شعرية مختلفة بما زاد الحوار جمالا وتأثيراً ، كما تبدو فيها حلاوة الازدواج والموازنة بين الألفاظ والجل في عبارات سهلة وأساليب مخندة برئت من كل صنعة وزخرف وتكلف ، وقصدت إلى ظايتها من أقرب طريق في تنوع يضفى عليها حلاوة الجدة ويسكبها مزجداً من التشويق والتأثير ما جعل معاوية يتأثر بأسلوبها ويبعثها مكرمة مجازاة إلى بلدها .

ومحاوراة أدوى بذت الحارث تنسم ذروة البلاغة بما قبست في خطبتها من أضواء القرآن الكريم ، وأخذت من سنائه ورشفت من رحيقه والذي

يطلع خطبتها يحس الأثر الواضح للبيان القرآني والاعتباسات المضنية من آياته فيتجلى ذلك في قولها : « وكانت كلمتنا هي العليا ، ورد الحق إلى أهله ولو كره المشركون » .

كما استشهدت بأبيات شعرية في غير موضع من الخطبة كمادة الخطيبات الشيعيات ، واشتملت الخطبة على تعنيف معاوية لانتزاعه السلطة من يد الإمام علي ، وأخذه غير حقه من غير جدارة واستحقاق ، ثم أخذت تمدح الإمام وتصفى عليه هالات المدح والسناء ، وأنه بعد النبي ﷺ بمنزلة هارون من موسى وفرقت بين غابى على ومعاوية ، وأن غاية الإمام الجنة وغاية معاوية النار ، ولقد بلغت بها جرأتها النادرة ، وشجاعتها الفذة أن شتمت معاوية ولم ترهب سطوة السلطان ، وهيبة الحسك لرباطة جأشها ، ولذلك جاءت خطبتها آية في البلاغة لأن آلة البلاغة كما يقول أبو هلال العسكري رباطة الجأش فإن الحيرة والدهش يورثان الحبسة والحصر وهما سبب الارتاج والإجبال^(١) ولذا فإن معاوية رغم شتاها ، قد سحرته بلاغتها ، وقوة منطقتها ، ووفرة التضمين من القرآن الكريم والشعر العربي الجليل ، وأمر لها بستة آلاف دينار .

وفي هذا المجال تبرز أيضاً شجاعة أم البراء بنت صفوان تحاور معاوية في شجاعة خارقة وبلاغة نادرة رغم ضعفها ومرضاها حتى شهد لها معاوية ببلاغة منطقتها ، وقوة حجتها حيث قال لها عقب خطبتها له : « قانلك الله ما تركت مقالة لقائل ، وسر بلاغها يرجع كما قدمنا إلى اقتباسها من القرآن واستدلالها بآيات منه في معرض اعتذارها أمام معاوية كقولها : « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه » ، واستشهادها بالشعر العربي الجليل في معرض الحماسة والتهيج كقولها :

(١) الصناعتان ١٤ ، ١٥ .

— ١٤٠ —

يا ليتنى أصبحت غير قعيدة فأذب عنه عساكر الفجار
وكقولها في بكاء الإمام على :

الشمس كاسفة لموت إمامنا خير الخلائق والإمام العادل

وما يمتاز به أسلوب الخطبة ذلك الوضوح الذي يكشف عن قصدها في
غير تعمية ولا تضليل ، وتلك الصراحة الشجاعة في غير مواربة أو نفاق .

وما أحسن محاوره دارمية الجحونية حيث تعلل لحبها للإمام على بن
أبي طالب تعليلاً لطيفاً يقوم على الحجة والبرهان والمنطق دأدله في الرعية ،
وقسمه بالسوية ولحبه المساكين ، وإعظامه لأمر الدين .

كما عللت كراهيتها للمعاوية . وأرجعت ذلك — في نظرها — إلى سفهه
للدماء وشق عصا الطاعة ، والجور في القضاء والحكم بالهوى . وأسلوبها يمنح
إلى السجع المحبب أحياناً وإلى الازدراج والموازنة تارة أخرى ، كما يشيع في
محاورتها ضرب الأمثال الحكيمة دأدأ ولا كصدا ، ، دودمرعى
ولا كالسعدان ، وهذا ما يميز أسلوب الخطيبات الشيعيات بوجه خاص كما بينا
فيما تقدم .

المتحاورات مع معاوية

(محاورة سودة بنت عمارة)

وفدت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية ، على معاوية بن أبي سفيان ، فاستأذنت عليه فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت ، فقال لها . كيف أنت يا بنت الأشتر ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال لها : أنت القائمة لأخيك يوم صفين :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر عليا والحسين ورهطه واقصد لهند وابنها بهوان
إن الإمام أخو النبي محمد علم الهدى ومنارة الإيمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه قدما بأبيض صارم وسنان^(١)
قالت : إى والله ، ما مثلى من رغب عن الحق ، أو اعتدد بالكذب ، قال لها : فما حلك على ذلك ؟ قالت . حب على عابه السلام ، واتباع الحق ، قال : فوالله ما أرى عليك من أثر على شيناً ، قالت : أنشدك الله يا أمير المؤمنين وإعادة ما مضى ، وتذكرك ما قد نسي ، قال : هيهات ! ما مثلى مقام أخيك ميذسى ، وما لقيت من أحد ما لقيت من قرمك وأخيك ، قالت : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، وما كان أخى خفى المقام ، ذليل المسكن ، ولكن كما قالت الخنساء :

وإن صخرأ لناشم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار^(٢)

(١) القدم : الشجاع ؛ وفى بلاغات النساء : فقد الحتوف وسر أمام لوائه .

(٢) العلم : الجبل .

قال : صدقت ، لقد كان كذلك ، فقالت : مات الرأس وبتر الذنب ،
وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي عما استغفيت منه ، قال : قد فعلت ، فقولي
حاجتك ، قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للناس سيئاً ، ولأمورهم
متقلداً ، والله ساءلك عن أمرنا وما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم
علينا من ينهض بعزك ، ويدسط سلطانك ، فيحصدنا حصاد السبيل ، ويدوسنا
دياس^(١) البقر ، ويسومنا^(٢) الخسيسة ، ويسلبنا الجليمة ، هذا ابن أوطاة^(٣)
قدم بلادى ، وقتل رجالى ، وأخذ مالى ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ،
فإما عزك عنا فمسكرناك ، وإما لا ، فمرفناك ، فقال معاوية : إياي تهديد
بقومك ؟ والله لقد هممت أن أحملك على قتب^(٤) أشرس فأردك إليه ، ينفذ
فيك حكمه ، فأطرفت تبكى ، ثم أنشأت تقول :

صلى الإله على روح قصمته قبر فأصبح فيه العدل مدفوناً
قد حالف الحق لا يبغي به ثمناً فصار بالحق والإيمان مقروناً

(١) الدوس والدياس والدياسة : الوطء بالرجل .

(٢) يسومنا : أى يذيقنا الخسيسة .

(٣) هو بسر بن أوطاة ، وقيل ابن أبى أوطاة ، وكان معاوية فى أيام على
سيره إلى الحجاز واليمن ليقتل شيعة على ويأخذ البيعة له ، فسار إلى المدينة ، ففعل بها
أفعالا شنيعة ، وسار إلى اليمن ؛ وكان عليها عبيد الله بن العباس من قبل على ،
فهرب عبيد الله فزها بسر ، وذبح عبد الرحمن وقثم ابني عبيد الله وهما صغيران بين
يدى أمهما عائشة بنت عبد المदान ؛ فأصابها من ذلك حزن عظيم ؛ فأنشأت تقول :

يا من أحس بنى اللذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف
يا من أحس بنى اللذين هما سمى وقلبي ؛ فقلبي اليوم غتطف
يا من أحس بنى اللذين هما مخ العظام ، فمخى اليوم مزدھف

(٤) القتب : الإكاف الصغير على أر سنام البعير .

قال : ومن ذلك ؟ قالت : عليّ بن أبي طالب ، رحمه الله تعالى ، قال : وما صنع بك حتى صار عندك كذلك ؟ قالت : أتيت يوماً في رجل ولاء صدقانا ، فساكن بيننا وبينه ما بين الغث والسمين ، فوجدته قائماً يصلي ، فأنفل من الصلاة ، ثم قال برأفة وتعطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكي ثم رفع يديه إلى السماء ، فقال : اللهم إني أنت الشاهد عليّ وعليهم ، إني لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : قد جاءكم بيضة من ربكم ، فأوفوا السكيل والميزان بالقسط^(١) ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا^(٢) في الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ، إن أناك كتابي هذا فاحفظ بما في يدك من عملنا ، حتى يأتي من يقبضه منك والسلام . »

فأخذته منه والله ما خرمه بخزام ، ولا ختمه بختم^(٣) فقرأته ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإصاف لها ، والعدل عليها ، فقالت : ألي خاصة ، أم لقوى عامة ؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هي والله إذن الفحشاء واللؤم ، إن لم يكن عدلاً شاملاً ، وإلا يسعني ما يسع قومي ، قال : هبات ! لمظلمكم^(٤) ابن أبي طالب الجرأة على السلطان فبطيئاً ما تقطعون ، وغركم قوله :

(١) القسط : العدل . (٢) عثا يعثو عثوا : أفسد .

(٣) الخزام : جمع خزيمة بالكسر ، وهي في الأصل : حلقة تجعل في أحد جانبي منخري البعير ، وخزيمة النعل : سير رقيق يحرم بين الشراكين ، الختم : الطين يختم به على الشيء ، (والخاتم : ما يوضع على الطينة) .

(٤) التلظ : التذوق ، وأن يحرك الإنسان لسانه في فيه بعد الأكل ، يتتبع به بقية من الطعام بين أسنانه ، ويخرجه فيمسح به شفتيه ، واسم علم ما بقى في الفم اللماظة بالضم ، ويقال : لظ فلاناً (بالتشديد) لماظة : أي شيئاً يتلظّه ، ولماظه من حقه .

فلو كنت بوأباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام
وقوله :

ناديت همدان والأبواب مغلقة ومثل همدان سنى فتحة الباب
كالهندوانى لم تغفل مضاربه وجهه جميل وقلب غير وجاب
أكتبوا لها واقومها (١) .

محاورة أم سنان بن خيشمة

حبس مروان بن الحكم ، وهو والى المدينة ، فى خلافة معاوية ، غلاماً
من بنى ليث فى جنابة جناها ، فأنته جدة الغلام ، وهى أم سنان بنت خيشمة (٢)
المذحجية ، فكلمته فى الغلام فأعاض لها مروان ، فخرجت إلى معاوية ، فدخلت
عليه فاندسبت فعرفها ، فقال لها : مرحباً بك يا بنت خيشمة ، ما أقدمك أرضنا ،
وقد عهدت لك تشتمينا (٣) وتحضين علينا عدونا ؟ قالت : إن لبنى عبد مناف
أخلاقاً طاهرة ، وأعلاماً ظاهرة ، وأحلاماً وافرة ، ولا يجهلون بعد علم ،
ولا يسهون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أولى الناس باتباع
ما سن أبائهم لأنهم ، قال : صدقت ، نحن كذلك فكيف قولك :

عزب الرقاد ، فقلتى لا ترقد^٤ واللبل يصدر بالهموم ويورد^٥
يا آل مذحج ، لا مقام ، فشمروا إن العدو لآل أحمد يقصد

(١) العقد الفريد ١ : ١٢٩ ، وبلاغات النساء ص ٣٥ .

(٢) فى صبح الأعشى و جشمية ، وهو تحريف : وتحريره : ما ذكرنا .

(٣) وفى بلاغات النساء : و أشعثين قربى ، أى تبغضين .

(٤) عزب : بعد .

هذا على كالهلال تحفه وسط السماء من الكواكب أسعد^(١)
 خير الخلائق وابن عم محمد إن يهدكم بالنور منه تهتدوا
 ما زال مذ شهد الحروب مظفراً والنصر فوق لوائه ما يفقد
 قالت : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خلقاً بعده ،
 فقال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهي القائلة :
 إما هلك أبا الحسين فلم تزل بالحق تعرف ما دياً مهدياً
 فاذهب ، عليك صلاة ربك مادعت فوق الغصون حمامة قرياً^(٢)
 قد كنت بعد محمد خلفاً كما أرضى إليك بنا ، فكنت وفياً
 واليوم لا خلف يؤمل بعده هيات نأمل بعده إنسياً
 قالت : يا أمير المؤمنين لسان نطق ، وقول صدق ، ولئن تحقق فيك
 ما ظنناه ، لحظك الأوفر ، والله ما أورتك الشئان في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ،
 فأدحض مقاتلهم ، وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تردد من الله قرأ ،
 ومن المؤمنين حباً . قال : وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت : يا سبحان الله ، والله
 ما مثلك من مدح يبطل ، ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا ،
 وضمير قلوبنا ، كان والله على أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك ،
 قال : من ؟ قالت : من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص . قال : دويم
 استحققت ذلك عندك ؟ قالت بسعة حديدك ، وكريم عفوكم ، قال : وإنهما
 يطعمان في ذلك ؟ قالت : هما والله لك من الرأي على مثل ما كنت عليه لعثمان

(١) سعد النجوم عشرة : سعد بلع (بضم ففتح) وسعد الأخبية ، وسعد
 المذابح ، وسعد السعود ، وهذه الأربعة من منازل القمر
 (٢) القمري : ضرب من الحمام .

ابن عفان رحمه الله تعالى . قال : والله لقد قاربت ، فما حاجتك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين إن مروان تبنّك بالمدينة تبنّك من لا يريد منها البراح ، لا يحكم بعدل . ولا يقضى بسنة ، يتتبع عثرات المسلمين ، ويكشف عورات المؤمنين ، حبس ابن ابني ، فأتيته ، فقال : كيت وكيت ، فألقته أخشن من الحجر ، وألقته أمرًا من الصبر . ثم رجعت إلى نفسي بالسّلامة ، وقالت : لم لأصرف ذلك إلى من هو أولى بالعفو منه ، فأتيتك يا أمير المؤمنين لتكون في أمرى ناظرًا ، وعليه مُعَدِّيًا ، قال : صدقت ، لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحجته ، اكتبوا لها بإطلاقه . قالت : يا أمير المؤمنين ، وأنسى لي بالرجعة ، وقد نفي زادي ، وكلت راحتي ، فأمر لها برحلة موطأة ، وخمسة آلاف درهم^(١) .

محاورة أروى بنت الحارث بن عبد المطلب مع معاوية

دخلت أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية وهي عجوز كبير ، فلما رآها معاوية قال : مرحباً بك وأهلاً يا عمة ، فكيف كنت بعدنا ؟ فقالت : يا ابن أخي ، لقد كفرت يد النعمة ، وأسأت لابن عمك الشّعبة ، وتسميت بنين اسمك ، وأخذت غير حقك ، من غير بلاء كان منك ولا من آباءك ، ولا سابقة في الإسلام ، ولقد كفرتم بما جاء به محمد ﷺ ، فأفئس الله منكم الجذود^(٢) ، وأضرع^(٣) منكم الخسدود ، وردّ الحق إلى أهله ، ولو كره المشركون ، وكانت كلبتنا هي العليا ، وبنينا ﷺ هو المنصور ، فوايتم علينا

(١) العقد الفرید ١ : ١٢١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، وبلاغات النساء ص ٦٧

(٢) جمع جد : وهو الحظ .

(٣) أذل ، وفي بلاغات النساء د وأصغر .

من بعده - وتحتجون بقرابتكم من رسول الله ﷺ ، أقرب إليه منكم ، وأولى بهذا الأمر - فسكننا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون ، وكان على بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا ﷺ بمنزلة هرون من موسى (١) ؛ فغایتنا الجنة ، وغایتكم النار ، .

فقال لها عمرو بن العاص : كفى أيتها العجوز الضالة ، واقصرى من قولك ، وغضى من طرفك ، قالت : ومن أنت ، لا أم لك ؟ قال : عمرو ابن العاص ، قالت : يا ابن اللخناء (٢) النابغة تتكلم ، وأنت كنت أشهر امرأة تغنى بمكة ، وأخذت لأجرة اربع على ظلمك ، واعن بشأن نفسك ؛ فوالله ما أنت من قریش فی اللباب من حسنها ، ولا كريم منصبها ، ولقد ادعاك خمسة (٣) نفر من قریش ، كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أمك عنهم ، فقالت : كلهم أناني ، فانظروا أشبههم به ، فالحقوه به ، فغلب عليك شبه العاص ابن وائل ، فالحقت به ، ولقد رأيت أمك أمام منى بمكة مع كل عبد طاهر (٤) ، فأتهم بهم فإنك بهم أشبه .

(١) ورواية بلاغات النساء : فسكننا أهل البيت أعظم الناس في الدين حظاً ، ونصيباً وقدرأ ، حتى قبض الله نبيه ﷺ ، مغفوراً ذنبه ، مرفوعاً درجته ، شريفاً عند الله مرضياً ، فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون ، يذبحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبينا بمنزلة هرون من حيث يقول : « يا ابن أم » لأن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ، (٢) رجل الخن وأمة الخناء : لم يخننا ، ولحن السقاء ، وغيره كفرح : أنتن ، والجوزة فسدت ، ومن شتم العرب « يا ابن اللخناء » كأنهم يقولون : يا ذنء الأصل ، أو يا لثيم الأم ، والنابغة أم عمرو ، وقد تقدمت .

(٣) وفي بلاغات النساء ستة ، .

(٤) فاجر .

فقال مروان : كفى أيتها المعجوز ، وأفصرى لما جئت له . ساخ بصرك
مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهادتك ، فقالت : وأنت أيضاً يا ابن الزرقاء تنكلم ؟
فوالله لآنت إلى سفيان بن الحارث بن كلدة أشبه منك بالحكم ، وإنك أشبهك
في زرقاة عينيك ، وحمرة شعرك ، مع قصر قامته ، وظاهر دمامته ^(١) ، ولقد
رأيت الحكم ماد ^(٢) القامة ، ظاهر الإمة ^(٣) ، سبط ^(٤) الشعر ، وما بينكما
قراية إلا كقراية الفرس الضامر من الأنان ^(٥) المقرب ^(٥) ، فاسأل أمك تخبرك
بشأن أهلك إن صدقت ، ثم التفتت إلى معاوية ، فقالت : والله ما جراً على
هؤلاء غيرك ، وإن أمك للقائلة يوم أحد في قتل حمزة رحمة الله عليه :

نحن جزيناكم بيوم بدر
والحرب بعد الحرب ذات مسعر
ما كان عن عتبة لي من صبر
أبي وعشى وأخى وصرى
شفيت (وحشى) غليل صدرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى
فشكر وحشى على دهرى
حتى ترم أعظمى فى قبرى
فأجبتها :

يا بنت جبار عظيم الكفر
خزيت فى بدر وغير بدر
صبحك الله قبيلى الفجر
بالهاشميين الطوال الزهر
بكل قطاع حسام يفرى
حمزة ليشى ، وعلى صقرى

(٢) تمتد القامة ،

(١) الدمامة : القبح .

(٣) الإمة بالكسر ويضم : الشأن والنعمة والهيئة .

(٤) سبط الشعر : طويله .

(٥) الأنان : الحمارة

فقال معاوية لروان وعمر بنو ريلسكا : أنتما عرضتاني لها ، وأسسمتاني
ما أكره ، ثم قال لها : يا عمة اقصدي قصد حاجتك ، ودعي عنك أساطير
النساء ، قالت : تأمرني بألني دينار . وألني دينار ، وألني دينار ، قال : ما تصنعين
يا عمة بألني دينار ؟ قالت : أشتري بها عينا خرمخارة^(١) في أرض خوار^(٢) ،
تكون لولد الحادث بن عبد المطلب ، قال : نعم الموضع وضعها ، فما تصنعين
بألني دينار ؟ قالت : أزوجه بها فتبان عبد المطلب من أكرامهم ، قال : نعم
الموضع وضعها ، فما تصنعين بألني دينار ؟ قالت : أستعين بها على عسر المدينة ،
وزيادة بيت الله الحرام ، قال : نعم الموضع وضعها ، هي لك نعم وكرامة ،
ثم قال : أما والله لو كان علي ما أمر لك بها ، قالت : صدقت ، إن عليا أدى
الأمانة ، وعمل بأمر الله ، وأخذ به ، وأنت ضيعت أمانتك ، وخنت الله في
ماله ، فأعطيت مال الله من لا يستحقه ، وقد فرض الله في كتابه الحقوق لأهلها
ويئسها ، فلم تأخذ بها ، ودعانا (أي علي) إلى أخذ حقنا الذي فرض الله لنا
فشغل بحربك عن وضع الأمور مواضعها ، وما سألتك من مالك شيئا فتمن به ،
إنما سألتك من حقنا ، ولا نرى أخذ شيء غير حقنا ، أتذكر عليا ؟ فض الله
فالك^(٣) ، وأجهد بلامك ، ثم علا بكأوها وجعلت تنسب عليا ، فأمر لها
بستة آلاف دينار ، وقال لها : يا عمة : أنفق هذه فيما تحبين ، فإذا احتجت
فاكتبي إلى ابن أخيك يحسن صفدك^(٤) ومعوتك ، إن شاء الله^(٥) .

(١) أي تضر النساء ، (٢) خواره أي ضعيفة .

(٣) تدعو عليه : أي نثر الله أسنانك .

(٤) الصفد : العطاء .

(٥) العقد الفريد ١ : ١٣٤ ، بلاغات النساء ص ٣٢

محادثة أم البراء بنت صفوان ومعاوية

استأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية فأذن لها ؛ فدخلت عليه وعليها ثلاثة دروع^(١) (بروذي) تسحبها ذراعاً ؛ قد لاثت^(٢) على رأسها كوبراً كالمنسف ، فسلبت وجلست ، فقال لها معاوية : كيف أنت يا بنت صفوان ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : كيف حالك ؟ قالت : ضعفت بعد جلد ، وكسبت بعد نشاط ، قال : شتتان بينك اليوم وحين تقولين :

يا زبدُ دونك صارماً ذارونق
أعرج جوادك مسرعاً ومشجراً
أعجب الإمام وذبح تحت لوائه
يا ليتني أصبحتُ لست قعيدة
عضب المزة ليس بالخصوار
للحرب غير معرٍ لفرار
والق العدو بصارم بتار
فأذب عنه عساكر الفجار

قالت : قد كان ذلك ، ومثلك من عفا ، والله تعالى يقول : عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، قال : هيئات ، أما والله لو عاد لعدت ، ولسكنته اخترم^(٣) منك ، قالت : أجل ، والله إني لعلى بينة من ربي ، وهدي من أمري قال : كيف كان قولك حين قتل ؟ قالت : أنسيته ؟ قال بعض جلسائه : هو حين تقول :

يا للرجال لعظم هول مصيبة
قدحت ، فليس مصابها بالخالل^(٤)
الشمس كاسفة لفقد إمامنا
خير الخلائق والإمام العادل

(١) درع المرأة : قميصها (مذكر) ودرع الحديد مؤنث وقد يذكر .

(٢) اللوث : عصب العمامة ، والكور : لوث العمامة .

(٣) اخترم : هلك .

(٤) المتحول المتغير .

يا خيرَ من ركب المطى ومن مشى فوق التراب لمحتفٍ أو ناهل
حاشا النبي لقد هددت قوادنا فالحق أصبح خاضعاً للباطل^(١)
فقال معاوية : قاتلك الله افسا تركت مقالا لقاتل ، اذكرى حاجتك ،
قالت أما الآن فلا ، وقامت فعمرت ، فقالت : تعيس شانيء على^(٢) ، فقال
زعمت أن قالت هو كما علمت ، فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة . وقال :
إذا ضيعت فمن يحفظه ؟^(٣)

محاوره دارمية الحونية ومعاوية

وحج معاوية سنة من سنيه ، فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت
بالحجون^(٤) ، يقال لها دارمية الحجونية . وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر
بسلامتها ، فبعث إليها فجاء بها ، فقال : ما حالك يا بنته حام ؟ فقالت : لست
لحام إن عتيه إنما أنا امرأة من بنى كنانة ، ثممت من بنى أبيك ، قال : صدقت ،
أتدريين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا أعلم الغيب إلا الله ، قال : بعثت إليك
لأسألك : علام أحببت علي وأبغضتني ، وواليتي وعاديتي ؟ قالت : أو تعفيني
يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، قالت : دأما إذا أبيت فإني أحببت علياً على
عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك
بالأمر ، وطلبتك^(٥) ما ليس لك بحق ؛ وواليت علياً على ما عقد له رسول الله
ﷺ من الولاء^(٦) ، وعلى حبه المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك

-
- (١) جمع القوة قوى ، وإنما قالت قواد بالمدة للضرر .
(٢) أى مبهضه . (٣) صبح الأعشى ١ : ٢٦١ بلاغات النساء ص ٧٨
(٤) الحجون : جبل بمحلة مكة .
(٥) الطلبة : الطلاب .
(٦) تشير إلى قوله : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه .

على سفكك الدماء ، وشقك العضا ، وجورك في القضاء ، وحكمك بالهوى .
 قال : فلذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ، ورتبت عجزتك ، قالت :
 يا هذا بهند ^(١) ، والله كان يضرب المثل في ذلك لأبي ، قال معاوية : يا هذه
 اربعي ^(٢) ، فإننا لم نقل إلا خيراً ، إنه إذا انتفخ بطن المرأة ثم خلق ولدها ،
 وإذا عظم ثدياها تروى ^(٣) رضيعاً وإذا عظمت عجزتها رزن مجلسها ،
 فرجعت وسكنت ، فقال : يا هذه هل رأيت علياً ؟ قالت : إى والله لقد رأيته ،
 قال : فكيف رأيته ؟ قالت : رأيته والله لم يفتنه الملك الذى فتتك ، ولم تشغله
 النعمة التى شغلتك ، قال : فهل سمعت كلامه ؟ قالت : نعم والله فكان يحلو
 القلوب من العسى ، كما يحلو الزيت الطست من الصدا ، قال : صدقت . فهل
 لك من حاجة ؟ قالت . أو تفعل إذا سألتك ؟ قال : نعم ، قالت : تعطينى مائة ناقة
 حمراء فيها لحما وراعيها ، قال : قصصين بها ماذا ؟ قالت : أغزو بألبانها الصغار
 وأستحيي بها الكبار ، وأكثب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر ، قال : فإن
 أعطيتك ذلك ؛ فهل أحل عندك محل على بن أبى طالب ؟ قالت : ما ع ولا كصداء ^(٤)

(١) هى أمه هند بنت عتبة .

(٢) ارتوى .

(٣) صداء : حين لم يكن عندهم ماء أعذب من ماشا . ويروى عن ابنة هانيء
 ابن قبيصة : أنه لما قتل لقيط بن زرارة (من دارم) زوجها رجل من أهلها ،
 فكان لا يزال يراها تذكر لقيطاً ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنيت من لقيط ؟
 قالت : كل أموره حسن ، ولكنى أحدثك أنه خرج إلى الصيد مرة ، وقد ابتنى بي
 فرجع إلىى وبقميصه نضح من دماء صيد ، والمسك يضوع من أعطافه ، ورائحة
 الشراب من فيه ، فضمني ضمة ، وشمى شمة . فليتنى مت شمة .

فقبل زوجها مثل ذلك ، ثم ضمها وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ قالت :
 ماء ولا كصداء .

- ١٥٣ -

ومرعى ولا كالسعدان^(١) ، وفقى ولا كالك ، سبحان الله أو دونه ؛
فأنشأ يقول :

إذا لم أعد بالحلم منى عليكم فمن ذا الذى بعدى يؤمل للحلم
مخذيها هنيئاً ، واذكرى فعل ما جد جزاك على حرب العداوة بالسلم
ثم قال : أما والله لو كان على حياً ما أعطاك منها شيئاً ، قالت : لا
ولا وبرّة واحدة من مال المسلمين^(٢) .

(١) السعدان : نبت ذو شوك ، وهو من أفضل مراعى الإبل ، ولا تحسن
على نبت حسنها عليه ، وأول من قال ذلك الخنساء بنت عمرو بن الشريد ، وذلك
أنها أقبلت من الموسم ؛ فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت عتبة بن ربيعة ؛
ففرجت عنها وهى تنشدهم مرثى فى أهل بيتها ؛ فلما دنت منها قالت : على من
تبكين ؟ قالت : أبكى سادة مضوا ؛ قالت : فأنشدني بعض ما قلت ؛ فأنشدتها ،
فقالت الخنساء : مرعى ولا كالسعدان ، ثم أنشدتها ما رئت به أغاها صغراً ،
وقيل إن المثل لامرأة من طيء .

[(٢) العقد الفرید ١ : ١٣٢ وصبيح الأعشى ١ : ٢٥٩ وبلاغات النساء ص ٦٧]

الأديبات في العصر العباسي والأندلسي

الأدب العربي في ذلك العصر خصب إلى أبعد حدود الخصوبة ؛ ولقد بلغ الأدب شأواً عظيماً ، ومكانة عالية لم يحلم بها من قبل ، ويرجع السبب في ذلك - كما أسلفنا - إلى حب الخلفاء والولاة للأدب وبذلمهم النفيس الأدباء والشعراء وهذا ما دفع الأدباء إلى أن يحسنوا إنتاجهم ويتقنوا أدبهم كي يفوزوا بالجوائز الثمينة فضلاً عما يحظون به من القربى للخلفاء والأمراء إذا صادف أدبهم قبولاً لديهم ، فظهر جيل عظيم من الأدباء الأفاضل ، كابن الزيات ، وابن المقفع ، والجاحظ ، وعمرو بن مسعدة ، والمأمون وغيرهم ، وفي الأندلس أبو عامر بن شهيد ، وابن زيدون ، وابن جنيتر ، وابن عبد ربه وغيرهم ، وقد نبغ في هذه العترة من النساء أديبات شهد لهن التاريخ بالقدرة المائقة في الأدب ، وكن أمثلة تحتذى في الأدب والنقد ، يتلاعبن بالفصاحة ويتصرفن في فنون القول وينقاد لهن عصي المعنى وليداً جديداً في البيان واللسان والجمال والحسن والإبداع والتصوير والروعة والآلاقة والجرس الموسيقي ، ومن هؤلاء : أم جعفر وقد كانت أديبة ناقدة ، وذات ذوق مرهف في قول الأدب ونقده .

يقول صاحب كتاب الأغاني :

لما جلس الأمين في الخلافة أنشده أبو العتاهية :

يا ابن هم النبي خير البرية إنما أنت رحمة للرعية
يا إمام الهدى الأمين المصطفى بلباب الخلافة الهاشمية
لك نفس أمارة لك بالخير وكف بالمكرمات نديه
إن نفساً تحملت منك ما حملت لت المسلمين نفس قوية

ثم خرج إلى دار أم جعفر فقالت له أنشدني ما أنشدت أمير المؤمنين
فأنشدها فقالت أين هذا من مدائحك في المهدي والرشيده فغضب وقال : إنما
أنشدت أمير المؤمنين ما يستملح وأنا القائل فيه :

يا عمود الإسلام خير عمود والذي صيغ من حياء وجود
والذي فيه ما يسلى ذوى أحزان عن كل هالك منقود
والأمين المذهب الهاشمي القرم محض الآباء محض الجدود
إن يوماً أراك فيه ليوم طلعت شمس بهمس السعود

فقالت له : الآن وفيت المديح حقها وأمرت له بعشرة آلاف درهم^(١)
وكما كانت أم جعفر أديبة نافذة كانت عليّة بنت المهدي كذلك فقد قال عنها
الحصري : وكانت عليّة تعدل بكثير من أفاضل الرجال في فضل العقل وحسن
المقال لها نثر رائق وغناء رائع وشعر ذائع^(٢) .

(١) الأغاني ٢٠ ص ١١ .

(٢) كانت أمها مكنونة ، المغنية ، أنضر جواري المدينة وجهاً ، وأسميها
منظراً وقد اشتراها المهدي في حياة أبيه المنصور (٧٧٥ - ٧٨٥ م) بمائة ألف
درهم ، وقد وهبها من قلبه أكثر من هذا المال وشغف بها . وكان قد أخفى أمرها
حتى وفاة المنصور ، فولدت له د عليّة .

فنانة ومتعبدة :

نشأت د عليّة ، أميرة تستقبل خلافة بعد خلافة . فن خلافة الأب والجد ،
إلى خلافة الأخ وابن الأخ . فشبت زهرة يانعة مدللة ، بين مقاصير الذهب وبسط
الحرير . وثققت بما هو جدير بأمثالها . تقول الشعر الجميل ، وتصوغه لحناً أجمل ،
وتؤديه بأعذب صوت وأبرع أداء . ولها إلى جانب ذلك ملاحاة طبع ، وإيناس
روح ، وجمال دجاجة .

هم فضل الأدبية الشاعرة ، فلقد كانت على بعد مرامها في الشعر بعيدة
العاية في النثر ، وما قاله إبراهيم بن المهدي فيها : كانت فضل الشاعرة من أحسن
خلق الله خطاباً وأفصحهم كلاماً ، وأبلغهم في مخاطبة ، وأثبتهم في محاوره ،

== وقد جمعت د عليّة ، بين شخصية الفنانة البارعة ، وصفات المتعبدة المصلية .
فما نكاد نزال نصيبها من الغناء ، حتى تنصرف إلى تلاوة القرآن وقراءة الكتب
وإنك لتعجب إذا علمت أن هذه الموهبة الجميلة القصيرة قد صدرت عن هذه
الموسيقارة الشاعرة المبدعة حيث قالت : « ما حرم الله شيئاً إلا وقد جعل منه
عوضاً ، فبأى شيء يحتاج عاصيه والمتهك لحرمانه ، . وكان إيمانها بطهارة تاريخها
ينطقها بهذا الاعتزاز والفخر إذ تقول : « لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها قط » .

عليّة وأخوها إبراهيم :

وقد كتب التاريخ الكثير عن أنباء أخيها إبراهيم بن المهدي ومكانته من
الغناء ، تلك المسكاة التي سامى بها إسحق وأباه إبراهيم الموصلي ، وما كان له من
براعة الابتداع والإلشاء في هذا الفن . وما نحن أولاء نرى المؤرخين يقومون
« عليّة » على أخيها فيقولون : « ما اجتمع في الإسلام أخ وأخت أحسن غناء من
إبراهيم بن المهدي وأخته عليّة ، وكانت تقدم عليه ، . وإنما غلبت شهرة إبراهيم
عليها ، لأنه كان أكثر ظهوراً في المجالس والمناظرات ، ويستطيع التنقل في حرية
وانطلاق ، بينما هي محبسة لا تغني إلا حين يطلب إليها الخليفة . وهي كثيرة التعبد ،
غنية عن الشهرة ، وليست بحاجة إلى أن يعرف الناس عنها تلك المسكاة في الغناء .

غنى « البنان » المغنى المشهور حناً بديعاً في حضرة المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢ م)
فانقسم أحد أقطاب الفن عن شهداء ذلك المجلس ، وسأل المعتصم عن بواعث ابتسامه
فأجاب : إن سبب اجتماع الشرف من ثلاث جهات على هذا الشعر : في قائله وملحنه
ومستمعه ، أما قائله فالرشيد ، وأما ملحنه فعليه ، وأما مستمعه فأنت يا أمير
المؤمنين . وهذه القصة القصيرة توضع أيدينا على المستوى الذي ارتفعت إليه
الموسيقى في ذلك العصر الزاهر ، وتقفنا عند مكانة عليّة الأدبية وصيتها الأدبي الذائع ==

ومنهن نزهون الغرائبية فلقـد كانت أدبية فضلا عن كونها شاعرة رقيقة ، وكانت سريعة الحاضرة ، حلوة النادرة .

ومن نوادرها أن ابن قزمان الشاعر جاء لينظرها ، وكان يلبس غفارة صفراء على زى الفقهاء ، فلما رأيته قالت إنك اليوم كبقرة بنى إسرائيل صفراء فاقع لونها ، ولكن لا تسر الناظرين ، فضحك الحضور ، وثار ابن قزمان واندفع يسب ، وتدافع القوم عليه حتى طرحوه في بركة أمام البستان الذى احتفل المجلس به ، وحديث الأدب فى هذا العصر حديث شيق ، وإذا قلت لك إن هناك أستاذات من النساء كن يدارسن بنات الأسر الشريفة ، ويروين الشعر فلا تظن هؤلاء على قدر محدود فيما أخذن فيه من درس وتحصيل ، ولكنهن كن مع أعلام هذا العصر وأقدار رجاله على سواء واحد من العلم والأدب والفهم والتخريج^(١) . وأول أستاذة للأدب فى هذا العصر ولادة بنت المستكفي ، فلقد كان قصرها مهبطاً رحباً ، ومنتدى خصيباً يأوى إليه كل مبدع منقطع النظير من الكتاب والأدباء ، ومن هؤلاء الوزراء والأمراء والعلماء والقضاة والولاة ، فيتجاذبون الأدب ، ويتناولون النقد ، ولادة بمثابة الحكيم الذى يقف الأدباء عند حكمه ، ويخضع الشعراء ، لوجهة نظره ورأيه .

وقد عاشت عليّة فى صون حجابها ، على معهود عصرها ، مغنية عازفة شاعرة ملحنة مبتكرة ، معلّمة متعلّمة . كما عاشت ناسكة فى صومعة فقها ، وخلوة عبادتها . فقد صامت وحجّت ورتلت القرآن ، ثم قالت الشعر الرقيق السهل الممتنع ، وأرسلت الغناء الساحر الذى إن لم نسمعه ، فقد سمعنا عنه ما يكفى .

وقضت عليّة ، سنة عشر ومائتين من الهجرة (٥٢٨ م) ، ولم تتجاوز الخمسين ربيعاً ... حياة كلها صبا وشباب ، عاصرت فيها الرشيد وقاطعت بعده الغناء ودواعيه حزناً عليه ، ثم ألح عليها الأمين فى خلافته فتسكفت ، وبعد أن قتل الأمين وانتصر المأمون ، عادت أيضاً إلى الغناء فى قلة ، حتى مات بين يديه ، وصلى عليها بنفسه .
(انظر مجلة دائرة المعرفة ، - مؤسسة الأهرام) .

(١) المرأة العربية ج ٣ : ١٣٦

طبيعة أدب المولدين

إن الأدب الذى ساد هذه الحقبة يسمى الأدب المولد لأن معظم الأدباء فى تلك الفترة كانوا مولدين ، أو يدعونهم بالأدب المحدث أى أنه حدث ووجد بعد العصر الجاهلى ، وعصر صدر الإسلام وبنى أمية .

فالأدب بهذا المعنى صار مولداً محدثاً أى لم يكن عربياً خالصاً فى معانيه وأساليبه فقد أصبح المعنى دقيقاً ، والأسلوب جميلاً والخيال رائعاً خلافاً ، إذ أن هذا الأدب وليد حضارة عظيمة تعتمد على ثقافة علمية وأدبية لقحت العقل العربى ، ووسعت آفاق المتأدبين بما تعج به من خيالات بارعة ، وتصورات بدعية ، هذا إلى ما جادت به طبيعة بلادهم من مناظر ذات بهجة ، وجنان ذات بهاء ورواء فأضفت على أسلوب أدباء بغداد وقرطبة رقة وسحراً وجمالاً ، وقد تلفت أدباء قرطبة وبغداد فوجدوا منافع على بعد قرارها أجرى من السلسال وأصغى من الزلال ، ولذلك جروا فى ميدانه ، وطاروا فى سمانه إلى مدى بعيد ، أنتج ألواناً مبدعة فى الأدب والشعر ما جاء فتنة للناظرين كما نلاحظ (١) أن الأدب فى هذه الفترة صار أدباً مرن الأسلوب .

ونظرة واحدة نلقها على هذا التراث الأدبى نرى أن البيئة العباسية هى التى أعطت اللغة العربية مرونة الأساليب ، وأداء المعانى الدقيقة وهى التى وضعت نماذج التعبير العباسى البليغ فقد كانت تنفى الألفاظ المنوعة الوحشية عن كلامها كما كانت تنفى الساقط السوقي فاخترت بذلك لغة متوسطة تقوم على الألفاظ الرشيدة ذات المخارج السهلة ، كما تقوم على ضرب من التلاؤم الموسيقى يكسو الكلام كسوة الازدواج والترادف الصوتى البديع .

(١) الأدب العربى فى العصر العباسى : ٥٤ د / محمد بدر

وكان كبار الأدباء في القرن الثاني للهجرة يتخذون هذا الأسلوب الوسط
لإمامهم ومثلهم ، وهو أسلوب كان يوازن موازنة دقيقة بين طرافة المعاني
وإثارة الجمال في نفس القارئ والسماع ولكن بدون كد ومجاهدة ،
فهم لا يباليون في تكلفهم ولا يستدعون الألفاظ من بعيد (١) .

ونلاحظ أن أدب المرأة في هذه الفترة كان يميل أحياناً إلى السجع وتارة
إلى الازدواج والموازنة ، وللتوازن طلاوة ورواق ، وسببه الاعتدال لأنه
مطلوب في جميع الأشياء ، وإن كانت مقاطع الكلام معتدلة ، وقعت من
النفس موقع الاستحسان (٢) .

ويظهر لنا من مطالعة ما جادت به أقلام الأدبيات في ذلك العهد أن التوازن
كان الطابع لنثر ذلك العهد ، ولا يعني ذلك أننا لا نجد فيه شيئاً من السجع
أو البديع فيه . ولكنهما لم يكونا منهجاً عاماً يتقيد به الأدباء ، وذلك ما نلاحظه
في كلام ونثر المحدثين ، كما نشاهده في مثل المحاور التي جرت بين الرشيد
وأم جعفر ، فأحياناً نجد فيها سجعاً ، وتارة أخرى نجد ازدواجاً وتوازناً ،
وهذا ما يعنيه قول ابن أبي الأصم .

« ولا تجعل كلامك كله مبنياً على السجع فتظهر عليه السكفة ، وتبين فيه
أثر المشقة ، ويتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط واللفظ النازل ،
وربما استدعيت كلمة للقطع ، رغبة في السجع . فجاءت نافرة من أخواتها ،
قلقة في مكانها ، بل اصرف كل النظر إلى تجويد الألفاظ ، وصحة المعاني ،
واجهد في تقويم المباني ، فإن جاء الكلام عفواً من غير قصد وتشابهت
مقاطعها من غير كسب كان ، وإن عز ذلك فانكره وإن اختلفت أجماعه » (٣) .

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ١٣٣ .

(٢) المثل السائر : ١٦٩ .

(٣) صبح الأعشى ٢ : ٢٣٦ .

— ١٦٠ —

وهذا ما جرى عليه المحدثون ، وسارت على ضوئه الأدبيات المحدثات ،
وحديث الأدب النسوي في هذه الفترة حديث شيق أليف ، وخصوصاً إذا
تكلّمنا عن أستاذات الأدب والشعر في هذه الفترة كعالية ، والعباسة ، وأسماء ،
ولبابة بنات المهدي ، وفاطمة أم جعفر والأديبة العروضية إحدى فتيات
« بالمشيه » فقد فاقت علماء عصرها ، وكانت تحفظ كتاب الكامل للبريد
والأمالى للقالى وتشرحهما شرحاً مبيناً ، ولقد يمتد بنا الطريق إذا استوفينا
رسائل تمثل حب الأدب بباقات من روضه .

نماذج للنثر النسائي في هذا العصر

(وصية السيدة زبيدة لعل بن عيسى بن ماهان) : نعى الشر بين الأخوين (الأمين والمأمون) واستطار شرره وبعث الأمين جيشاً كثيفاً بقيادة علي بن عيسى ابن ماهان لحرب المأمون، وأعد المأمون للقائه جيشاً بقيادة طاهر بن الحسين؛ فلما أراد علي الشخوص إلى خراسان، ركب إلى باب السيدة زبيدة والددة الأمين فودعها فقالت : « يا علي ، إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي ، إليه تناهت شفقتي وعليه تكامل حذري ، فإني على عبد الله منه عطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابني مالك نافس أخاه في سلطانه وغاراه على ما في يده ، والكريم يؤكل لحمه ، ويميته غيره ، فأعرف لعبد الله حق والده ، وأخوته ، ولا تجهه (١) بالكلام ، فإنك لست نظيره ، ولا تقتسره اقتسار (٢) العبيد ، ولا ترهنه (٣) بقيد ولا غل ، ولا تمنع منه جارية ولا خادماً ، ولا تعنف عليه في السير ولا تساوره في المسير ، ولا تركب قبله ، ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شمتك فاحتمل منه ، وإن سفه عليك فلا تراده .

ثم دفعت إليه قيداً من فضة ، وقالت : إن صار في يدك فقيده بهذا القيد ؛ فقال لها : سأقبل أمرك وأعمل في ذلك طاعتك .

وهي وصية عظيمة من امرأة عظيمة ملئت عطفاً وحباً على أبنائها لذا تراها في وصيتها صادقة العاطفة ، ولسكلامها حلاوة الطبع ، وجمال الوقع وحسن اللفظ وقرب المعنى والبعد عن الاستكراه والتوفيق في الأداء ، إلى

(١) تجهه بالكلام : أن نلقاه بما يكره (٢) قسره واقتسره : قهره

(٣) لا ترهنه أى لا تضعفه : والغل : القيد

ما فيه من بلاغة الإيجاز فقد ذكرته بحق الأبوة والأخوة وأن يتلطف في معاملته ولا يقسو عليه بقيد أو غل ولا يركب قبله ، ولا يستقل دابته حتى يأخذ بركابه ويحتفي به ، ثم أعطته درساً في الصبر وقوة الاحتمال « إن شتمك فاحتمل منه وإن سفه عليك فلا ترده » .

وقد وفقت زبيدة في أداء المعنى ، وكانت حساسة جداً في استخدام الألفاظ ورسمت الطريق الأمثل في معاملة الأخوة إذا حز بهم أمر أو جد بينهم مكروه ونسوق نماذج أخرى تمثل قبساً لأدبيات هذا العصر .

إن من البيان لسحراً

كانت أم جعفر بن يحيى - وهي فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبية أَرْضعت الرشيد مع جعفر . لأنه كان رَبي في حجرها ، وغذى برسلها ، لأن أمه ماتت عن عهده ، فكان الرشيد يشاورها مظهرأ لإكرامها ، والتبرك برأيها . وكان آلى وهو في كفالتها أن لا يحجبها ، ولا استشفعته لأحد إلا شفعتها ، وآلت أم جعفر أن لا تدخلت عليه إلا مأذوناً لها ، ولا شفعت لأحد مقترف ذنبا ، قال سهل بن هارون : فكم أسير فسكت ، ومهم عنده فرجت ، ومستغلق فتحت .

ولما فتك الرشيد بابنها جعفر ، وقذف بزوجها وبقية أسرتها في غياهب السجن بعد إيقاعه بالبرامكة - طلبت الإذن عليه في دار البانوقة ، وماتت بوسائلها إليه فلم يأذن لها ، ولا أمر بشيء فيها ، فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها واضعة لثامها ، محتفية في مشيها ، حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب فقال : ظئر أمير المؤمنين بالباب في حالة تقلب ثمانية الحاسد إلى شفقة أم الواحد . فقال الرشيد : ويحك يا عبد الملك أوساعية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وحافية ! قال : أدخلها يا عبد الملك ،

فرب كبد غذنتها ، وكربة فرجتها ، وعودة سترتها ، قال سهل :
 فما شككت يومئذ في النجاة بطلائها ، وإسعافها بحاجتها ، فلما نظر
 الرشيد إليها داخلة محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس ، وأكب على
 تقبيل رأسها ، ومواضع ثديها ثم أجلسها معه فقالت : يا أمير المؤمنين ! أهدو
 علينا الأمان ، ويجفونا خوفاً لك الأعوان ويحردك بنا البهتان ، وقد ربيتك في
 حجرى ، وأخذت برضائك الأمان من عدوى ودهرى ؟ فقال لها : وما ذلك
 يا أم الرشيد ؟ قال سهل : فأيسنى من رأته تركه لكتبتها آخر ما أطمعنى
 من بره بها أولاً ، قالت : ظنرك يحى وأبوك بعد إليك ، ولا أصفه بأكثر
 مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته وإشفاقه عليه ، وتعرضه للحتف في
 شأن موتى أخيه ، قال لها : يا أم الرشيد أمر سبق وقضاء محم ، وغضب من
 الله نفذ ، قالت : يا أمير المؤمنين يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب .
 قال صدقت فهذا مما لم يحجه الله . فقالت : الغيب محجوب عن النبيين فكيف
 عنك يا أمير المؤمنين ؟ قال سهل : فأطرق الرشيد ملياً ثم قال :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميم لا تنفع

فقالت بغير روية : ما أنا إيمحي بتسمية يا أمير المؤمنين وقد قال الأول :
 وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل : د والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله
 يحب المحسنين فأطرق هارون ملياً ، ثم قال يا أم الرشيد أقول :

إذا انصرفت نفسى عن الشيء لم تسكد

إليه بوجه آخر الدهر تقبل

فقالت يا أمير المؤمنين وأنا أقول :

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعنى يمينك فانظرى أى كف تبدل

قال هرون : رضيت ، قالت فمبه لي ، فقد قال رسول الله ﷺ : (من ترك شيئاً لله لم يوجده الله فقهه) . فأكب هرون ملياً ، ثم رفع رأسه يقول : لله الأمر من قبل ومن بعد . قالت يا أمير المؤمنين : ديو مئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، واذكر يا أمير المؤمنين أليتك ما استشفعت إلا شفعتني ، قال : واذكري يا أم الرشيد أليتك وأن لا شفعت لمقترف ذنباً ، قال سهل : فلما رأته صرح بمنعها ، ولاذعن طلبها ، أخرجت حقاً من زمردة خضراء فوضعت بين يديها . قال الرشيد : ما هذا ؟ ففتحت عنه قملاً من ذهب فأخرجت منه ذوائبه وثناياه قد غسست جميع ذلك في المسك ، فقالت يا أمير المؤمنين استشفع إليك ، وأستعين بالله عليك ، وبما صاد معنى من كريم جسدك ، وطيب جوارحك ، ليحيى عبدك فأخذ هارون ذلك فلقمه ثم استعبر وبكى بكاء شديداً ، وبكى أهل المجلس ، ومر البشير إلى يحيى وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ، ورجوع عنه . فلما أفاق رمى جميع ذلك في الحق وقال لها : لحسن ما حفظت الوديمة ، قالت : وأهل الكفاة أنت . فسكت وأقبل الحق ودفعه إليها وقال : إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . قالت والله يقول : وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . ويقول : « وأوفوا بعهدي الله إذا عاهدتم » . ثم قال : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت : ما أقسمت لي به أن لا تهجنيني ولا تمتهنني . قال : يا أم الرشيد أنشريه محكة فيه ؟ قالت : أنصفت ، وقد فعلت خير مستقبلة لك ، ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عن لا يسخطك قال : يا أم الرشيد أماً لي عليك من الحق مثل الذي لهم ؟ قالت : بلى ! أنت أعز عليّ وهم أحب إليّ . قال : فتعكمي في ثمنه بغيرهم . قالت : بلى قد وهبتك وجعلتك في حل منه وقامت عنه ، وبقي مبهوتاً ما يحير لفظة . قال سهل : وخرجت فلم تعد ولا والله ما رأيت لها عبرة ، ولا سمعت لها أنس .

هذه صورة من عاطفة الأمومة الجياشة الصادقة في ودها وعطفها وقد جاءت هذه المحورة دون تسكلف أو تصنع في عبارات مليئة بالحذب والحنان وهي تصور قلب الواله الشا كل حين تأخذها على أبنائها الشفقة بهم والخوف عليهم ، من جراء مسئولية شاقه ألقيت عليه ، أو حمل ثقيل ناء به كاهله في حالة حزينه بأثمه تقاب شماته الحاسد إلى حزين الوالد ، وشفقة أم الواحد . والمحورة لوحة فنية مؤثرة استخدمت فيها الأدبية أم جعفر كل أدوات البلاغة المؤثرة لعلها تنفذ بها إلى قلب الرشيد من استفهام يمز شغاف القلوب د أو يعدو علينا الزمان ، ويجفون خوفاً لك الأعوان ويحردك^(١) بنا البهتان ، إلى اقتباسات واستشهاد بالقرآن الكريم : د يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، كما تسرى في جوانب المحورة ، وبين ثناياها الاستعارات والكنايات والتشبيهات اللطيفة :

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ألقيت كل تميّة لا تنفع
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

وتظهر في المحورة سمات الأدب في هذه الفترة من طابع ديني يسيطر على المحورة والاستمانة بالقرآن الكريم اقتباساً وباشعر العربي استشهاداً كما تبدو فيها السهولة البادية في وضوح مفرداتها وسلاسة تراكيبها مع جزالة في الأسلوب وقوة في الأداء ، ومن لسرى القول ورائعه ، وجيد القول وبلغته د بعد أولئك الذين ارتضعوا أفريق البلاغة ، وارتشفوا رحيق البيان وغذوا بلبان الأدب وتوارثوا عن آبائهم وأجدادهم ملكة أصيلة ، وذوقاً صحيحاً ، يجعلهم يتمسكون ناصية اللغة ويحتلون منها المسكن العلى والذروة الرفيعة ،^(٢) .

(١) يحردك أى يفضيك .

(٢) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول : ١٧٥ وانظر بلاغات النساء .

ألوان أخرى من أدب النساء

حدث الأصمعي قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهي تقول :
والله إن شربك لاشتفاف ، وإن ضجعتك لانعجاف ، وإن شملتك لالفتاف
ولإنك للشبع ليلة نضاف ، وتنام ليلة تخاف ، فقال لها : والله إنك لسكرواء
الساقين ، قعواء الفخذين مقام الرفعين مفاضة الكسحين ، ضيفك جائع ،
وشرك شائع .

ولما قتل الفضل بن سهل دخل المأسون على أمه فوجدها تبكي فقال لها :
أنا ابنك مكانه ، فقالت إن ابنا ترك لي ابنا مثلك لجدير أن يبكي عليه .
وقال الأصمعي : دفعت في بعض تطوافي إلى امرأة من ولد ابن هرمة (١)
فسألتها القري ، فقالت : إني والله ممرمة ممسنته ما عندي شيء ، فقالت :
أما عندك سزور ؟ فقالت : والله ولا شاة ، ولا دجاجة ، ولا بيضة ، فقلت
أما ابن هرمة أبوك ؟ فقالت : بلى والله ، إني لمن صميمهم ، قلت : قاتل الله
أباك ! ما كان أكذبه حيث يقول :

لا أمتع العوذ بالفصال ولا أبتاع إلا قريبة الأجل (٢)
إني إذا ما البخيل آمنها هانت ضموراً مني على وجل
ووليت فنادت : اربع أيها الراكب ، ففعله والله ذلك أقله عندنا (٣) ،
فقلت : إلا تسكوني أوسعتنا قري فقد أوسعتنا جواباً .

(١) أحد الشعراء الأجواد الفرسان .

(٢) العوذ من النياق الحديثات النتاج يقول إنه لا يبقها حتى يعظم فصيلها
وكلا شطري البيت كناية عن تسكرمه بذبح الإبل فلا يبق منها شيئاً .
(٣) تقول هذا التسكرم أقل ما عنده من الطعام .

وحدث ابن السراج قال : أخبرني بعض الإخوان أن بعض البصريين أخبره قال : كنا لَمَّةً تجتمع ولا يفارق بعضها بعضاً ، فضجروا من المقام في المنازل . فقال بعضها : لو عزمتن فخرجنا إلى بعض البساتين ؛ فخرجنا إلى بستان قريب منا ، فبينما نحن فيه إذ سمعنا ضجة راعتنا ، فقلت للبستاني : ما هذا ؟ فقال هؤلاء نسوة لمن قصة ، فقلت له أنا دين أصحائي : وما هي ؟ قال الحيان أكبر من الخبر ، فقم حتى أريك وحدك ، فقلت لأصحابي أقسمت ألا يبرح أحد منكم حتى أعود ، فنهضت وحدي فصعدت إلى موضع أشرف عليهم وأراهن ولا يرينني ، فرأيت نسوة أربعاً كأحسن ما يكون من النساء وأشكهن ، ومعهن خدم لمن وأشياء قد أصلحت من طعام وشراب وآلة ، فلما اطمان المجلس بهن جاء خادم لمن ومعه خمسة أجزاء من القرآن فدفع إلى كل واحدة منهن جزءاً ووضع الجزء الخامس بينهن فقرأن أحسن قراءة ، ثم أخذن الجزء الخامس فقرأت كل واحدة منهن ربع الجزء ، ثم أخرجن صورة معهن في ثوب ديبق فبسطنها بينهن فبيكين عليهن ودعون لها ثم أخذن في الودح فقالت الأولى :

خلس الزمان أعز مختلس	ويد الزمان كثيرة الخلس
لله هالكه لجمت بها	ما كان أبعدهما من الدنس
أتت البشارة والنعي بها	ما قرب ما تمها من الحرس

ثم قالت الثانية :

ذهب الزمان بأنس نفسى عنوة	وبقيت فرداً ليس لي من مؤانس
أودى بملك لو تفادى نفسها	لفديتها بمن أعز بأنفس
ظلمت تسكمنى كلاماً ممطماً	لم أسـتـرب فيسه بشئ مؤانس
حتى إذا فتر اللسان وأصبحت	للوت قد ذبلت ذبول النرجس

- ١٦٨ -

وثعلبت منها محاسن وجوها
وعلا الأنين تحننه بتنفس
جمل الرجاء مطامعي يأساً كما
قطع الرجاء صحيفة المتأس
ثم قالت الثالثة :

جرت على عهدا الليالى
وأحدثت بعدها أمور
فاعتضت باليأس منك صبرا
فاعتدل اليأس والسرور
فلمست أرجو ولست أخشى
ما أحدثت بعدك الدهور
فليبلغ الدهر في مساقى
فأعنى جهده يضير
ثم قالت الرابعة :

خدن نفيس من الدنيا لجمعت به
أفضى إليه الردى في حومة القدر
وينح المنايا أما تنفك أسهمها
معلقات بصدر القوس والوتر
يبلى الجديدان والأيام بالية
والدهر ميثلى وتبلى جدّة الحجر
ثم قن قن فقلان بصوت واحد :

كننا من المساعدة
نحيا بنفس واحدة
فأت نصف نفسى
حين توى فى الرمس
فأبقائى بعده
وشطر نفسى عنده
فهل سمعتم قبلى
فيمن مضى بمثلى
عاش بنصف رُوح
فى بدن صحيح

ثم تنهجن وقلان لبعض الخدم : كم عندك منهن ؟ قال : أربعة ، قلن : انت هن ، فلم ألبث إلا قليلا حتى طلع بقفص فيه أربعة غربان مكتفات فوضع القفص بين أيديهن فدعون بعيدان فأخذت كل واحدة منهن عوداً فغنت :

لعمري لقد صاح الغراب بينهم فأوجع قلبي بالحديث الذي يبدى
 فقلت له أفصحت لا طرد بعدها بریش فهل للقلب ويحك من رد
 ثم أخذن واحداً من الغربان فنتفن ريشه حتى تركنه كأن لم يكن عليه
 ريش قط ، ثم ضربنه بقضبان مهن لا أدرى ما هي حتى قتله ، ثم غنت :
 أشاقتك والليل ملأني الجران غراب ينوح على غصن بان
 أحص الجناح شديد الصباح يبكي بعينين ما تهملان
 وفي نعبات الغراب اغتراب وفي البان بين بعيد التدان
 ثم أخذن الثاني فشددن في رجله خيطين وباعدن بينهما وجعلن يقلن له :
 أتبكي بلا دمع وتفرق بين الآلاف أفن أحق بالقتل منك ؟ ثم فعلن به
 ما فعلن بصاحبه ، ثم غنت الثالثة :

ألا يا غراب البين لونك شاحب وأنت بلوعات الفراق جدير
 فبين لنا ما قلت إذ أذنت واقع وبين لنا ما قلت حين تطير
 فإن بك حقاً ما تقول فأصبحت هرومك شتى والجناح كسير
 ولا زلت مكسوراً عدياً لناصر كما ليس لي من ظالمى نصير
 ثم قالت له : أما الدعوة فقد استجيبت ، ثم كسرت جناحيه ، وأمرت
 ففعل به ذلك ، ثم غنت الرابعة :

عشية مالى حيلة غير أنى بلقط الحصى والخط في الدار مولع
 أخط وأحمر كل ما قد خططته بدمعى والغربان في الدار وقع
 ثم قالت لأخوانها : أى قتلة أقتله ؟ فقلن لها علميه برجليه وشدى في رأسه
 شيئاً ثقيلاً حتى يموت ، ففعلت به ذلك ، ثم وضعن عيدانهن ودعون بالغذاء
 فأكلن ، ودعون بالشراب فشربن ، وجعلن كلما شربن قدحاً شربن للصورة مثله
 وأخذن عيدانهن فغنتين ، فغنت الأولى :

أبكي فراقكم عيني فأرقها إن المحب على الأحباب بكاءً
لا زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا وريب الدهر عداء
ثم غنت الثانية :

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمر
لقد تركني أحسد الوحش أن أرى أليفين منها لا يروعهما الدهر
ثم غنت الثالثة :

سأبكي على ما فات منك صباية وأندب أيام الأمانى الذواهب
أحين دنا من كنت أرجو دنوه رمتني عيون الناس من كل جانب ؟
فأصبحت مرحوماً وكنت محسداً فصبراً على مكروه مر العوافب
ثم غنت الرابعة :

سأفنى بك الألام حتى يسرنى بك الدهر أوتفنى حياتي مع الدهر
عزاء وصبراً أسعداني على الهوى وأحمد ما جربت عاقبة الصبر

ثم أخذت الصورة فما انفتحتا وبكت وبكين ثم شكون إليهما جميع ما كن فيه ،
ثم أمرن بالصورة فطويت ، ففرقت أن يتفرقن قبل أن أكلهن ، فرفعت
رأسى إليهن ، فقلت لقد ظلمتن الغرban ، فقلن لو قضيت حق السلام وجعلته
سبباً للسلام لأخبرناك بقصة الغرban ، قال فقلت إنما أخبرتك بالحق ،
قلن وما الحق في هذا ؟ وكيف ظلمناهن ؟ قلت إن الشاعر يقول :

نعب الغراب برؤية الأحباب فلذلك صرت أحب كل غراب

قالت إحداهن صحفت وأحلت المعنى إنما قال : بفرقة الأحباب فلذلك
صرت عدو كل غراب ، فقلت لهن : فبالذى خصكن بهذا المجلس وبحق صاحبة
الصورة لما خبرتني بخبركن ؟ قلن لولا أنك أقسمت علينا بحق من يجب علينا

حقه ما أخبرناك ! كنا صواحب مجتمعات على الألفة ، لا تشرب منا واحدة البارد دون صاحبها فاخترمت صاحبة الصورة من بيننا ، فمنحن نصنع في كل موضع نجتمع فيه مثل الذي رأيت ، وأقسمنا أن نقتل في كل يوم نجتمع فيه ما وجدنا من الغربان لعله كانت ، قلت وما تلك العلة ؟ قلن فرق بينها وبين أنس كان لها ففارقت الحياة فكانت تذهمن عندنا ونأمر بقتلن ، فأقل ما لها عندنا أن نمتثل ما أمرت به ، ولو كان فيك شيء من السواد لفعلنا بك فعلنا بالغربان ، ثم نهضن فضين ورجعت إلى أصحابي فأخبرتهم بما رأيت ، ثم طلبتهن بعد ذلك فما وقعت لهن على خير ، ولا رأيت لهن أثراً .

* * *

وحدث التوزي عن عتبة الغلام قال : خرجت من البصرة والابلة فإذا أنا بخباء أعراب قد زرعوا ، وإذا أنا بخيمة ، وفي الخيمة جارية مجنونة عليها جبة صوف لا تباع ولا تشتري ، فدنوت فسلبت فلم ترد علي السلام ، ثم وليت فسمعتها تقول :

زهد الزاهدون والعابدون	إذ لمولاهم أجاجوا البطونا
أسهروا الأعين القريحة فيه	فضى ليلهم وهم ساهرونا
حسرتهم محبة الله حتى	علم الناس أن فهم جنونا
هم ألبا ذوو عقول ولكن	قد شجاهم جميع ما يعرفونا

قال فدنوت إليها فقلت لمن الزرع ؟ فقالت : لنا إن سلم ، فتركتهما وأتيت بعض الأخبية فأرخت السماء كأفواه القرب ، فقلت لا تينها فأنظر قصتها في هذا المطر ، فإذا أنا بالزرع قد غرق وإذا هي قائمة نحوه وهي تقول : والذي أسكن قلبي من طرف سحر بصفي محبة اشتياك لب قلبي ليوقن منك بالرضا ، ثم التفتت إلى فقالت يا هذا إنه زرعه فأنبته ، وأقامه فسنبله وركبه ، وأرسل

عليه غيثاً فسقاه ، وطلع عليه لحفظه ، فلما دنا حصاه أهله ، ثم رفعت رأسها نحو السماء فقالت : العباد عبادك وأزاقهم عليك ، فاصنع ما شئت ، فقلت لها كيف صبرك ؟ فقالت : اسكت يا عتية :

إن إلهي أغني حميد لي كل يوم منه رزق جديد
الحمد لله الذي لم يزل يفعل بي أكثر مما أريد
وحدث النوزي أيضاً قال :

رأيت امرأة عند قبرين وهي تقول : بأبي لم تتمتع الدنيا من لذتها ، ولم تساعدك الأقدار على ما تهوى ، فأوفرتني كداً ، فصرت مطية للأحزان ، فليت شعري كيف وجدت مقيلك ، وماذا قلت وقيل لك ، ثم قالت : استودعتك من وهبك لي ثم سلبنى أسراً ما كنت بك . فقلت لها يا أمه ! ارضى بقضاء الله عز وجل وسلمي لأمره . فنالت : هاه ! نعم فجزاك الله خيراً ، لا حرمنى الله أجرك ولا فتلنى بفراقك . فقلت لها من هذا ؟ فنالت : ابني وهذه ابنة عمه ، كان مسعى بها زفت إليه ثم أخذها وجمع أتى على نفسها فقصت ، فاتصدع قلب ابني فلحقت روحه روحها ، فدفنتهما في ساعة واحدة ، فقلت فمن كتب هذا على القبرين ؟ قالت أنا ، قلت وكيف ؟ قالت : كان كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين لحفظهما لكثرة تلاوته لهما ، فقلت من أنت ؟ فقالت فزارية ، قلت ومن قالهما ؟ قلت : كريم ابن كريم ، سخي ابن سخي ، شجاع ابن بطل ، قلت من ؟ قالت : مالك بن أسماء بن خادجة يقولهما في امرأته حبيبة بنت أبي جندب الأنصاري ، ثم قالت وهو الذي يقول (١) :

يا منزل الغيث بعدما قنطوا ويا ولي النسماء والمئن
يكون ما شئت أن يكون وما قدرت ألا يكون لم يكن

(١) أنظر بلاغات النساء والمرأة العربية ج ٣ : ١٢٦ .

يا جارة الحى كنت لى سكناً إذ ليس بعض الجيران بالسكن
أذكر من جارتى ومجلسها طرائفاً من حديثها الحسن
ومن حديث يزيدنى مقة ما الحديث المرموق من ثمن
قال فـسـكتـنـها ، ثم قامت مولية فقالت : شغلتنى عما إليه قصدت لتسكين
ما بي من الأحزان .

وحدث الأصمى قال :

سمعت رجلاً من تميم يقول : أضللت إبلاً فخرجت فى طلبهن ، فردن
بجارية أعشى نورها بصرى ، فقالت ما حاجتك ؟ قلت : لئلا لى أضللها ، فهل
عندك شىء من عندها ؟ قالت : أفلا أدلك على من عنده علمهن ؟ قلت بلى .
قالت الذى أعطاكهن هو الذى أخذهن ، فاطلبهن من طريق التيقن لا من
طريق الاختبار ، ثم تبسمت وتنفست الصعداء ، ثم بكيت وأطالت البكاء
وأنشأت تقول :

لأنى وإن عرضت أشياء تفزعكنى	لموجع القلب مطوى على الحزن
إذا دجا الليل أحيا لى تذكره	والصبح يبعث أشجاناً على شجن
وكيف ترقد عين حمار مؤنسها	بين التراب وبين القبر والسفن
أبلى الثرى وتراب الأرض جدته	كان هورته الحسناء لم تسكن
أبكى عليه حنيناً حين أذكره	حنين والهة حنت إلى وطن
أبكى على من حنت ظهري مصابته	وطير النوم عن عيني وأرقنى
والله لا أنس حبي الدهر ما سجت	حمامة أو بكى طير على فنن

فقلت عند ما رأيت جمالها ، وحسن وجهها ، وفصاحتها وشدة جزعها :
هل لك من لا تدم خلائقه وتؤمن بوائقه ؟ فأطرقت ملياً ، ثم أنشأت تقول :

كنا كغصنين في أصل غذاؤهما ماء الجدارل في روضات جنات
 فاجتث خيرهما من جنب صاحبه دهر يكر بفرحات وترحات
 قد كان عاهدني إن خائني زمن ألا يضاجع أنثى بعد مشواني
 وكنت عاهدته أيضاً فعاجله ريب المنون قريباً مذ سُفِيات
 فاصرف عناك عن ليس يردعه عن الوفاء خلاب في التحيات
 وحدث النوزي أيضاً عن بعض الكتاب قال : دخلت البصرة أنا وصديقي
 فرأيت فتاة قد خرجت من بعض الدور كأنها فلقة قر . فقلت لصاحبي :
 لو ملت بنا إليهما فاستسقيناهما ماء ! ففعل ، فقلنا لها ، جعلنا الله فداك ! استقينا
 ماء ، فقالت : نعم وكرامة ، فدخلت وأخرجت كوز ماء وهي تقول :
 ألا حي شخصي قاصدين أراهما أقاما فلان يعرفا مبتغاهما
 هما استسقينا ماء على غير ظمأة ليستمتعا بالاحظ بمن سقاها
 وحدث محمد بن سلام الجحى يقول : سمعت رجلاً من بني سليم يقول :
 هويت امرأة من الحى ، فكنت أتبعها إذا خرجت إلى المسجد ، فعرفت ذلك
 منى ، فقالت لي ذات ليلة : ألك حاجة ؟ قلت نعم ! قالت وما هي ؟ قلت
 مودتك ، قالت دع ذلك ليوم التغابن^(١) . قال فأبكتني والله فما عدت إليها
 بعد ذلك .

ومن حديث أخرى : أن رجلاً رأى أعرابية بمكان خال ، والليل مأسدل
 الست فقال : أما من سبيل إليك ؟ فقالت : انظر هل يرانا من أحد ؟ قال
 ما يرانا إلا الكواكب ! قالت : وأين مكوكبها ؟ فهبت الرجل وانصرف
 ذاهلاً ما يتكلم .

(١) يوم التغابن : يوم القيامة ، سعى بذلك لأن أهل الجنة يرغبون فيه أهل النار.

نثر الجـوارى

أثر عنهن قطع نثرية بمتازة تجارى أرق وأحسن ما عرف للنثر فى هذه الفترة من ضوابط فنية وحسن تعبير وجزالة وسلامة أسلوب وتدقيق فى المعانى ، وكانت ألفاظها نسمات أسرار فى أساليب لا تشبهها إلا قاتلاتهن فى خفة أرواحهن ، وصفاء أذواقهن .

ودار نثر الجوارى بمجمله حول الترتل ، وأخذ صفة التوازن والازدواج وأحياناً نراه يميل إلى السجع الملتزم ، ولكنه يجمع مقبول ، أخذ صفاء البيئته وحسن روايتها ، وبعضه قصير الفقرات ، وبعضه طويل غير مسرف فى الطول ، وموضوعاته تدور حول التعليق على شعر نال إعجابهم أو العكس أو التعقيب على قول أو رأى سمعته أثناء انعقاد مجالس الأدب ، ومتنديات الشعر أو فى مجالات أدبية أخرى كالتهنئة والاعتذار وغيرهما .

وفى شهادة سعيد بن حميد لبعض الجوارى بالإجادة ، خير دليل وبرهان على ما بلغته الجوارى من إتقان هذا الفن ، فقد قال لعبد الله بن المعتز — وقد ظن أن سعيد بن حميد يكتب الرقاع لفضل فتنسبها لنفسها — قال لابن المعتز : « ما أخيب ظنك ليتها تسلم منى لأخذ كلامها ورسائلها ، والله يا أخى لو أخذ أفاضل الكتاب وأماثلهم عنها لما استغنوا عن ذلك »^(١) .

وكان الجوارى يتأثرن بأساليب السكتاب المشهورين فى هذه الفترة من ذلك ما لاحظته ابن المعتز من أن عربياً أخذت نحو سعيد بن حميد فى الكلام وسلكت مسلكه^(٢) .

(١) الأغاني ١٧/١٥ دار مكتبة الحياة — دار الفكر .

(٢) نفس المصدر

وما كانت الجوارى لتلتقى بالنثر كتابةً وتخييراً ، بل عرف لبعضهن آراء نقدية ، ونظرات صادقة في نقد الكتابة والنثر ، وسجل علماء الأدب لمن مواقف مشهورة نقدت فيها أحسن الأدباء والكتاب ، وأرحبهم باناً وذراعاً في هذا المضمار . فقد تسكلم ابن السجك يوماً وجارية له تسمع كلامه فلما دخل إليها ، قال لها : كيف سمعت كلامي ؟ قالت : ما أحسنه !! إلا أنك تسكلم ترداده اقال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه قالت : إلى أن يفهمه من لم يفهمه يكون قد مله من فهمه^(١) .

وأدب عرب الجارية يقف مثالا حياً ورائعاً على جودة نثر الجوارى وطول باعهم فيه ، فقد عتب المأمون على عريب ، فهجروا أياماً ثم اعتلت فعادها فقال لها : كيف وجدت طعم الهجر ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين لولا حلالة الهجر ما عرفت حلالة الوصل ، ومن ذمّ بدء الغضب ، حمد عاقبة الرضا ، قال : فخرج المأمون إلى جلسائه فحدثهم بالقضية ثم قال : أترى هذا لو كان من كلام النظام ألم يكن كبيراً ؟^(٢) .

وفي هذا يتبين قدر ما بلغه نثر الجوارى من التقدير والإكبار ، ولا سيما من رجل يقدر الأدباء ويحل العلماء وهو المأمون .

وملاحظة أخرى أحب أن أضيفها كعلامة مميزة بين نثر الجوارى في البيئة البدوية ونثرهن في البيئة الحضرية ، فنثرهن في الأندلس مع ما بلغه من ظرف ورقة لم يبلغ نظيره الذي قيل في البيئة البدوية لأن هذا كان يغذيه طبع المرأة العربية في البادية ، ولكليهما منحى يستخف النفوس والأرواح ، فالمرأة العربية البدوية كانت كأفضل النساء صفاءً في الطبع ، رنقاء في النفس ، وسمواً

(١) العقد الفريد والأندية الأدبية : ٢٥٩ .

(٢) الأغا ، ١٨ : ٤٣٤ مكتبة الحياة ببيروت .

في الخاطر ، وجلالا في الغرض وروعة في الأسلوب^(١) ، وكانت الجارية الأندلسية ماثار الفتنه والسحر ، وأضفت فتنها وسحرها على درر أدبها لجاء مبهراً للعين ، ومستولياً على الوجدان ومسيطرأ على القلوب ، ولو أن المرأة العربية المنحضرة ، اهتمت برواية الشعر والأدب من منبعها الصافي البادية لانعكس أثر ذلك على أدبها ، كما أنها لو أخذت ثراث البادية ، وصقلته على غرار الحضارة وغذته بماء ، النعيم لآتت بأطيب الثمرات^(٢) في نثرها وشعرها

نماذج لنثر الجوارى

كتبت عريب :

« بنفسي أنت وسمعى وبصرى ، وكل ذلك لك ، أصبح يومنا هذا طيباً ، طيب الله عيشك قد احتجبت سماءه ، ورق هواؤه ، وتكامل صفاءه ، فكأنه أنت في رقة شمائلك ، وطيب محضرك ، لا فقدت ذلك منك ، سرك الله وحفظك »^(٣) .

ونلاحظ أن رسالة عريب نحت منحى الإيجاز واتخذت طريق الازدواج والتوازن في كتابتها شأن الكتابة في هذه الفترة ، وفي موسيقاها أثر من آثار البيئة الأندلسية التي أكسبت الرسالة دقة وتهذيباً وجمالاً .

وكتبت ظريفة :

« جفوتنا من غير استحقاق للجفاء ، وملت إلى غير مذاهب الظرفاء ، وإنى لم أزل واثقة بإخائك ، راجية لحسن وفائك ، وتحقيق ظن مؤملك أولى بك من الوقوف على تجنبك »^(٤) .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(١) المرأة العربية ج ٣

(٣) الأندية الأدبية : ٢٥٩

(٤) الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس ص ٨٤

فهل هناك ألطف من هذه المعاقبة ، وأساس من هذا الكلام ، وأروع من هذا الأسلوب ، ويلاحظ أنها سلكت نفس الطريقة التي سلكتها صاحبها عريب ، إيجاز ، وقصر فقرات ، وظهر فيها التوازن والازدواج .

وقد بلغت السكابة غرضها دون تكلف ومعاناة في رسالة قصيرة بليغة عرضت فيها ، شكاتها وعائبت وأملت ووبخت ، فكان لها ما أرادت بالقول اللطيف والعبارة الممذبة ، والكلمة المعبرة ، والعاطفة الدافقة الفياضة (١) .

وكتبت عريب للكاتب الكبير إبراهيم بن المدبر ، وقد بلغها أنه صام يوم عاشوراء :

« قبل الله صومك ، وتلقاه بتبليغك ما التمت ، كيف ترى نفسك نفسى فداؤك ، ولم كدرت جسمك في آب أخرجه الله عنك في عافية ، فإنه فظ غليظ وأنت محروور ، وإطعام عشرة مساكين أعظم لأجرك ، ولو علمت لصمت صومك مساعدة ، وكان الصواب في حسناتي دوني ، لأن نيتي في الصوم كاذبة (٢) .

وهي رسالة وجيزة بليغة ، وبلغ من بلاغتها أن ذكرت أمام الكتاب فقال وما يمنعا من ذلك وهي بذت جعفر بن يحيى (٣) .

والتوازن والازدواج صورة بارزة في الرسالة ، وجاءت في عبارات سهلة ، وألفاظ واضحة لا تكلف فيها ، ولا غموض ، ومعان سلسة سائغة ، ولكنها أضعف لغة وأدنى أسلوباً من مثيلاتها الجارية البدويات كما بينا ذلك آنفاً .

(١) انظر الأندية الأدبية : ٢٦٠

(٢) الأغانى ١٥ : ٢٥٥ دار الفكر بيروت

(٣) الأغانى ٨ : ١٧٨ (مطبعة ساس)

المشكلة بالقرآن

وتقدم لنا كتب التراث العربى هذه الصورة الطريفة للسيدة المؤمنة التى آلت على نفسها ألا تتكلم إلا بالقرآن الكريم يرويها عبد الله بن المبارك^(١) على أنها واقعة حقيقية حدثت له بعد انتهائه من الحج والزيارة . فيقول :

« خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام فبينما أنا فى بعض الطريق إذ أنا بسواد ، فتدبرت ذلك فإذا هى عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف .

فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فقلت : سلام قولاً من رب رحيم .

فقلت لها : يرحمك الله ما تصنعين فى هذا المكان ؟

قالت : « من يضلل الله فلا هادى له ، .

فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها : أين تريدن ؟

قالت : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد

الأقصى ، .

فعلمت أنها قد قضت حجبها وهى تريد بيت المقدس .

(١) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلى بالولاء ، التميمى المروزي أبو عبد الرحمن الحافظ ، شيخ الإسلام ، المجاهد التاجر صاحب التصانيف والرحلات ، أفتى عمره فى الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً ، وجمع الحديث والفقه ، والعربية أيام الناس والشجاعة والسخاء ، وهو من سكان خراسان ومات (بهيت) ، (على الفرات) منصرفاً من غزو الروم . له كتاب فى الجهاد وهو أول من صنف فيه ، والرقائق مخطوط ، توفى ١٨١ هـ ٧٩٧ م (انظر الأعلام ، للزركلى ، ود لغتنا الجميلة ، لفاروق شوشة .

- ١٨٠ -

فقلت لها : أنت مذكم في هذا الموضع ؟

قالت : « ثلاث ليال سويا » .

فقلت : ما أرى معك طعاماً تأكلين ؟

قالت : « هو يطعمني ويسقين » .

فقلت : فبأي شيء تتوضئين ؟

قالت : « فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً » .

فقلت لها : إن معي طعاماً فهل لك في الأكل ؟

قالت : « ثم آثموا الصيام إلى الليل » .

فأدركت أنها صائمة فقلت لها : ليس هذا شهر رمضان !

قالت : « ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم » .

فقلت : قد أبيع لنا الإفطار في السفر .

قالت : « وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » .

ولما وجدتهما لا تتكلم إلا بالقرآن الكريم قلت لها : لم لا تتكلمينني
لما أكلتك ؟

فقلت : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

قلت : « فمن أي الناس أنت ؟

قالت : « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل
أولئك كان عنه مسئولاً » .

فقلت : قد أخطأت فاجعلينني في حل .

قالت : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » .

قلت : فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة ؟

— ١٨١ —

قالت : « وما تفعلوا من خير بعلمه الله » ،
يقول عبد الله بن المبارك فأنخت ناقتي .
قالت : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » .
فغضضت بصرى عنها وقلت لها اركبي فلما أرادت أن تركب قفزت
الناقة فزقت ثيابها .
فقلت : « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم » .
فقلت لها : اصبرى حتى أعقلها .
قالت : « ففهمناها سليمان » .
فعقلت الناقة وقلت لها : اركبي .
فلما ركبت قالت : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين
وإنا إلى ربنا لمنقلبون » .
فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسمى وأصيح .
فقلت : « واقصد فى مشيك واغضض من صوتك » .
فجعلت أمشى رويداً رويداً وأترنم بالشعر .
فقلت : « فافرموا ما تيسر من القرآن » .
فقلت لها : لقد أوتيت خيراً كثيراً .
قالت : « وما يذكر إلا أولو الألباب » .
فلما مشيت بها قليلاً قلت : ألك زوج ؟
قالت : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » .
فسكت ولم أكلما حتى أدركت بها القافلة فقلت لها : هذه هى القافلة
فن لك فيها ؟ .

— ١٨٢ —

فقلت : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .
 فعلت أن لها أولاداً ، فقلت : وما شأنهم في الحج ؟ .
 قالت : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون »
 فعلت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب والعمارات فقلت : هذه
 القباب فن لك فيها ؟ .
 قالت : « واتخذ الله إبراهيم خليلاً ، وكلم الله موسى تكليماً يا يحيى ،
 خذ الكتاب بقوة » فناديت : يا إبراهيم يا موسى يا يحيى ، فإذا أنا بشبان
 كأنهم الأقمار قد أقبلوا ، فلما استقر بهم الجلوس قالت : .
 « فابعثوا أحدهم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أذكى طعاماً فليأتكم
 برزق منه » .

ففضي أحدهم فاشترى طعاماً ، فقدموه بين يدي .
 فقلت : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية » .
 فقلت : الآن طعامكم على حرام حتى تخبروني بأمرها .
 فقالوا : هذه أمنا وإن لها أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن
 نزل فيسخط عليها الرحمن ، فسبحان القادر على ما يشاء .
 فقلت : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

دراسة وتعقيب

وفي حديث المرأة الذي نقله لنا عبد الله بن المبارك يقدم لنا دليلاً
 ملموساً على نبوغ المرأة العربية وقوة عارضتها ، وبلاغة منطقتها ، ودقة تمثيلها
 بالآيات الحكيمية ، والمثل القرآني .
 فقد أرتنا سمو القرآن ، وعظمته الأدبية ، وقوته البيانية بما يزرع من

قوة التصوير ودقته وإحكامه ، فليس هناك تصوير أجمع لأطراف المعنى ،
وأشد مداخلة للإحساس وأبلغ إثارة للمشاعر من تصوير القرآن الكريم .
والمتكلمة بالقرآن ، سافت لنا عن طريق عبد الله بن المبارك درراً غالية ،
ولآلىء ثمينة ، وأمثلة رائعة ، ولا تخفى على السامعين قيمة التأثير المثل ، وأثر
الآية الحكيمة في النفس وكيف يودعان في التعبير من الجمال والأسرار
ما يسمو بالمعنى ويصل إلى الغرض منه .

والأمثلة والحكم التي سافتها المرأة المتكلمة بالقرآن كلها أمثلة غير
صريحة ، فقد جاءت أمثلة كامنة مطوية وهي تمثل الآيات القرآنية التي
لم يصرح فيها بلفظ المثل ، وإنما يفهم من معناها ما يدل على أنها تضاهي من
من الأمثلة المعروفة عند العرب^(١) .

فقد حوت القطعة الثرية صوراً عظيمة من أمثلة القرآن : « ومن يضلل
الله فإله من هاد » ، « ولا تقف ما ليس لك به علم » ، « ما يلفظ من قول إلا لديه
رقيب عتيد » ، « واقصد في مشيك واغضض من صوتك » ، « وما يذكر
إلا أولوا الأبواب » ، « ها أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم
تسؤلكم » ، « المسال والبنون زينة الحياة الدنيا » ، « وعلامات وبالنجم
هم يهتدون »

وهذه من أمثلة القرآن الرائعة التي تمثل فيضاً من أسلوب القرآن المعجز الذي
تحدى العرب وهم قد تسنموا ذروة البلاغة ، وبلغوا في الفصاحة أوج السكال .
وقد حوى القرآن أمثلة كثيرة ، بحيث إنك لا تجد في الغالب والكثير
مثلاً أو حكمة عند العرب أو العجم إلا ولهما نظيرهما في القرآن الكريم ،
وقد سئل أحد الحكماء :

(١) القرآن إعجازه وبلاغته ، المطبعة النورانية : ٤٨ دكتور عبد القادر حسين

إنكم ترضون أن القرآن قد حوى أمثال العرب والعجم ، فهل نجد في كتاب الله (اتق شر من أحسنت إليه) فقال أجل ، وما تقوموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ، قال : فهل تجد : (كما تدين تدان) ؟ قال في قوله تعالى : « من يعمل سوءاً يجز به » (النساء ١٢٣) .

قلت : فهل تجد فيه : (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) ؟
قال : « هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل » (يوسف ١٤) .
قلت : فهل تجد (من أظلم ظلماتاً عليه) .
قال : « كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضل به ويهديه إلى عذاب السعير » (الحج ٤) .

قلت : فهل تجد فيه قولهم : (لا تلد الحية إلا الحية) ؟
قال : « ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » (نوح ٢٧) .
قلت : فهل تجد في القرآن قولهم : (للحيطان آذان) ؟
قال : « وفيكم سماعون لهم » (التوبة ٤٧) .
ومن ذلك أيضاً قول علي رضي الله عنه (القتل أنفى للقتل) . وفي القرآن : « ولستم في القصاص حياة » (البقرة ١٧٩) ومن ذلك قول العامة : (من حفر لأخيه بئراً وقع فيها) ، وفي القرآن : « ولا يحق المسكر السقي إلا بأهله » (فاطر ٤٣) ، ومن ذلك (مصائب قوم عند قوم فوائد) وفي القرآن : « وإن تصبكم سيئة ففرحوا بها » (آل عمران ١٢٠) (١) .

وهكذا نجد أن المرأة المنكزمة أهدت لنا باقة بلاغية وأمثلة عظيمة من القرآن الكريم .

وحبذا لو تمثل بذلك فتياتنا واقتبسن تعبيراتهن ومثلن من وحي القرآن ، واقتدين بأسلوبه الحكيم وآياته المعجزات .

(١) نفس المصدر السابق : ٤٩ .

حديث الجوارى الخمس اللاتي وصفن خيل آبائهن

قال القالي في أماليه (١) :

حدثنا أبو بكر بن دريد قال : حدثني عمي عن أبيه عن ابن السكيت عن أبيه قال : اجتمع خمس جوارى من العرب ، فقلن : هل سمعن نعت خيل آبائنا . فقالت الأولى : فرس أبي وردة ، وما وردة ؟ ذات كف ممرحلي ، ومتن أخلي ، وجوف أخوق ، ونفس مروح ، وعين طروح ، ورجل تحروح ، ويد سروح ، مبداهتها إهذاب ، وعقبها غلاب . وقالت الثانية : فرس أبي اللعاب ، وما اللعاب ؟ غيبة سحاب ، واضطرام غاب ، مترص الأوصال ، أشم القذال ، ملأحك المحال ، فارسه مجيد ، وصيده عتيد ، إن أقبل فظي معاج ، وإن أدبر فظليم هداج ، وإن أحضر فعلاج هرّاج .

وقالت الثالثة : فرس أبي حذمه ، وما حذمه ؟ إن أقبلت ففناة ممقومة ، وإن أدبرت فأنفية مالممة ، وإن أعرضت فذببة معجومة ، أرساغها مترصه ، وفصرها معصه ، جريها انثرار ، وتقريبها انكدار .

وقالت الرابعة : فرس أبي خيفق ، وما خيفق ؟ ذات ناهق ممعرق ، وشديق أشدق ، وأديم ملق ، لها خائق أشدف ، ودسيع منفسنف ، وتليل ممسيف ، وثابه زكوج . خيفانة رهوج . تقريبها إهماج ، وحضرها ارتعماج .

وقالت الخامسة : فرس أبي هذلول ، وما هذلول ؟ طريده محبول ، وطالبه مشكول ، دقيق الملاغم ، أمين المعاقم ، عبل المحرم ، يخذ مسرجم ،

(١) ارجع إلى المزمع : ٥٣٨ جزء أول .

منيف الحارِك ، أشمُ السنايك ، مجدول الخصائل ، سبط القلائل ؛ غوج التليل ، صلصال الصهيل ، أديمه صاف ، وسديمه ضاف ، وعفوه كاف .

قال القالى : المُرَحَلَق : المماسس والأخلق : الأملس . وأخوق : واسع . ومروح : كثيرة المرح . وطروح : بعيدة موقع النظر ، وضروح : دفوع ؛ تريد أنها تضرح الحجة برجلها إذا تعدت . وسبوح : كأنها تسبح في عدوها من سرعتها ، وبداهتها ؛ لجأتها ، والبداهة والبديهة واحد ، والإهذاب : السرعة . والعقب : جرى بعد جرى . وغلاب : مصدر غلبته ؛ كأنها تغالب الجرى .

والغبية : الدفعة من المطر . والغاب : جمع غابة ، وهى الأجمة . ومترص : محكم . وأشم : مرتفع . والقذال : معقد العذار . وملاحك : مُداخل ؛ كأنه ذوخل بعضه فى بعض ، والمحال : جمع محالة وهى فقار الظهر . ومجيد : صاحب جواد . وعنيد : حاضر ، ومعاج : مسرع فى السير . وهذاج : فعّال من الهدج وهو المشى الرئيد ؛ ويكون السريع . والعليج : الحمار الغليظ ، وهراج : كثير الجرى .

وحذمة : فتملة من الحزم وهو السرعة ، وقيل القطع . وقولها قناه مقومة ، تريد أنها دقيقة المقدم ، وهو مدح فى الإناث ، والإنفيسية : واحدة الأثافي . ومملبة : مجتمعة ؛ تريد أنها مدورة . وقولها معجزة ؛ قال أبو بكر : المعجزة : وثبة كوثبة الظبي ولا أعرف عن غيره فى هذا الحرف تفسيراً . ومجصة : قليلة اللحم قليلة الشعر . وانثرار : انصباب .

وخيفق : فيعل من الخفق وهو السرعة والناهقان : العظام الشاخصان فى خدئ الفرس . ومُعرق : قليل اللحم ، وأشدق : واسع الشّدق . ومَلَق : ملبس . والأشدف : العظيم الشخص . والد سيع : مركب العُنُق فى الحارِك . ومنفنف : واسع . والتليل : العنق . ومسيّف : كأنه سيف ، وزكوج : سريعة . والخيفانة : الجرادة التى فيها نقط سود تخالف سائر لونها ، وإنما قيل للفرس :

خيفة سرعة اسرعتها ، لأن الجرادة إذا ظهرت فيها تلك النقطة كان أسرع لطيرانها .
ورَهوج : كثيرة الرَّهَج ، وهو الغبار . والإهماج : المبالغة في العدو .
والارتعاج : كثرة البرق وتتابعه .

ومحبول : في حباله ، ومشكول : في أشكال والملاغم : الجحافل . والمعاقم :
المفاصل . وعبل : غليظ والمحزم : موضع الحزام . ويخد : يخد الأرض ؛
أى يحمل فيها أحاديث أى شقوقاً ومرتجم : يرمي الحجر بالحجر . ومنيف :
مرتفع والحارك : منسج الفرس . والسنبك : أطراف الخوافر ، واحدها
سُنْبُك ومجدول : مفتول . والفليل : الشعر المجتدع ، والفوج : اللين
المدهط . والصصلة : صوت الحديد ، وكل صوت حاد ، والسبيب : شعر
الناصية ، وضاف : سابغ .

ولعل هذا الطرف الذى قدمناه فى أدب الجوارى يدل على مدى ما كان لمن
من مواهب أدبية خلاقة ، وأسهموا بإنتاجهم مساهمة كبيرة ظهر أثرها واضحاً فى
الأدب العربى كله ، كما أترن فى شخصيات الآخرين من رواد مجالسهم ، وأصحاب
الأندية ومجالس الأدب تأثيراً عظيماً برز فيما كان من هؤلاء من إنتاج أدبى رائع ،
ما كان ليصدر عنهم لولا ما أثرته فيهم من كوامن العاطفة ومشاهيرن المرفهة ،
وما كان منهم من جميل القول ودرر النثر مما أثار إعجاب الخلفاء والأمراء
واستولى على لب الأدهاء ؛ فكان من هؤلاء وأولئك ، أدب ساحر ، وتغن
عذب ، تودد للجوارى ومجاراة لمن فى الميادين الأدبية المختلفة .

وما أثر عنهم من إنتاج لا يقل جودة وإتقاناً عما أثر عن غيرهم من كتاب
وأدباء ، وبصرف النظر عما أحاط بهم من ظروف قاسية ، كانت تقسو عليهم

- ١٨٨ -

إلى درجة تشويه سمعتهم ، وزعزعة مراكزهم ، وتقليص شخصياتهم ، وإلصاق كل ما هو شائن معيب بهم .

ومع ذلك فقد استطعن بما توفر لهن من ثقة بالنفس ومواهب أدبية وثقافية أن يثبتن في حلبة الصراع ، فإذا كن قد خسرن معركة الحرية الشخصية والكرامة وفقدن كيانهن كنساء محترمات موقرات ، فقد فجرن طاقتهن فيما أتيح لهن من فرص ، فربحن معارك الفن والأدب (١) .

(١) الأنثى الأدبية ص ٢٦٠ .

خاتمة

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن قبل أن نضع اللمسات الأخيرة لكتابتنا (أدب النساء) فى الجاهلية والإسلام . هذا السؤال هو : لماذا قل نثر النساء . ونتاجهن الأدبى فى فتراته المختلفة وبخاصة فى العصر الجاهلى — باستثناء العصر الحديث الذى نهضت فيه المرأة كاتبة وشاعرة ومفكرة وقصصية ، وخطيبة ومحاضرة ومناظرة .

ورداً على تلك التساؤلات نقول :

١ — فى العصر الجاهلى لم تكن هناك الإمكانيات المتاحة التى تهيء لظهور هذا الفن النسائى (النثر الفنى) فالرواة كان جل اهتمامهم منصباً على رواية الشعر وحفظه ، لحب العرب للشعر وتعظيمهم للشاعر ، لأن العرب أمة شاعرة يعززون بشعرهم ويتخذونه الوسيلة لتخليد مآثرهم والإشادة بفضائلهم فهو عندهم كالآثار المشيدة التى خلفتها بعض الأمم ،^(١) وقد سارعوا إلى حفظه — دون النثر — لأنه أسير على الزمن وأبقى على الدهر ، ولأنه أسرع فى الاستظهار والحفظ من النثر ، إذ النفس إليه أميل والفؤاد به أشد علوقاً ، وأكثر رغبة لارتباطه بالموسيقى والغناء لكونه منهما ، بخلاف النثر الذى تجرد من هذا الارتباط الموسيقى ، فهو معرض للنسيان والترك ، فتراكييه غير منغمة ولا تعطى روايته فرصة الترنم والتغنى به ، مما جعله لم يعمر طويلاً ، أما الشعر فعمره أطول لسهولة حفظه والتغنى به .

٢ — وربما ترجع قلة النثر الفنى النسائى إلى أن الرواة فى عصر الجمع والتحصيل

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى : ٦٠٣

كانوا حراساً على الغريب فكانوا يأخذون عن الأعراب لأنهم يقدرّون في الشعر قيمته اللغوية (١) ولم يحفلوا برواية نثر النساء وبما لقلّة غريبه ، أو لأن فيه ليناً وضعفاً فعدّلوا عنه إلى الشعر ولم يعباؤا به .

٣ - لم تكن هناك الوسائل الكافية التي تشجع على تسجيل الكتابة النسائية ، أو النثر الفني النسائي ، فبالرغم من أن الكتابة كانت معروفة في العصر الجاهلي ولكن الأدوات الكتابية كانت بدائية وغير مكنة للتداول وليست هناك من الوسائل الحديثة التي تساعد على انتشارها وتداولها وتنافها . الأجيال تلو الأجيال ، وحتى لو وجدت هذه الوسائل فليس هناك - كما قدمنا - من يشجع النثر ، فالاهتمام كله بالشعر والشعراء لأن الشاعر لسان قبيلته يذيع محامدها ، ويهجو خصومها ، ولم تكن المرأة لتقوم من القبيلة هذا المقام ، لذلك قل نثر النساء وكثر شعر الرجال .

٤ - النثر بصفة عامة كان قليلاً جداً لأن العرب استخدموا الكتابة في العصر الجاهلي لأغراض سياسية وتجارية ، ولكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية عالصة (٢) تبيح لنا أن نزعّم أنه وجد عندهم نوع من العناية الفنية . ويرى الجاحظ أنهم كانوا يكتبون بعض عهودهم السياسية ، وكانوا يسمون تلك العهود (المهاريق) (٣) .

ويقول الدكتور شوقي ضيف دماً لاشك فيه أنه لا يوجد تحت أيدينا وثائق نستطيع أن ندعى بها أن الجاهليين عرفوا الكتابة الفنية ، إنما الذي نستطيع أن ندعيه أن لهم حقاً عن طريق الوثائق الصحيحة ، هو الأمثال ، فقد أكتروا من ضربها ، وقد سملت لنا طائفة واسعة من الأمثال تماثلتها الرواة

(١) نفس المصدر ٥٠٦ (٢) الفن ومذاهبه في النثر الفني .

(٣) الحيوان ١ : ٦٩ .

جيلا بعد جيل مما أتاح لها أن تحتفظ بصورتها الجاهلية ، ومعروف أن الأمثال لا تتغير بل تظل طويلا على هيئتها التي صيغت عليها .

وأما الخطابة وجميع السكبان فصاعت نصوصهما إلا قليلا جداً ، إذ بقيت بعض قطع ، وبعض صيغ منشورة في ثنايا السكتب التاريخية والأدبية . (١)

وإذا كان النثر بصفة عامة قليلا جداً كما بينا ، كان النثر النسائي الهني بصفة خاصة أقل من ذلك بكثير فضلا عن العوامل الأخرى التي كانت سبباً في قلته وضآلته ، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً .

هـ - ارتبطت المرأة العربية بالشعر والغناء لأنهما يصدران عن العاطفة ويعبران عنها ، وبواعث الغناء هي بواعث الشعر ، وللموسيقى أساس الشعر فهما عنصران أساسيان يكمل كل منهما الآخر ، والنساء ألبق باحتراف الغناء من الرجال لأنهن في الغالب أئدى صوتاً وأحلى ترجيماً ، وأرق نغمأ ، ولأن الجمالهن وأوثقهن أثراً في الطرب لهن ، وقد ذهب الجاحظ إلى أن « الغناء المطرب في شعر الغزل من حقوق النساء » ، ويلبغى أن تغنى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتي فيهن نطق تلك الأشعار ، وكما بين أن تسمع الغناء من فم تشتهى أن تقبله ، وبين فم تشتهى أن تصرف وجهك عنه ؟ على أن الرجال دخلاء على النساء في الغناء ، كما رأينا رجالاً ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح ، وبعد فأبما أحسن وأملح وأشهى أن يغنيك لخل ماتف اللحية كثر العارضين ، أم شيخ منخلع الأسنان مغمض أوجه ؟ أم تغنيك جارية كأنها طاقة ترجس ، أو كأنها باسمينة ، أو كأنها خرطت من ياقوتة أو من فضة مجلوة (٢) .

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ٢٠

(٢) رسالة العشق والنساء ١٦٥ نقلا عن المرأة في الشعر الجاهلي ٥٦ .

(٣) نفس المصدر السابق .

لذلك نجد أن ميل النساء إلى الشعر والغناء أكثر من ميلهن إلى النشر وتديبج الإنشاء وبالتالي فإن الرواة أحيوا روايتهما وترديدهما ، والرواية عربى يهزه تغريد الطيور ويأسره هديل الخنازم ، وهذا هو السر الذى حفظ تراث الغناء والشعر وأهمل النشر النسائى ، حتى أن هناك كتباً كثيرة ألقت فى الغناء والشعر - وأهمها وأخذها كتاب الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني .

٦ - نلاحظ أن أشعار النساء التى نقلتها إلينا الرواة قصائد قصيرة يحملنها أو مقطوعات ، والظاهر أن طبيعة النساء لا تساعدن عادة على إطالة القصائد ، حتى فى قصائد الرثاء الذى هو الفن الأقرب لأذواقهن ، فلا نجد لواحدة منهن قصيدة تضارع قصيدة أبى ذؤيب الهذلى فى طولها ومتانتها أو مرثية كعب بن سعيد الغنوى ، ولهذا نجد فى الكتب التى عيّنت باختيار القاطع القصائد لحاسة أبى تمام مقطوعات لمن (١) ، وهذا يدل على ضآلة القدرة الشعرية عند النساء ، وضيق نفسهن فى هذا المجال ، وإذا قصر باعهن فى المجال الشعرى كن فى مجال النشر أشد قصوراً وأقل إنتاجاً .

٧ - وفى ظل الإسلام الحنيف ، نشطت المرأة نشاطاً ملحوظاً ، فروت الأحاديث وكانت عضواً فعالاً فى نشر رسالة الإسلام السمحاء وأحكام الدين ورفع منار السنة الغراء ، فروت الحديث عن النبي ﷺ كالسيدة عائشة رضى الله عنها ، فلقد كانت عاملاً كبيراً ذا تأثير عميق فى نشر تعاليم الرسول ﷺ والتفانى فى إعلاء كلمة الله لتخفق رأيته على الخافقين .

وأمر خطير كهذا يتطلب استعداداً خطابياً وأديباً ، يؤهلن لافتهام هذا الميدان الجديد .

ولا شك أنه كان لمن روائع نثرية واستعدادات أدبية وتراث أدبى كبير

ولكن الظروف التي مرت بها الدولة الإسلامية ، وحروب التتار والمغول ربما أضاعت هذا التراث .

فلا يعقل أن يكون للسيدة عائشة وهي وارثة البلاغة النبوية ، هذه الخطب المحدودة القليلة التي وردت إلينا كما لا يعقل بأى حال أن تجيء خطب الشيعيات أنصار على قليلة وقصيرة . ولا يخفى أن هذه الفترة التي عاصرت الشيعيات انسمت بالنشاط والازدهار ، وقوى فيها هذا اللون من الخطابة التي تقوم على الحوار والمناظرة ، وتفرق الحكم إلى مذاهب شتى وأحزاب مختلفة ، كل يدافع عن مبدئه وعقيدته التي يؤمن بها .

٨ - من سمات الأدب الحرية والتنقل من مكان إلى مكان المحذور « الصالونات الأدبية » ومشاهدات المقتمرات الشعرية والمنتديات الفكرية ، والإسلام حينما جاء وضع المرأة في إطار شرعى ملتزم ، فهو عجيبة ممنوعة من التحدث مع الرجال إلا من وراء حجاب ، كما أنها شغلت بأمور دينها ومناصرتها ، وهذه العوامل تحد من نشاطها الأدبي وتقلل من إنتاجها النثري . وفي عهود المولدين والمحدثين وبخاصة في الأندلس شاع الغناء والطرب والشعر ، ولا يخفى الارتباط الوثيق بين الشعر والغناء ، لأنهما معاً يصدران عن العاطفة .

وكما بينا أن المرأة أميل للغناء ، وما الغناء إلا مقطوعات من الغزل تنشد في قصور الخلفاء ، وتغنى في مقاصير الأمراء ، في سبيل نيل الحظوة والظفر بالأعطيات والأموال ، فشاهدنا تنافساً بين النساء وبخاصة القينات على إجادة هذين الفنين : الغناء والشعر وبخاصة شعر الغزل ليبلغن بهما عند الخلفاء منزلة لا تسامى وحظوة لا ترام ، وزلفى لا تنال ، وقد بلغ من تفوقهن في فن اللحن أنهن كن يعلمنه أبناء « الفرنجة » ، كل على حسب لغته ، وصارت الأندلس معهداً

للغناء والشعر ، يأتي إليه داغوبو التعليم من كل فج عميق .
إذا عرفنا هذا وصلنا إلى السر في قلة نتاجهن الأدبي ، وكثرة إنتاجهن الغنائي
والشعري وبخاصة في هذه المرحلة .

٩ - يضيف الدكتور الحوفي رحمه الله عاملا آخر يسوقه تلميذا آخر
لقلة نتاج المرأة الأدبي ، ويرجع ذلك إلى لون من التعصب ؛ فقد ضرب المثل
ببعض الشعراء في إجادة فنون خاصة ولم يضرب بالخنساء في إجادتها الرثاء ،
وإيثار ابن سلام لمتعمين نويرة في الرثاء مع وجود غيره من الشاعرات ، ومثل
هذا كثير في كتب الأدب .

(تم الكتاب بحمد الله - القسم الأول : النشر ،)

(ويليه بعون الله - القسم الثاني : أشعار النساء ،)

(وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم)

أهم المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - الحديث النبوي الشريف
- ٣ - الأغاني - أبو الفرج الأصبهاني - هيئة الكتاب - مصر
- ٤ - تحت المصباح الأخضر - توفيق الحكيم - مكتبة الآداب - مصر
- ٥ - المرأة في الشعر الجاهلي - د / علي الهاشمي - دمشق
- ٦ - ديوان طرفة - هيئة الكتاب - مصر
- ٧ - شعراء النصرانية - لويس شيخو - مكتبة الآداب - مصر
- ٨ - حضارة العرب - جوستاف لوبون - عيسى الحلبي - مصر
- ٩ - الإصحاح - بيروت
- ١٠ - المرأة في الشعر الجاهلي د / الحوفي - مطبعة نهضة مصر
- ١١ - تحرير المرأة - قاسم أمين - بيروت
- ١٢ - صبح الأعشى - هيئة الكتاب - مصر
- ١٣ - قصة الحضارة - زكي نجيب محمود - لجنة التأليف والترجمة - مصر
- ١٤ - المرأة العربية - عبد الله عفيفي - دار الكتب المصرية - مصر
- ١٥ - الخطابة لأرسطو - إحسان عباس - بيروت
- ١٦ - الخطابة في صدر الإسلام - دار المعارف - مصر
- ١٧ - الأدب الجاهلي - د / محمد بدر وزميله - مطبعة المنار بالرياض
- ١٨ - الوسيط - أحمد الاسكندري وآخرون - دار الكتب - مصر
- ١٩ - جمهرة خطب العرب - أحمد زكي صفوت - مصطفى الحلبي - مصر
- ٢٠ - العقد الفريد - لابن عبد ربه - لجنة التأليف والترجمة - مصر
- ٢١ - مجمع الأمثال - للبدياني - بيروت

- ١٩٦ -

- ٢٢ - جمهرة الأمثال - للعسكري - بيروت
- ٢٣ - البيان والتبيين - للجاحظ - الخانجي - مصر
- ٢٤ - بلاغات النساء لابن طيفور - بغداد
- ٢٥ - الأماشي - القالي - دار الكتب - مصر
- ٢٦ - ذيل الأماشي - القالي - دار الكتب - مصر
- ٢٧ - الكامل - للبرد - بيروت
- ٢٨ - سرح العيون - لابن نباته - بيروت
- ٢٩ - إنسان العيون - للحلي - المطبعة المصرية - مصر
- ٣٠ - خزانة الأدب للبغدادي - الخانجي - مصر
- ٣١ - الوصف في شعر المتنبي - متولى القاسم - مجلة دار العلوم - مصر
- ٣٢ - صور البديع - د/ علي الجندي - مكتبة الشباب - مصر
- ٣٣ - شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون - بيروت
- ٣٤ - الحكم والأمثال - دار المعارف - بمصر
- ٣٥ - الجديد في الأدب العربي - لجنة تربية - بيروت
- ٣٦ - تطوير الأساليب النظرية - المقدسي - بيروت
- ٣٧ - النصوص المقررة - عبد الفتاح لاشين وآخرون - الأهرام - مصر
- ٣٨ - الفن ومذاهبه في النثر العربي - د/ شوقي ضيف - دار المعارف - مصر
- ٣٩ - صحيح مسلم، صحيح البخاري - مطبعة الشعب - مصر
- ٤٠ - سبل السلام - للزبيدي - مطبعة الرياض
- ٤١ - نهاية الأرب - النويري - هيئة الكتاب - مصر
- ٤٢ - العمدة - لابن رشيق - بيروت
- ٤٣ - الخطب والمواظظ - محمد عبد الغني حسن - دار المعارف - مصر
- ٤٤ - الحياة الأدبية - د/ خفاجي - مؤسسة ومكتبة خدمة العلم بالرياض

— ١٩٧ —

- ٤٥ — أسلوب المحاوره — د/ عبد الحلیم حفنى — مصر
- ٤٦ — الصناعتان — لآنى هلال العسكرى — بيروت
- ٤٧ — دائرة معارف مجلة المعرفة — مؤسسة الأهرام — مصر
- ٤٨ — الأدب العربى فى العصر العباسى — د/ محمد بدر — الأهرام — مصر
- ٤٩ — الحيوان — الجاحظ — عيسى الحلبي مصر
- ٥٠ — الأندية الأدبية فى العصر العباسى — الهاشمى — بيروت
- ٥١ — المزه — جلال الدين السيوطى — عيسى الحلبي — مصر
- ٥٢ — الظرفاء والشعاعون فى بغداد وباريس — بيروت
- ٥٣ — الأعلام — للزركلى — بيروت
- ٥٤ — القرآن إعجازه وبلاغته د/ عبد القادر حسين — مصر
- ٥٥ — لغتنا الجميلة — فاروق شوشه — مكتبة مدبولى مصر
- ٥٦ — القاموس المحيط — بيروت
- ٥٧ — تاج العروس فى شرح القاموس — بيروت
- ٥٨ — مرآتى شعراء النضرانية — لويس شيمحو — بيروت
- ٥٩ — أعلام النساء — لعمر رضا كحالة — بيروت
- ٦٠ — الدر المنثور — زينيت فواز — بيروت
- ٦١ — شاعرات العرب — عبد البديع صقر — المكتب الإسلامى — قطر

المحتوى

الموضوع	صفحة
المقدمة	٣
تمهيد	٩
في العصر الجاهلي	١٣
الوصايا	١٦
الوصف	٢٢
أدب الكواهن	٥٦
خطب الكواهن	٥٩
الحكمة والمثل	٨٣
النثر في العصر الإسلامي وبني أمية	٩٣
خطب المناظرة	١١٩
أسلوب المتحاورات	١٣٥
المتحاورات مع معاوية	١٤١
الأدبيات في العصر العباسي والاندلس	١٥٤
نماذج للنثر في هذا العصر	١٦١
نثر الجوارى	١٧٥
المتسككة بالقرآن	١٧٩
حديث الجوارى الخمس	١٨٥
خاتمة	١٨٩
أهم المصادر والمراجع	١٩٥

كتب المؤلف

- الأدب في العصر الجاهلي - الأهرام مصر
- الأدب في صدر الإسلام وبنى أمية - الأهرام مصر
- الأدب في العصر العباسي - الأهرام مصر
- محاضرات في الأدب والنقد - الأهرام مصر
- البحث الأدبي
- دراسات حول النصوص الأدبية - الأهرام مصر
- نزعة الجلساء في أشعار النساء - مطبعة الأمانة

تحت الطبع

- أشعار النساء في الجاهلية والإسلام
- شعر المرأة في العصر الحديث
- شعراء الأزهر في العصر الحديث
- دراسة تحليلية لكتاب فن الشعر لأرسطو
- محمد بن عبد الوهاب وأثره في الحياة الأدبية

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٩٩٨ / ١٩٨٣
الترقيم الدولي — ISBN ٩٧٧

طبع بمطبعة مكتبة الآداب المطبعة النموذجية

09

7